

بقلم الأستاذ المرحوم /إسماعيل رسول أحمد



ألتحدي

قصة حقيقية تروي جانبا من

نضالات طلبة أبناء شعب كردستان العراق

أعدتها للنشر / أبنته ژيان



أربيل – ٢٠١١

التحدي

قصه حقيقيه تروي جانباً من

نضالات طلبة وأبناء شعب كردستان العراق

بقلم الأستاذ المرحوم/ أسماعيل رسول أحمد

أعدتها للنشر/ أبنته ژيان

المديرية العامة للصحافة والطباعة والنشر

مديرية النشر أربيل

اسم الكتاب: التحدي

المؤلف: اسماعيل رسول احمد

تصميم الداخلي: سامي علي بنديان

تصميم الغلاف: نادر خەیاتی

طبعة الاولى: مطبعة الثقافة / اربيل ٢٠١١

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (٢٤٥٩) لسنة ٢٠١١

الأهداء..

أيـها الوالـد الطيب القلب.. ها أنا قد حققت ماطلبته مني..وهـا هـي قصـتـك تأخذ طريقها للقرّاء.. لعلي قد قدمـت شيـنـاً من البِـر والوفـاء والتـقديـر والعـرفان لـك.. وهـو جزء مما قـدمتـه لنا – أنـا ووالـدتـي واشقائـي دلير و سالار وشقيـقتي نيشتمان- بالكثيـر والوفيـر من الحب والرعـايـه والحنـان. وإلى أبناء شعـبي الكـردي.. أهـدي قصـة والـدي •

- التـحدي- آمـلةً أن تضيـف أرهاصةً نوعيه إلى تاريخ السـيره النضاليه لشـعب كردستان المناضل.

الأستاذ المرحوم أسماعيل رسول أحمد

عشق السياسة وخاض غمارها منذ نعومة أظفاره، فنشأ مناضلاً صلباً، مفكراً وأديباً لامعاً، قيادياً بارزاً، كاتباً قصصياً روانياً يُشار إليه بالبنان، ناقداً أديباً ذو نظرةٍ ثاقبةٍ متزنه، بليغاً في كتاباته العربيه والكرديه. ظلّ ملتزماً بمبادئه وقضية وطنه وشعبه، قريباً إلى رجالات الحركه الكرديه ورموزها المناضله. لم يهادن ولم يساوم لحظةً واحدةً في حياته مختلف الأنظمه والحكومات المتعاقبه. وظلّ يحمل لواء قضية شعبه الكردي سيفاً لايعرف النكوص. له من الأبناء دلير وسالار ومن البنات زيان ونيشتمان.

مارس الكتابه منذ عام ١٩٤٨، حين كان فتاً .. رئيساً للجنة الخطابه في ثانوية أربيل. وصارت الكتابه جزءاً من حياته منذ أن كان سجيناً سياسياً في سجن بغداد المركزي، حيث بدأ بكتابة مقالاتٍ تثقيفيه لرفاق السجن أنذاك. تدرج في سُلّم الوظائف الحكوميه، فتسلم مسؤولية سكرتير تحرير مجلة (الثوره الزراعيه) عام ١٩٧٤، ثم عضواً في المجلس التشريعي لمنطقة كردستان في ٣٠ تموز ١٩٧٤، ثم أميناً لسر المجلس الذي رأسه بكر محمود البشدري ونائبه أحسان هبة الله.

وفي أذار ١٩٧٥ تم أختياره عضواً في الجبهه الوطنيه والتقدميه / فرع أربيل. وفي الثامن والعشرين من شهر شباط عام ١٩٧٧ عُين محافظاً لأربيل. ثم أقصي من هذا المنصب لرفضه أن يكون بعثياً.

وفي عام ١٩٧٨ عُين مستشاراً في وزارة الثقافه والفنون، ثم عضواً في المجلس الأعلى للحمله الوطنيه لمحو الأميه، ومشرفاً على بعض محافظات كردستان.

في عام ١٩٧٩ أوعزَ إليه القيام بأعمال ألمستشار لأعمال دائرة الفنون، ومن ثم في نفس العام، صدر قرار بتعينيه مديراً عاماً لدار الثقافه والنشر الكرديه، ورئيساً لمجلس الأداره.

في عام ١٩٨٢ أحيل إلى التقاعد بناءً على طلبه بعد صِدامٌ مباشر وحاد مع وزير الثقافه والأعلام أنذاك (لطيف الدليمي) في واقعةٍ تعد فريدةً من نوعها.. حين كانت مواجهة رموز النظام ضرباً من المستحيل، سحب الأستاذ المرحوم أسماعيل رسول أحمد- المايكروفون من أمام الوزير صارخاً بوجهه- (عليكم أن تحترموا الناس وتحفظوا لهم كراماتهم) رداً على تفوهات قذره أطلقها الوزير.

قبل وفاته أوصى المرحوم أسماعيل رسول أحمد أن تجد قصته هذه طريقها للنشر، وأن يتم طبعها لتصبح في متناول الناس والطلبه الدارسين والمثقفين في كل كردستان والعراق.

ومنذ سنوات عكفت إبنته الكبرى - ژيان- على جمع أوراقها ومسوداتها ولملمة صفحاتها وهي تصبوا بلهفةٍ لتحقيق وصية والدها، حباً وتقديراً وأحتراماً وبِراً لذكراه، حتى أكتملت وقدمتها للطبع والنشر. لكل القراء والمثقفين في العراق.. وإلى جميع أبناء ومناضليّ ومثقفيّ كردستان، نقدم بين أيديكم - التحدي- قصة الأستاذ المرحوم أسماعيل رسول أحمد.

ژيان اسماعيل رسول احمد
زوجة الدكتور مروان عبد الرحيم ياس
الاستاذ في كلية الطب/جامعة هولير الطبيه
كانون الثاني/ ٢٠١١

-١-

عندما أرتدى معطفهُ العتيق، خرج من البنايه الجديده ألتي كانت قد أُتخذت حديثاً ملجأً لطلاب القسم الداخلي، الذين وفدوا إلى المدينه من القصبات التابعه لها لغرض إكمال تحصيلهم الدراسي، وجد أن المطر ينهمر رذاذاً وطبقه كثيفه من الغيوم الداكنه تغطي السماء والرياح كانت تعصف بشده. فشتاء مدينه أربيل، و بالأخص في شهري كانون ألثاني و شباط ذو برد قارص ترتجف له الأوصال.

كانت ألبنايه تقع بالقرب من بستان الفستق العائد لأحد ملاكي المدينة الكبار، وهي تبعد عن المدينه بمسافةٍ غير قليله وكان عليه أن يقطع هذا ألطريق الطويل كي يصل إلى الطرف الأخر منها، و بالرغم من أن الناس لايمكنهم ألمجازفه في مثل هذا الطقس الرديء، الخروج ليلاً، إلا إنه كان مرغماً على ذلك، لأداء الواجب الذي كلف به. بدأ يسير بخطى سريعه. وكان عليه أن يذرع الطرق والأزقه الموحله كي يصل إلى بيوت الأصدقاء والزملاء، الذين ينبغي أن يُبلغوا بالنبأ.

دلف الى أول بيت، وكان طالباً معه في الصف الخامس الثانوي وفي نفس المدرسه ألتي يواصل فيها الدراسه، وكان يرتبط معه بعلاقات صداقه متينه ويقضيان أوقاتاً طويلة معاً، في المطالعه والمذاكره وحتى في النزهات.

لقد أندهش كثيراً لزيارته المفاجئه له وفي هذا الوقت بالذات، إذ وجده مبتل الملابس، يسيل منه الماء من فمه حتى أخمص قدمه، وأصبح معطفه ثقيلاً الى درجة لا يستطيع حمله، كانت وجنتاه متوردتين وأسنانه تصطك من البرد الذي نفذ حتى إلى عظامه.

وبعد أن القى عليه بكلمات متقطعه تحية المساء، أسرع صديقه لأحضار المدفئه النفطيه، وناوله على عجل منشفه، يجفف بها رأسه ووجهه. خلع معطفه المبتل الثقيل وجلس على الكرسي الخشبي ووضع المدفئه بين رجليه، وتكور عليها و أنشغل بتدفئة يديه المرتجفتين, وتنشيف ملابسه بينما تمتم مع نفسه دون أن يرفع النظر اليه:

- كيف الحال؟

- على أحسن مايكون، ولكنك تراني منهمك في قراءة درس الفيزياء وكما تعلم يوم السبت هو موعد الأمتحان، وبودي أن أحصل على درجةٍ جيده. تفرس في وجهه قليلاً ثم أستدرك قائلاً:

- هل قرأت جيداً؟
- لا أظن اني سأودي هذا الأمتحان.
= ولماذا؟ قال ذلك بأندهاش وظلّ يتفرس في وجهه الذي بدى فيه إمارات الصرامه.
- إسمع يا سعد، فلدي خبر هام جئت في الواقع لأبلغك به وليذهب الأمتحان الى الجحيم، ثم أني لا أريد أن أضيع الوقت معك في أحاديث غير ذات صله بالموضوع الذي جئت من أجله، كما وأمامي عدداً كثيراً من الزيارات لباقي الزملاء لابد لي من القيام بها، أتفهم؟
فغر فاه من الأندهاش وقال:
- قل لي بربك ماهذا الخبر الذي جئت تبلغني به؟!
- في الساعة التاسعه من صباح الغد، عليك الحضور في الشارع الرئيسي للمدينه بالقرب من الكراج، ويكون الأنتظار في المقهى الملاصق له. ستسمع في الوقت المحدد إشارة الأنطلاق، وهناك نزوَّد بالتوجيهات اللازمه وماينبغي أن نفعله، أظنك فهمتني؟
- إذن فقد تقرر قيام بالمظاهره؟!
- أجل المظاهره.
وقع عليه الخبر وقع الصاعقه، أصابهُ الذهول، وتملكه الأرتباك، وظل ينظر إليه بعيون قلقه، ثم ألقى الكتاب جانباً وأقترب منه، حتى كاد يلتصق به وقال له هامساً:
- ألا ترى في ذلك مخاطرةً كبيره؟
- نعم أرى ذلك، ولٰكن هذه المهمه ينبغي أن تنفذ. اطرق برأسه قليلاً، وبدى كمن يفكر، ثم قال مكرراً:
- ياصديقي، ولأقول لك بصراحه بأنني أرى في هذا الأمر خطورةً بالغه، سيما في هذا الوقت العصيب، ألذي ينتصب فيه شبح الأحكام العرفية كغول مخيف يقذف بالمئات الى غياهب السجون، وهذا الأرهاب الأسود ألذي يجثم على الصدور ويكاد يقطع الأنفاس. قل لي كيف تستطيع مقاومه مفارز الشرطه التي ستهرع دون شك لضربنا وتفريقنا. ألا ترى.. ألا ترى.. وهكذا أسترسل في حديث طويل.
- نعم أرى ماتراه أنت، ولكنه التحدي — وقد يكون تحدياً كبيراً- يكلفنا الكثير. نهض في الحال، وأرتدى معطفه الذى لم ينشف بعد، ونهض معه (سعد) وهو يقول له:

- أتذهب ونحن لم نكمل حديثنا؟!

خرج من غرفته، وودعه حتى الباب الخارجي، وقبل أن يغادره التفت اليه باسماً وقال:

- لا تقلق ياصديقي، لقد سبق لي وأن قلت لك في أكثر من مناسبه من أن هذا الطريق وعر وشائك، وهو طريق التحدي ألا تذكر؟!

ثم ودعه بحركة خفيفه من يده اليمنى, ودسها بسرعه في جيب معطفه، وأبتعد خطوات، التفت إليه ثانيه وقال:

- لاتنسى فالموعد هو الساعه التاسعه.

حينما أبتعد فكر بأمره قليلاً، وهو سائر لأبلاغ الأخرين، حيث رأى الخوف يتألق في عيني سعد، وكان على ثقه من إنه سوف لن يشترك بالمظاهره, وكان ظنه هذا في موضعه، إذ لم يشترك بهافعلاً.

بلغت الساعة الثانية عشرة ليلاً، حينما أكمل زياراته لبيوت كافة الذين أُوكلت إليه مهمة إبلاغهم . كان المطر لايزال ينهمر، والظلام يلف بحلكته المدينه بأكملها، وبدأ يسرع الخطى للعوده الى القسم الداخلي، وسط السيول وبرك مياه الأمطار، والأوحال، وحينما بلغه كان بعض الطلبه ممن لهم معرفة بالموضوع في إنتظاره، بينما كان الأخرون يغطون في نومٍ عميق.

لقد أجتمعوا في أحدى الغرف، وبدأوا يتداولون في أمور اليوم ألتالي ومايـنبغي القيام به، بقدر تعلق الأمر بهم. لقد هيأوا اللافتات والعصي وأدوات أخرى تتطلبها المظاهره, كما وأن البعض قد هيأ أكواماً من الرماد المزوج بمسحوق الفلفل، يحملها معه، ويستعملها إذا أقتضت الضروره, لنذرها في عيون الشرطه، فيما إذا هاجمتهم.

صاح أحدهم:

- ألا تشعرون بالجوع؟

تمتم الأخرون: بلى.

- هلموا إذاً الى المطبخ.

كان الطباخ أيضاً يغط في نوم عميق، وشخيرصدره العالي يحدث ضجيجاً وضوضاء، لم يشأ أحد إيقاظه، بالرغم من انهم لم يجدوا شيئاً مطبوخاً. لذلك فقد تناولوا ماوجدوه من بقايا ارغفة الخبز، والمشمش اليابس الذي سيطبخ لليوم التالي والبرتقال وغير ذلك. ولقد كان البعض منهم على يقين بأنه سوف لن يتناول غدائه في القسم، لذلك فقد قال أحدهم ضاحكاً:

- لنأكل حصة يومنا التالي من الأن.

كان (أزاد) يتفحص عيون زملائه ويدقق النظر في ملامحهم، كان يريد أن يقرأ مايدور في خلدهم, وما يفكرون به تجاه أحداث اليوم التالي. والدخول في هذه المغامره، بينما التجهم والأرتباك كانا باديين بوضوح في سيماء البعض الأخر، لما كانوا يتوقعونه من مخاطر ولكن ومع هذا لم يحاول أحد البوح بما يجول في خاطره، أو أن يظهر تردده للمشاركة بالمظاهره. فجو الحماس ألذي أشاعه المتحمسون الشجعان منهم، قد حجم الخوف في النفوس وكبح النوازع الفرديه الكامنه فيها، الى درجة أصبح من المستحيل أن يظهر الخائف خوفه أو تردده، وفي تلك اللحظه, كانت الكبرياء والبساله وروح الأقتحام، الصفات التي كان يريد أن يتحلى بها أي منهم، لكي يطلق على نفسه صفة المناضل.

نهض أزاد من موضعه, وجال بنظراته في وجوه رفاقه وقال:

- لقد أنتهينا يارفاق من أتخاذ كل الأستعدادات الضروريه وأصبح كل واحد منا يعرف دوره. ولكي ننهض نشيطين لابد لنا من النوم، إذ لم يبق للصباح سوى ساعات.

نهض الأخرون، وتوجهوا الى غرفهم، بهدوء ودون جلبه أو ضوضاء. وتوجه (أزاد) كالأخرين الى غرفته، ورمى بكل ثقله على السرير، وتمدد، وشعر بتعب وأرهاق شديدين من جراء جولته الطويله، ومروره على بيوت الأصدقاء، تنفس بقوة، الى أن امتلأت رئتاه بالهواء، وأطلق زفيراً طويلاً، ثم أستلقى على ظهره، ووضع لبرهه من الزمن كفاه تحت رأسه، وظلَّ يحملق في سقف الغرفة، وأنشغل تفكيره بتوقعات أحداث الغد ومفاجئاتها ومايبنغي عمله، لم يلبث وأن غالبه النعاس وغط في نوم عميق.

-٢-

حينما أستيقض الطلبه في الصباح الباكر، كان الجو لايزال متلبداً بالغيوم الداكنه، وطبقه كثيفه من الصقيع قد غطت جدران البناية الخارجيه وسقوفها، وكانت ريح قويه تهب بقوة لايقوى المرء على الوقوف امامها، وصفيرها كان يصم الأذان. هرع الجميع الى المغاسل على عجل أصطفوا في صف طويل ليأخذ كل واحد منهم دوره. وأسرع كل منهم فيما بعد الى أرتداء ملابسه، والتهام الفطور، بالرغم من أنهم كانوا في عطلة يوم الجمعة، وقد أعتادوا على النهوض المتأخر، أو حتى العزوف عن الفطور.

لقد هرع جميعهم متوجهين إلى المدينه، وكأنهم ذاهبون كالمعتاد لقضاء وقت العطله في مقاهيها وشوارعها أو أسواقها، أو لزيارة بيوت الأصدقاء والمعارف، ولكن لم يكن بالأمكان سماع الضحكات والنكات والتعليقات التي كانوا يطلقونها فيما بينهم كأيام العطل السابقه. كانوا يسيرون بشكل مجموعات، كل ثلاثه او خمسه أو أكثر معاً، وقد أرتسمت على وجوههم أمارات الجدية والصرامه وعلى ملامح البعض الأخر القلق الذي كان يقبع في أعماق نفوسهم ولم يكن يسمع منهم سوى الهمس، وأحياناً النقاش الحاد، ولكن بصوت لايكاد يسمع، فحركات الأيدي والأصابع والتنقلات السريعه بينهم، هي التي كانت تفضح نوعية تلك النقاشات.

لقد قطعوا تلك المسافه الطويلة، وأجتازوا كل تلك الطرقات المملوءه ببرك المياه، والأوحال، دون أن يشعروا بذلك وعند وصولهم الى شارع المدينه الرئيسي، تفرقوا, وتوزعوا في المقاهي العديده الواقعه على جانبي الشارع. لم تكن تلك المقاهي قد أمتلأت بعد، فالوقت لازال مبكراً.

أن الناس في هذه المدينه، يخرجون في أيام العطل والجميع من بيوتهم، ولا يجدون سوى المقاهي لقضاء أوقاتهم فيها. ولايكاد الوقت يبلغ الساعة العاشره صباحاً حتى تغص بروادها ويكاد المرء لايجد حتى شبراً واحداً من الفراغ يدس نفسه فيه, الأغاني التي تبعث من الميكرفونات والراديوات في المقاهي المتقابله، يحدث دوياً كبيراً في طول الشارع وعرضه، ثرثرة الجالسين، أصوات النرد، وطقطقة لعبة الدومينو تصك الأسماع ومع ذلك فالناس يجدون لذة كبيره في ذلك ويعتبرونه من الأوقات الممتعه التي يقضونها في هذه المقاهي.

توجه أزاد إلى الكراج الذي أخفيت فيه الشعارات، والعصي ولوازم العمل، ليشرف بنفسه على الأستعدادت الجاريه، كان هذا الكراج، عبارةً عن ساحه مكشوفه تحيطها جدران عتيقه مهدمه، تناثرت في أرجائها عددمن السيارات القديه والمستهلكه، بينما تراصفت أعداداً أخرى منها، لتأخذ كل منها دورها المقرر، لحمل الركاب والمسافرين إلى القصبات والقرى التابعة للمدينه، وبالرغم من أن الوقت كان مبكراً فأن عدداً منها كانت قد تحركت وحملت معها المسافرين، بينما كان باقي السواق في الأنتظار، حيث كان المسافرون قد بدأو يتوافدون إلى الكراج حاملين معهم أمتعتهم و حوائجهم، ويتسابقون بحجز مقاعدهم في تلك السيارات بينما كان الدلاّل، يصرخ بأعلى صوته، منادياً بأسماء القصبات والقرى التي تتوجه إليها تلك السيارت، كان يحمل كيساً كبيرا من الخام الأحمر، قد تحول لونه إلى داكن، وأصطبغت بعض أجزائه الخارجيه بلون رمادي قريب من السواد من كثرة الأستعمال، يمد يده إلى داخل الكيس، ويتلاعب بالنقود النحاسيه التي امتلأ بها، وكانت قرقعة أصوات النقود تمتزج بصراخه المتواصل، كان يفعل ذلك بحكم العادة ويجد لذة بالغه في ذلك , يتكلم مع المسافرين و ينادي، ويقبض منهم الأجره في ذات الوقت.

أما المسافرون وبعد أن ينهوا أجرائات حجز مقاعدهم ودفع الأجرد يجلسون منتظرين على المقاعد الخشبيه للمقهى الفقير الذي يقع في ركن من هذا الكراج العتيق.

كان (أزاد) أحد المسؤولين في قيادة المظاهره، وكان يشاركه في المسؤوليه طالب آخر كان زميلاً له، وكان عليهما أن يؤديا هذا الواجب بكل دقة وأخلاص, و يحرصا على نجاح المظاهره, ويقودانها على أفضل وجه، لقد كانا في الواقع القياده الفعليه للمظاهره، بالرغم من إنه كان ورائها شخص آخر، يتولى الأشراف من الخارج. لم يكن (أزاد) يعرف شيئاً عن قياده المظاهرات، إذ لم يسبق له ومارس مثل هذه المهمات، ولم تكن قد تكونت لديه الخبرات والتجارب السابقه كي تعينه في اداء هذه المهمه، وهكذا كانت الحال بالنسبة لزميله الأخر، سيما وأن عمرهما لم يكن قد تجاوز الثامنة عشره أو التاسعة عشره، فقد كانا واحدين من الوف الطلبه، الذين جرفهم تيار الحركه الثوريه في أعقاب الحرب العالميه الثانيه، ولكن عندما كلفا بهذه المهمه لم يترددا في القبول، وأقدما على إنجازها دون ان يكون لهما تصور سابق في كيفيه إنجاز هذا الواجب و قيادته بالشكل الذي ينبغي أن يتم، وتعطي الثمار المرجوه. لم يفكرا في هذا الأمر إطلاقاً كان همهما الأساسي هو تنفيذ الأمر الذي صدر اليهما، سيما وأن أزاد لم يفكر حتى في النتائج التي قد تترتب على تنفيذ هذه العمليه. المهم لديه كان تنفيذ هذا الواجب، أما النتائج

لتكن ماتكون. كان حقداً دفيناً قد تراكم في أعماقه، تحدي النظام ومجابهته، كان شغله الشاغل وهمه الأكبر، لقد ذاق ومنذ طفولته مرارة الحياة، وتعاسة العيش، وحينما تفتح عقله، ووعى، وجد أن هذا النظام، سبب كل شقائه وتعاسته، فضلاً من أن هوسه بالمطالعه والمتابعه السياسيه قد وضعه في موضع الثوري الرومانسي الذي يحلم بعالم كان قد نسجه في مخيلته.

لقد سبق له قبل سنه وأن شارك في المظاهرات التي شهدتها شوارع المدينه إحتجاجاً على معاهدة بورتسموث، و تضامنا مع الجموع الثائره في بغداد وكان ذلك في شهر كانون الثاني من سنة ١٩٤٨ ولكن تلك المشاركه لم تجعله قادراً على أستيعاب مهمة قيادة معارك الشوارع، وليس مؤكداً من أن زميله الأخر أحسن منه حظاً في هذا الميدان، ومع هذا فقد وقع الأختيار عليهما وكان عليهما إداء المهمه بأمانه وإخلاص، حسبما تمليها الضرورات، ويستخدما عقليهما وحماسهما المتقدً.

حانت اللحظه الحاسمه، وأقترب زميله (برهان) منه، وهو يحملق في ساعته:

- الأن، بلغت الساعه التاسعه.. ألم يحن الوقت لأعطاء إشارة بدء المظاهره؟

- لقد فتشت المقاهي المجاوره، ولم أجد سوى أن القليلين قد حضروا!! ولست أدري لماذا لم يحضر الباقون؟!

- وماذا ترى إذن.

- أرى تأجيل الموعد لبرهةٍ أخرى من الوقت.

خيم عليهم الوجوم، ورأى أزاد علامات القلق والحيره ترتسم على وجه صاحبه (برهان)، حيث بدأ يلعب بأصابع يديه ويعصرهما بشده وهو يردد:

- ماذا علينا أن نفعل.. قل لي بربك مايجب ان نفعل؟!

في هذه اللحظه قدم (بشير) راكضاً، وقد أرتسمت على قسمات وجهه إمارات القلق، وقد تقلصت عضلات وجهه، وكانت عيناه تبرق بريقاً حاداً. كان هو الأخر من طلاب الثانويه، إلا إنه لم يكن ضمن طلبه القسم الداخلي، حيث كان يقيم في المدينه، لقد كان هو المكلف بالهتاف وأعلان خروج المظاهره.

قال وهو يحدق في ساعة يده!

- ألا ترى أن الموعد قد حان؟

- صبراً أيها الصديق.

- لماذا؟!

- ليست العبرة بخروج المظاهره، أنما بنجاحها.

وردَّ بغضب:

- انا أفهم ماتعني.. قل لي أين هم حاملي الشعارات.. أين هم ألذين يحرسون المظاهره ويسيرون في المقدمه والجوانب.. أين هم الناس الذين يشتركون في المظاهره، قل لي بربك أين هم؟!

- كان هذا الشاب، من أنشط الطلبه الذين شاركوا في مظاهرات السنه السابقه في المدينه، كان مملوءاً بالحيويه والنشاط، شجاعته وجرأته كانتا حديث الأخرين.

- أذهب، وأبحث عن رشاد، فهو الخطيب الأول، وليتهيأ حاملوا الشعارات للحظه المناسبه. قال أزاد ذلك بلهجه صارمه.

كان المقرر أن يحرس المظاهره خمسون شخصاً من الرجال الأقوياء، المتحمسين الأشداء، أغلبهم من العمال والفلاحين، ولكن لم يحضر من هؤلاء سوى عدد قليل. أُجلَّ الموعد عدة مرات بأمل حضور الباقين وكانت الساعه العاشره، بدلاً من التاسعه، الموعد النهائي.

أشار أزاد إلى بشير لأعطاء أشارة خروج المظاهره، فأنطلق كالبرق الى وسط الشارع الرئيسي، وقد صعد الدم إلى وجهه وتوسعت حدقتا عينيه، وظلَّ يصفق بكفيه صفقات شديدة قوية، وصرخ بأعلى صوته يا يعيش.. يايعيش، يسقط..يسقط...الخ، وفي ذات اللحظه إندفع إلى الشارع جمهرة من الشباب، وظلوا أيضاً يصفقون بشدة وبتواصل، ويهتفون بأعلى أصواتهم.. تسقط الأحكام العرفيه.. الموت للرجعيه والأستعمار.. الحريه والديمقراطيه.. فلسطين عربيه...

كان معظمهم في البدايه من الطلبه، سيما طلبة القسم الداخلي. ثم أندفعت جمهرةٌ أخرى وخرجت من المقاهي والأزقه وسوق المدينه. وتولى أزاد قيادتهم، وظل يركض يميناً و شمالاً ويحرص على أن تسير المظاهره بأنتظام، ويردد الشعارات والهتافات المحدده مسبقاً.

في البدايه كان المشاركون قليلون، وثمه أخرين، وبأعدادٍ كبيره قد وقفوا على جانبي الشارع وقد مدوا أعناقهم بدهشةٍ وذهول، بينما كان البعض الأخر يصفق هو الأخر ويهتف.

بدى الأرتباك على وجه أزاد، وكاد القلق يوقف حركة قلبه، وفي هذه اللحظات الحاسمه و العصيبه، كانت أمواجاً هائجه تتلاطم في ذهنه، ويجول ببصره متفحصاً وجوه المتظاهرين، وباحثاً عن الذين لم يشاركوا. وفجأة دق الأرض برجليه.. تباً لكم كنت اعرف أنكم سوف لن تحضرون لقد قرأت في وجوهكم هذا منذ أن أبلغتكم بالخبر!

ثم صرخ متوجهاً الى المقدمه.. علينا أن نسير إلى النهايه، فشجاعتكم قد تغير الأمور.. أين رشاد.. إبحثوا عنه.

- هو ذا أنا يارفيقي.

- نفذ المهمه يا رفيق.

صعد رشاد بالحال، منصة شرطي مرور، المواجهه لقلعة أربيل الشامخه، وقد صعد الناس على شرفات بيوتهم القديه، وكانت النسوه قد غطين أجسادهن بعبانات سوداء، وكذلك الجزء الأكبر من وجوهن، بحيث لم يبق في الظاهرسوى الأعين التي ظلت تحملق بأندهاش وسط الشارع. تدافع الجالسون في المقاهي المحيطه بالشارع، إندفع البعض للمظاهره أو الوقوف على الأرصفه، بينما صعد البعض على الكراسي ليستمتعوا بالمشاهده. بدأ رشاد يلقي خطابه المكتوب بنبرات ملئها الحماس وظل يحرك أصابعه مع كل مقطع من مقاطع خطابه، كانت الصيحات والهتافات تتخلل كلمته. لم يكن قد أنهى كلمته، حينما هاجمهم رجال الشرطه والأنضباط المكلفين بحراسة الشوارع، ككلاب مسعورة, يهوون بعصيهم الغليضه على رؤوس المتظاهرين. وداهم أعداداً منهم رشاد وطوقوه، وظلوا يهوون بعصيهم وهراواتهم عليه وأمسكوا به, كان الدم ينزف بغزارةٍ من جبينه, وظل يسيل كالجدول على خده وعنقه، وقد أصطبغ قميصه بلونٍ أحمر قان.

صرخ أزاد:

- دافعوا عن أنفسكم.. حطموهم.. حطموا أضلاعهم. أفهمتم، الشجاعة يارفاق. أندفع المتظاهرون نحوهم، وأشتبكوا معهم بالأيدي والعصي التي كانوا يحملونها، والأقوياء منهم، أجادوا توجيه اللكمات القوية إليهم، دمروهم، لاذوا بالفرار كالفئران المذعوره أمام هياج وغضب المتظاهرين. لقد صفق جمهور المتفرجين لهذا الأنتصار، وسرعان ماأنضم الأخرون إلى المتظاهرين، رُفعت شعاراتٌ أخرى، دوى الصخب والصراخ أرجاء الشارع: يسقط..يعيش.. يسقط. شعر كل واحد منهم بالحراره تتسرب الى جسده، رغم البرد القارص وشيئاً غامضاً يفور في أعماقه. قسمات الوجوه قد تغيرت، فلم يعد الخوف الممزوج بالقلق مرتسماً عليها، والأيدي لم تعد ترتعش فقد أمسكت باللافتات بقوة عجيبه، الحناجر بدأت تخرج أصواتاً عاليةً صاخبه، صافيةً غير مبحوحه، بدأت نظرات التحدي تتدفق من العيون الصافيه, والحدقات الواسعه تحدق كل شيء وترقب كل شيء، وتستعد لكل شيء، بحذر ويقظه. الحقد والغضب قد أمتزجا فولدا حالةً عجيبه من الحماس والشجاعه.

- أما رجال الشرطه السريه وعيونها، فقد أنزووا وأختبأوا في المنعطفات والمقاهي والدكاكين، كانوا ينظرون بهلع إلى وجوه المتظاهرين، ويتفحصون الملامح، ويشخصون المشاركين، ويحصون حركاتهم وأفعالهم.

سارت المظاهره الى نهاية الشارع الرئيسي، وتجمع المتظاهرون في الساحه الصغيره المقابله لنادي الموظفين. وخرج رواد النادي من الغرف وأغلبهم كانوا من الموظفين. ففي أيام الجمعه والعطل لايجد المرء مكاناً له على مقاعد النادي، حيث ينشغل الرواد بلعب الدومينو أو الورق وبعضهم ينشغل بقراءة الصحف أو المناقشات والآحاديث الشخصيه.

جال أزاد ببصره على الجموع، وأطلق زفرةً، فالجمهور لم يكونوا بالقدر الذي كانوا يطمحون إليه، وبالرغم من أنخراط الأخرين بعد أنتصارهم في المعركة الأولى، فأن المظاهره لم تتحول الى مسيره جماهيريه صاخبه، كما كان مخططاً لها، لتؤدي مهامها، وتجبر السلطه لتلبية المطالب التي كانت قوى المعارضه تطالب بها في أرجاء البلاد كلها. في هذه اللحظه هرع إليه برهان وهو يلهث وقال:

- ماذا ينبغي أن نفعله الأن.

- أين الخطيب؟

قال بعصبيةٍ: ليذهب إلى الجحيم , لم يحضر هو الأخر!

- مادام الأمر كذلك، تولى الأمر بنفسك.

- ولكنني لم اهيأ نفسي لهذه المهمه، الأفضل أن تخطب أنت.

- أنا الأخر لم اهيأ نفسي، ثم أن التعليمات تقضي بأن لا أكشف نفسي بالقدر الذي يتعرف فيه علي اولئك الملاعين. وتفحص في ذات الوقت ملامح برهان، فوجده مرتبكاً قلقاً، الحيرة ترتسم على وجهه بوضوح، وأيقن بأن لافائده من إقناعه ليخطب. فكر قليلاً، لم يكن الوضع ملائماً، لضياع حتى دقيقه واحده، فنجدات الشرطة لم تصل بعد، ولابد وإنهم سيكررون العودة, بقوةٍ أكبر. على القائد الناجح أن يستغل الوقت بذكاءٍ بالغ، وأن يكون حاسماً في إتخاذ القرار، فالتردد قد يضيع كل شيء.

قال أزاد ثانية:

- حسناً سأخطب أنا.

هرع عدد من الزملاء الى المقهى المجاور، وأحضروا كرسياً، وضعوه على الرصيف الخاص بمظلةِ شرطي المرور، المقابل لنادي الموظفين وقف عليه أزاد، وظل يتكلم بصوت جهوري، محركاً أصابع يديه

الممدوده للمتظاهرين، بحماس وحيويه. لم يكن في البدايه يعرفماينبغي قوله، علاه الأرتباك للحظات وكان يمكن ملاحظة ذلك من نبرات صوته، وتقاطيع وجهه الصارمه، ولكن بعد ذلك سهلت المهمه، فوسط هتاف وتصفيق جمهور المتظاهرين أيقن أنه يقول شيئاً يثير فيهم الحماس، كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه بسرعةٍ وسلاسه، وبلغ به الحماس مبلغاً كبيراً. بعد أن أنهى خطابه، نزل من الكرسي، وكان قد تقرر أن تعود المظاهره، وتسير بأتجاه سراي الحكوم، وما أن وصلت منتصف الشارع حتى لاحت من بعيد كتل من رجال الشرطه تغطي رؤوسهم خوذاً فولاذيه، وتتدلى في أيديهم هراواتٍ غليظةٍ وهم يهرولون ويدقون أرض الشارع الموحل، دقات رتيبه. كانت سيارة مسلحه من سيارات الشرطه تسير خلفهم وقد أمسك رجل شرطه بمقبض الرشاش وقد سدد فوهته إلى الشارع بينما وقف خلفه عدد آخر من الرجال ببنادقهم في حاله التأهب والأستعداد.

وكان يتقدم الرتل، عريف شرطه، قوي البنيه، طويل القامه، يتدلى في جانبه مسدس كبير وهو يردد بصوت أجش:

يس..يم..يس..يم. لم يلبث أن صرخ بأعلى صوته قف. تسمر رجال الشرطه في مكانهم على الفور، وقد بدى وأنهم قد أستعدوا للمعركه. حضرت سيارة بيكاب بسرعه، أنزل بعضهم منها أعواداً خشبيةً طويله، أضافةً إلى الهروات والعصي الأضافيه، كما وهرعت عدة سيارات مسلحه بالرشاشات ومملؤه برجال مسلحين بالبنادق والمسدسات، وأتخذت لها أماكن حساسه في الشارع أو الزوايا المؤديه إليه.

تسمرت مقدمه المظاهره في مكانها، وأصاب المتظاهرين للوهله الأولى الذهول، وشعر البعض بخطر حقيقي، سيما وأن القوة التي جاءت لقمع المظاهرة بدت كبيره وعلى درجه عاليه من الأستعداد، فعدم التكافؤ جلي وواضح، هؤلاء مدججون بالبنادق والرشاشات أما المتظاهرون فلم تكن أسلحتهم تتعدى مقابض الأيدي والعصي والأعواد الخشبيه وثم عزيمتهم وشجاعتهم. سادت لحظه وجوم مقلقه، ثار نقاش حاد بين أزاد وبرهان الذي قال بذعر:

- يا أزاد ينبغي أن نتفرق وننقذ أنفسنا على الأقل فالمقاومه مع هذا العدد الهائل لن تجدي نفعاً.

- ماهذا الكلام ياأخي، ألا ترى الطوق المضروب حولنا، لابد من أختراقه بالقوة، أننا إذا أستطعنا أن نوجه إليهم ضربه فلربما ينسحبون، ونجد الفرصه الملائمه، ثم ماذا ألم تكن تعرف مسبقاً أننا سنواجههم. لم نفعل شيئاً بعد.. لا.. أبداً المقاومه هي سبيلنا وأن شئت أن تهرب، فهذا شأنك، أفهمت.. أفهمت.

بدأ يقول ذلك، وقد تملكه الحنق البالغ، وأندفع إلى المقدمه، أنتم يا محسن.. يا محمود.. يا حسين، تقدموا، ليتهيأ الحراس، ليقفوا على الجانبين، لترفع اللافتات، لتعلوا الهتافات ل..ل... .

تراصف المتظاهرون، وقد تشابكت أيديهم، شددت الحراسه على حاملي اللافتات، أندفع المتحمسون والأوقوياء إلى الأمام، وخرجت من الحناجر الوف الصيحات المدويه من جديد. حضرت بسرعه سيارة جيب للشرطه، ووقفت على بعد بضع خطوات من مقدمه المظاهره، نزل منها رجل مديد القامه، وقد بدت بدلته العسكريه ضيقه إلى حد ما، وكانت تزين كتفه عدداً من النجوم النحاسيه، كان برتبة عقيد كان هو مدير شرطة المدينه، المعروف بغطرسته و عنجهيته، والأندفاع لعمل أي شيء لأرضاء من هم أعلى رتبةً منه، تقدم منهم، وقد أحاط به أكثر من عشرة رجال من الشرطه المسلحين بالبنادق والمسدسات، صرخ قائلاً:

- بأسم القانون أطلب منكم أن تتفرقوا.

ردً عليه محسن وقد كان ضمن طاقم المقدمه، وهو شاب طويل القامه، قوي البنيه، كان طالباً في الصف الرابع الثانوي ومن النشيطين، في حقل العمل الطلابي.

- هذه مظاهرة سلميه مالداعي لكل هذا.

- اليس من الأفضل أن تواصلوا دراستكم أو أعمالكم، أأنتم مجانين. ثم صرخ قائلاً: ماهذا الشغب، أتثيرون الفتنه قولوا لي ماذا تريدون.. ماذا تريدون؟!

صرخ حسين: ماذا نريد.. ألاتعرفون ماذا يريد الشعب، حقاً أنكم أغبياء وملاعين، ثم ألتفت الى الوراء وهو يخاطب المتظاهرين:

- أن هذا السيد يريد أن يعرف ماذا تريدون، ألا تقولون له ماذا تريدون؟! أختلطت مئات الأصوات وأحدثت دوياً هائلاً.. نريد أن لانرى وجوهكم القبيحه نريد الحريه.. الديمقراطيه، هدم أسوار السجون نريد.. ونريد.. .

- أبنائي أنا لا أريد بكم شراً، فلقد جئنا نطلب منكم التفرق، وأخلاء الشارع تماماً، وسوف لن نتعرض لكم.

قال ذلك مدير الشرطه وقد أرتسمت على شفتيه إبتسامةً ماكرةً خبيثه وكان يريد أن يشغلهم قليلاً، حتى يستطيع تنفيذ خطته كامله، وهي التي تقضي بسدّ كافة المنافذ عليهم. أدرك أزاد ومعه

الأخرون هذه الخطه، ثم أن خطتهم كانت تقتضي بالأساس التفرق أمام سراي الحكومه، بعد تقديم المطاليب السياسيه التي ضمنوها في مذكره تفصيليه.

صرخ بوجهه حسن قائلاً:

- لا داعي للخديعه، فكما قلت لك، نحن لانريد الفتنه كما تقول ولا نريد الصدام بكم أن تركتمونا لأكمال مسيرتنا السلميه سوف نقابل متصرف اللواء ونسلمه مذكرتنا ونتفرق بهدوء.

- إذن أمهلكم خمسة دقائق فقط كي تعودوا الى رشدكم، وإلا سأأمر هذه القوات بتفريقكم بالقوة افهمتم؟!

إندفع المتظاهرون لمواصلة مسيرتهم، بينما هاجم رجال الشرطه، المقدمه بعصي وأعمدةً خشبيه طويله، متجنبين الألتحام في البدايه، و بدأت المفارز بتطويق المظاهره من الجانبين.

صرخ أزاد: دافعوا بشجاعه، تقدموا، أهزموهم , بدأت المعركه، وقاتل هؤلاء الشبان الشجعان قتالاً باسلاً ، وإلى اللحظه الأخيره، لقد تحول هذا الشارع الضيق إلى ميدان معركه حقيقيه، أستخدم فيها الجانبين العصي والهراوات والأيدي، لقد أستطاعوا أن يخترقوا صفوف الشرطه، ويتلاحموا معهم، وينتزعوا من العديد منهم عصيهم وهراواتهم، إلا أن النجدات التي كانت تتدفق للشارع، قد غيرت الموازنه لصالحهم تماماً، فكثيراً ماكان يقع متظاهر واحد في أيدي أكثر من عشرة من رجال الشرطه، ينهالون عليه بالعصي والهراوات وأخمص البنادق، حتى ينزف منه الدم، فيهرع إليه أخرون من زملائه لنجدته، وأنقاذه من براثنهم، ثم لجأت الشرطه إلى إطلاق نيران أسلحتهم الرشاشه في الهواء، أو تحت أقدام المتظاهرين، لقد بدأت المظاهره بالتفرق، وظلَّ البعض يعارك كي ينقذ نفسه منهم، لقد جرح العديدون وكسرت جماجمهم وأيديهم، وكان من بينهم، محسن وحسين، حيث أصيبا أصابةً بالغه، ووقع الكثيرون أسرى بيد الشرطه، أقتيدوا إلى السراي حيث مقر الشرطه، وكانوا يُضربون بقساوه بالغه، بالعصي وأخمص البنادق أو يجرون من شعورهم جراً وسط الشارع العام وحتى المركز.

أما أزاد فقد داهمه ثلاثه من رجال الشرطه وهجموا عليه كذئاب مسعورد. فكر لحظه، وجد أنه ليس بأمكانه مقاومتهم وتذكر في لمح البصر، بأن في جيوبه شيء يفيد لهذه المعركه الغير متكافئه. مد يده بسرعه الى جيب معطفه العتيق، ليملأ كفاه بهذا الشيء السحري، قذفه في وجوههم بسرعه، فخرجت صرخةً من أحدهم، بعد أن جلس القرفصاء وسط الشارع، وقد غطى عيناه براحة يده وهو يصرخ:

- يالك من وغد ماذا فعلت.. أواه ماذا فعلت، لقد أعميت عيناي.

بينما ظلَّ الثاني واقفاً دون حراك، وقد غطى هو الأخر عيناه براحة يديه وهو يلفظ أقذر الكلمات، أما الثالث، فظلَّ يفرك جفنيه، والدموع تنزل كقطرات المطر من عينيه، تسيل على وجنتيه بغزاره. مدَّ يديه ثانيه الى جيوبه، وقذف مرة أخرى هذا الشيء بوجه من تقدم اليه، فقد كان رماداً ممزوجاً بمسحوق الفلفل الذي أعدّه لهذه المهمه. أراد الأول أن ينهض، ويهجم عليه، ولكن أزاد أهوى على رأسه العصى الذي كان يحملها، وقفز، وسار مسرعاً، ودلف أحدى المحلات التي كانت تقع على الشارع، رفض صاحب المحل أيوائه فخرج من المحل ووقف برهةً يحدق في الشارع. كان خالياً إلا من رجال الشرطه وهم يتراكضون في كل الأتجاهات، العصي والأعواد الخشبيه كانت قد تكسرت وتناثرت هنا وهناك وأقمشة اللافتات، قد تلطخت بالأوحال، وتبللت بمياه الأمطار وتركت بقعاً حمراء على الشارع. أنتظر قليلاً، ثم أسرع الخطى وحرص أن لا يلتفت إلى جانبيه، بينما يصل إلى أحدى الأزقه المتفرعه من الشارع، كي يغوص فيها ويختفي.

ولكن سرعان ما ألتفت على صوت:

- لا تتركوه يهرب.. هو ذا.. هو ذا.. لقد وجدته يخطب إنه من المتظاهرين.. من المتظاهرين.

حينما دقق النظر فيه، وجده ذلك الرجل المربوع البدين المنفوخ البطن، بائع الباجه، وكان يقف في دكانه أمام قدر كبير تتصاعد منه الأبخره كمرجل القاطره. لقد عرف فيما بعد بأنه من أهالي الموصل كان قد قدم الى هذه المدينه منذ سنين، وكان في ذات الوقت عميلاً للشرطه. أطلق ساقيه للريح، وأراد ان ينجو بنفسه، ولكن رجال الشرطه كانوا أسرع منه، داهموه من كل جانب، مالبث أن قبضوا عليه، وضعوا القماش الذي كان يلف به رأسه، وهو المعروف ب (المشكي) في عنقه وبه ظلّوا يجرونه ورائهم بينما كان الأخرون يهوون عليه بعصيهم وهراواتهم على ظهره وأنحاء جسده الأخرى. لقد وقع عده مرات، تلطخ معطفه بالأوحال، وسرواله البني قد تلطخ هو الأخر. تألم كثيراً لأن الملابس هذه كان قد أستعارها من زميله بشير، لقد أراد أن يشارك في المظاهره بالزي الكردي التقليدي (رانكو جوغه) أغلب الظن أن بشير لم يكن قد لبسه، لقد كان يبدو جديداً، ولكنها قد تلطخت الأن بالأوحال. لقد أقتادوه الى المركز في هذه الحال، وكان أول مرة يدخل الموقف في حياته.

-٣-

كان مركز الشرطه يقع داخل سراي المدينه، وهو بنـاء ذو طـابقين تتركـز فيـه معظـم دوائـر الدولـه الرسميه، بما في ذلك ديوان متصرف اللواء ومدير الشرطه، والخزينه والمحاكم.

وحينما دخل أزاد في المدخل الرئيسي الذي كان يصطف أمامه شـلةً مـن الحرس، وجـد صـعوبه في تسلق الدرجات المؤديه الى الطابق العلوي وكاد لايستطيع أن يسحب قدميه، من شـدة الأرهـاق والألام التي كان يعاني منها، ولكن الحرس دفعوه دفعاً، وقـد وجـد نفسه مجبراً مـن أن يـستجمع قـواه، لـئلا يتعرض إلى مزيد من الضرب. لقد وجد السراي خالياً من الناس و حتى من المـوظفين، لقـد كـان يـوم جمعه وهو يوم عطلةٍ رسميه، وحينما وصل الطابق العلوي، وجد الممر الطويـل الضيق أمام غرفـه معـاون الشعبه الخاصه ومدير الشرطه، غاصاً برجال الشرطه، بمختلف رتـبهم ودرجـاتهم. وقـد علـت وجـوههم الصرامه. الضجيج والصخب ينبعث من كل غرفه وزاويه، وبين الحين والأخر، كانت مجموعةٍ جديـدةٍ مـن رجال الشرطه، وكان بعضهم بملابس مدنيه، يقتادون أمامهم عدداً أخر من المقبوض علـيهم، المعـاونون والمفوضون كانوا يرمقونهم بنظـرات الخـيلاء والغـرور ممزوجـه بنـشوةِ الأنتـصار. لقـد أجـبروا الموقـوفين بالجلوس على بلاط الممر، البارد الرطب. كانت أبواب الغرف تفتح وتغلق بأنتظام، المفوضـون والعرفـاء كانوا يتحركون بسرعه، وهم يحملون أكواماً من الأضابير والأوراق، وكان المحققون، يـستدعون بـين الحـين والأخر الموقوفين لضبط أفاداتهم.

لاحظ (أزاد) أحد معاوني الشرطه، وهو رجل متوسط القامه، ممتلىء الجسم، متوردِ الوجه، أنيـق الملبس، يتفحص وجوه الموقوفين, ويسدد اليهم نظرات حاده، ثم مالبث وأن بدأ يكظم شفتيه، ثم خاطب أحد مفوضيه بعصبيه:

- هل قبضتم على أزاد.

- لست متأكداً فأننا لم نضبط إفادات الجميع بعد. قال ذلك وهو يتلعثم.

صاح فيه:

- كيف لاتدري أيها الأحمق.

-· يا سيدي.. يا.. .

وقد غاصت الكلمات في حنجرته، وظلَّ يجول ببصره يميناً وشمالاً، ويستعرض الموقوفين، علّه يجد الجواب.

صاح ثانيه:

- لماذا أنت صامتٌ كالصخر؟.. ألم تعرفوا أنه أخطر المشاركين، أن تقارير وكلائنا أوردت ومنذ أكثر من أسبوع من إنه يُهيء ويُعد الأخرين لهذه المظاهره أذهبوا وأبحثوا عنه في كل مكان.. هيّا.

قبل أن يتحرك المفوض من مكانه، نهض أزاد من موضعه قائلاً:

- إذا كنت أنا المقصود، فها أنا ذا بين أيديكم.

نظر المعاون إليه بذهول، وتكاد عيناه لا تصدقان رؤيته، وأخذ يضرب كفاً بكف ويتمتم:

- أذن هو أنت.. أنت.

وظلَّ يردد هذه العباره دون إراده، ويهز يديه ورأسه برتابةٍ ذات اليمين والشمال.

- ها .. وأخيراً وقعت بين يدينا، لقد كنا نبحث عنك في الأرض والسماء وها أنت الأن وقعت في المصيده كفأر مسكين.. اليس كذلك يا أزاد؟!

ثم أخذ يحدقه بنظرات حاده، وقد وضع يداه في جيب بنطلونه، ومدَّ رقبته إلى الأعلى، رافعاً رأسه بزهو، دافعاً قفصه الصدريَ إلى الأمام، ووقف منتفخ الأوداج، يضرب الأرض ضرباتٍ متتاليةٍ رتيبةٍ بحذائه، لم يلبث وأن أرتسمت على شفتيه إبتسامه ماكره، انطفأت في الحال، ثم قطب جبينه وحاول أن يبدو صارماً:

- هلْ كنت تظن بأنك سوف تفلت منّا؟!

نظر إليه أزاد، وقد أدهشته حركاتهِ التمثيليه، لم يكن لديه مايقول له. فلاذ بالصمت، وهو ينظر إليه بتحدي.

بينما قال المعاون ثانية:

- أكنت تظن بأننا كنا في غفلةٍ عما كنتم تفعلون.. أولا تدرون بأن لنا عيوناً ووكلاء مبثوثين في كل مكان؟!.. لقد كنا نرقبك تماماً، وكانت صورتك باديةً أمامي طوال الأسبوع المنصرم، دون أن أراك في السابق، ودون أن ألتقي بك وجهاً لوجه كما هو الأن.

- إذن كيف كنت تتصور صورتي وأنت لم تراني؟

أطلق ضحكةً ساخرةً وقال:

- هيا أتبعني وستعرف كيف كنت أتخيل صورتك؟

سار بخطواتٍ رتيبةٍ ومتثاقلةٍ نحو غرفته وكان أزاد يتبعه، وقد أحاط به عددٌ من أفراد الشرطه المسلحين. رفع بصره الى الرقعه ألتي كانت مثبته في أعلى الباب وقرأها ((معاون الشعبه الخاصه))، ثم دخل الغرفه وراءه، أغلق الباب بقوه ولم يلتفت إلى الصوت الذي أحدثه ووقف شرطيان خلفه بينما ركز بصره على المعاون وهو يسير إلى منضدته الخشبيه المثقله باكوام الأضابير والأوراق، جلس على الكرسي الخشبي، أسند ظهره بالمسند الخلفي، وضع يداه على المسندين الجانبيين وظلَّ يربت بكفه اليمنى على حافة المسند، ورفع رأسه نحوه، وظلَّ يسدد إليه نظرات حاده، تنم على الغرور والعنجهيه، وبدأ يقلب الأوراق والأضابير، ثم نهض فجأه واتجه إلى أحد أركان الغرفه، فتح إحدى أدراج الدولاب الخشبي الذي كان بأرتفاع يقرب من المترين وعرض يغطي الحائط المقابل لجهته اليمنى ثم سحب الدرج وأخرج منه أضباره، أستدار، وبخطوات متثاقله عاد إلى منضدته، وجلس، وبدأ يقلب الأوراقها، ويقرأ بسرعةٍ بعضاً من صفحاتها. توقف فجأه، نظر إليه مجدداً والأبتسامه الماكره قد إرتسمت على شفتيه:

- إسمع جيداً، حتى تعرف كيف تخيلت صورتك.. العمر ثمانيةَ عشر عاماً، الطول ١٧٠ سم، لون الشعر أسود، العينان واسعتان وسوداوان، البشرة بيضاء، الوجه مستدير، و ..و.. وظلَّ يقرأ العبارات بسرعةٍ إلى أن أتى على كل مواصفاته. ثم أدار الأضباره نحو أزاد بعد أن رفعها قليلاً ليرى صورته ملصقه عليها.

وقال أزاد في نفسه، .. إذن هكذا، يا للملاعين، كنتم تتبعوني، وتجمعون عني من المعلومات مالم أكن قد فطنت إليه، لقد سجلوا لديهم حتى طولي، ولون عيناي، ولكن ياترى، هل عرفوا بكل ماكنت أفعله؟! هل عرفوا بأجتماعاتنا ولقاءاتنا، هل عرفوا بزياراتي ليلة امس وأنا اطوف بيوت الزملاء.. هل..هل. ظل غارقاً في لجة التفكير ومسترسلاً مع خيالاته، سائراً مع الأحداث التي عاشها خلال الأيام الماضيه التي سبقت المظاهره.. لقد كانوا ينصحونني بالحذر واليقظه، كان خالص يردد في سمعي هذه العبارات كلما كلفني بمهمه كنت أقول له بالطبع سأكون حذراً، سيما وأن احداً لايعرفني، ولكن يبدو أنني لم أخذ المسأله بالقدر الكافي من الجديه، كنت أعتبرهم أغبياء، كيف لهم أن يعرفوا، وقد أحتطنا لكل شيء، حتى كنت أتصور هذه الغرفه دون أن أراها، كما كان هو يتصورني دون ان يراني.. أما أنه يعرف من أنني كنت أعد لهذه المظاهره فهذه مسأله خطيره.. نعم خطيره، يستوجب

التوقف عندها، أيجوز أن احداً من زملائنا قد وشى بنا؟!..أو يكون أحد عملائهم مندسا بيننا .. من يدري ..لم العجله، سوف نعرف كل شيء.. كل شيء. أفاق على صوته القوي الذي ضرب طبله اذنيه.

- بماذا تفكر يا.. أعرفت الأن من أننا نعرف عنكم كل شيء ولكن لم يمضي الوقت بعد فبأمكاني أنقاذك من هذا المأزق.

- ماذا تعني؟

- أعني لو تدلي بالمعلومات التي نطلبها منك، وتذكر لنا اسماء من كلفوكم بهذه المهمه، ومن خططوا لها، ومن يشيعون في البلد الأشاعات المغرضه ضدَّ الحكومه وسياستها وأسماء بعض العاملين في التنظيمات السريه التي أستفحل أمرهم هذه الأيام.. و..و لأطلقت سراحك في الحال، قبل أن ندخلك في أجراءات التحقيق..ها. ماذا تقول؟!

- لست أفهم ماتقول؟

- كيف لاتفهم، وأنت أحد المحرضين على المظاهره.. أيعقل أن يشتغل الأنسان في السياسه لوحده؟ إذن كيف أنتخبوك رئيساً للجنة الخطابه العربيه في الثانويه، وكيف أصبحت مسؤولاً عن شؤون الطلاب في القسم الداخلي، وأحد المسؤولين في إتحاد الطلبه وما سر إذعان الطلاب لتوجيهاتك؟ نحن على علم بكل التيارت الموجوده بينكم وكان ثمه مرشحين عديدين ينافسونك على هذه المراكز فكيف فزت بها أن لم يكن وراءك جماعات معينه أو تنظيمات... الخ.

- ليس في الأمر أي أسرار، فنحن زملاء، ننتخب لأداره شؤوننا من نثق بهم ونراه أهلاً لها، ثم من الذي قال بأنني محرض على المظاهره أو مشارك فيها.

أطلق المعاون ضحكةً هستيريه، وقال:

- إذن كيف أتوا بك إلى هنا.. والله أنت مسكين ومسكين جداً ومظلوم جداً أليس كذلك؟

- كنت ماشياً في الشارع كبقية الناس، حينما أمسك بي الشرطه ويظهر كنتم قد قررتم مسبقاً القاء القبض علي، لأول فرصه تتحينونها.

- ومن كان يخطب أمام النادي. أنا أم أنت؟!

تكلم.. تكلم، قل شيئاً لصالحك، فعليك من الشهود مايكفي لأيداعك في السجن عدداً من السنين، أنصحك للمره الأخيره أن لا تذوي شبابك في السجن، فالدراسه لك أصلح أتفهم؟

في هذه اللحظه، طرق الباب احدهم، ومدَّ الشرطي رأسه الى الداخل ثم تقدم بخطواتٍ سريعه، وقد ضرب الأرض بقدميه بقوه، وأخذ التحيه ثم قال:

- أن أحمد آغا ينتظر أمام الباب سيدي.

- قل له أن يتفضل. قال ذلك بأرتباك.. أسمع قل للمفوض ياسين، أن يحضر فوراً.

- نعم سيدي.

دخل أحمد آغا الغرفه، كان رجلاً مديد القامه، حسن الوجه والملامح ذو عينين واسعتين، بدى بهيّ الطلعه بالزي الكردي، حيث كان مرتدياً بدلةً أنيقةً من (مراد خاني) بدى أنه فصلها حديثاً من قماش أنكليزي فاخر، يحيط بخصره، لفائف من قماش زاهي الألوان، وخيوط (المشكي) الميرمه بعنايه تتدلى من جانبيْ رأسه، وقد غطت أذناه ورقبته، ووصلت نهايتها حدّ الكتف.

نهض المعاون من على كرسيه، وترك المنضده، وصافحه بحراره قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، مرحباً بالأغا، كيف الحال والله كنت مشتاقاً لرؤيتكم ماهذه الغيبه.

- لقد جئتك لأمر خطير فأن اخي محسن قد أوقف هو الأخر، أرجو أن تفعل شيئاً.

أراد المعاون أن يقول شيئاً لكنه أحجم عنه، نظر إلى أزاد بنظرةٍ فاحصةٍ، ثم أزدرد ريقه، ضغط على زر الجرس، فرنَّ بقوةٍ، دخل الشرطي وصاح به:

- أين المفوض.

- لقد أخبرته سيدي.

وفي هذه اللحظه دخل المفوض، قال له المعاون بعصبيه:

- أسمع، أصطحب هذا المتهم إلى غرفتك، وأضبط إفادته، ولا تنسى تدوين إفادات الشهود. خذ هذه الأضباره ففيها كل المعلومات المتعلقه.. أسرع.

خرج المفوض وتبعه أزاد، وعدد من أفراد الشرطه، ثم أغلق الشرطي الحارس الباب.

- لم اشأ أن أقول شيئاً أمام ذلك المتهم، لاحظته جيداً أنه وكما تقول التقارير، خطر جداً. ولكن قل لي أنتم أصحاب جاه وأملاك ومزارع وشيوخ عشائر، مابال أبنائكم هذه الأيام؟! لست أفهم أبداً، كيف ينجر أبنائكم وأخوانكم مع مثيري الفتن والشغب مالهم والمظاهرات والسياسه.

ألا يفطنون أنهم يعملون ضدَّ انفسهم، ألا يسمعون الهتافات والشعارات، فهي ليس فقط ضدَّ الحكومه، أنما أيضاً ضدَّ الأغوات والشيوخ، أنهم يحرضون الفلاحين ضدكم والله لو لم نكن نحن، لما أمهلكم هؤلاء يوماً واحداً كي تكونوا كما أنتم أتفهم؟

- بديع بيك، صدق نحن نشعر بما تشعر به أنت ونحن ندرك فضل الحكومه علينا، إذ لم يرفض لنا طلب تقدمنا به ولكن، قلنا أنه من الضروري أن يكون أبناءنا متعلمين فأدخلناهم المدارس وكنا حريصين، في أن يواصلوا دراستهم، كي يكونوا رجالاً مرموقين في الدوله، لم نشأ أن يكونوا مثلنا أُميين لايعرفون حتى كتابه أسمائهم، عمي نائب في المجلس النيابي، لايعرف ماينبغي قوله، وهو يروي لي بأنه ينظر مشدوهاً الى بعض المتعلمين حيث تخرج من أفواههم الكلمات بسرعةٍ عجيبه. قلنا لاينقصنا شيء سوى الثقافه ونصبح أسياد حقيقيين. تعرف يا بديع بيك أن الزمن قد تغير ولم يعد السوط يكفي، أما أن يتحول أبناءنا الى ثوريين كما يقولون والعياذ بالله، فهو شرٌ مستطير. ينبغي أن تساعدني أن محسن هو أصغر أخواني، فأذا حدث له مكروه أو سجن، سوف لن تعيش أمه يوماً واحداً، إنها تحبه كثيراً ولا تطيق فراقه يوماً واحداً. لقد كنت صاحب فضل علينا على الدوام فاكمل فضلك.. .

قاطعه المعاون بديع:

- ولكن يا أغا، كان يتصدر المظاهره، وكان هو قبل الأخرين يهتف ويصرخ ماذا بوسعي أن أفعل له. ضغط على زر الجرس الكهربائي، أسرع الحارس بالدخول:

- هات لنا فنجانين من القهوه.. بسرعه.

أخرج من علبته لفافه سيكار، قدم واحدةً منها إلى أحمد أغا، ثم أشعل عود الثقاب، وقرب لهيبه من سيكارته وسحب دخانها بقوه ثم نفثها، وخرج من بين شفتيه خيطاً رفيعاً من دخان رمادي اللون، نهض من مكانه، وجلس على الكنبه بجوار الأغا، وفي هذه الأثناء دخل الحارس وأتى بفنجاني القهوه ووضعهما على الطبله الخشبيه أمامهما، وبدئا يرتشفان مافيها.

أردف المعاون قائلاً:

- قل لي منذ متى وهو يعمل في السياسه؟

- والله يابديع بيك لم أفطن إليه ابداً فلقد كان ولداً فقيراً ومؤدباً كنا نقدره على ذلك، وكان خلاف اخوته الأخرين، ولكننا كنا نلمحه يخالط الفلاحين ويجالسهم، وكانوا يحبونه، ومع هذا لم نعر ذلك أي أهتمام.

- ولكن ألا تذكر أن إبن عمك جوهر وأخيك الأخر أنور وإبن عمك الأخر علي كانوا أيضاً يتصدرون مظاهرات العام الماضي، ويهتفون بسقوط المعاهده.

- لقد نصحناهم كثيراً، وقلنا بانكم سوف تقضون علينا بهذا المسلك وكررنا على مسامعهم مراراً: مالذي ينقصكم يا اغبياء، امامكم كل نعم الحياة وملذاتها، امامكم الحياة والنعمه والسلطان فلا تكفرا بها، كانو يضحكون على عقولنا في ألبدايه، ولكن حينما وجدوا الحديد حامٍ، خافوا، وبدأوا يدركون أقوالنا وحكمتها. وفعلاً أنسحبوا من هذه الأمور، وبدأوا يواصلون دراستهم فعلي وجوهر يدرسان الحقوق وقطعا كل صله لهما بالسياسه. أما أنور فبعد أن أختفى لعده أشهر في بغداد، داهموه ذات ليله في أحد البيوت فهرب، ثم ضربوه بالرصاص وجرح في فخذه، ما أن سمعت بالخبر حتى لحقت به، فأنقذته ثم أرسلته الى تركيا ليدرس الطب.

سكت لبرهه ثم واصل كلامه:

- كم أكون لك شاكراً يا بديع بيك لو أنقذت لي محسن أنه شاب طائش، لايدرك مصلحته، أنني على يقين سيصحوا بعد اليوم كما فعل أخوه وأبناء عمه.

ثم مدَّ يده الى جيبه وأخرج منها حزمةً من الأوراق النقديه ذات فئة العشرة دنانير ودسَّها في جيب المعاون بديع، ألذي صاحَ:

- ماذا تفعل يارجل؟.. لاداعي لذلك.. لاداعي.

- إنه شيء بسيط، هديةً رمزيه، ألم ترزق بطفل جديد.

- بلى ولكن كان ذلك قبل أشهر، ثم ألم ترسل لنا هديةً أُخرى في حينه أنسيت؟!.. ثم إنك صاحب فضل علينا على الدوام أتظن إنني نسيت؟!..

- لابأس.. لابأس فالعائله بحاجةٍ إلى مصرف ونفقات المعيشه في إزدياد، ثم إن الله قد منَّ علينا بالكثير ولافرق بيننا يا أخي.

قطع حبل الكلام المفوض ياسين، الذي دخل عليه:

- لقد أنهيت ألتحقيق معه ودونت أقوال الشهود.

- هل ظلَّ مصراً على القول بانه لم يشارك في ألمظاهره؟

- نعم سيدي.

- وألباقون؟

- بقي عدد قليل منهم، سوف أنتهي ومعي ألمفوض كريم وجبار، من ضبط الأفادات. سوف أقدم لكم أوراق ألتحقيق قبل ألمساء.

- وماذا بشأن محسن؟!

- إنه في ضيافتنا ياسيدي.. لم نشأ أن نضعه مع باقي ألموقوفين، قال ذلك وهو يحدق بنظرةٍ ماكره أحمد أغا، وقد أرتسمت على فمه إبتسامةٍ ونظرة ذات مغزى.

- ألم أقل لك يابديع بيك بأن ألمفوض ياسين رجل شهم ومفوض مُجدّ يستحق كل تقدير، أنني راضي عنه كل الرضا وأكنُّ له ألمحبه وألودّ.

قال ذلك أحمد أغا، بلهجةٍ تنمُّ عن الأمتنان وألشكر لما فعله من أجل أخيه.

- عفواً يا آغا، لقد كنت كريماً معي على ألدوام.

- لم أفعل غير ألواجب يا مفوض ياسين.

ثم ألتفت ألمفوض ياسين إلى ألمعاون وقال:

- وماذا نفعل الان بشأن شقيق الأغا؟!

- هل أخذتم إفادته وهل عليه شهود؟

- سيدي إذا سمحتم، أنا أرى إنه ليس من الضروري ضبط إفادته وتدوين أقواله في محضر التحقيق.

- كيف إذن؟

- نطلق سراحه كأن لم يوقف أصلاً.

- وهل أعددت لذلك؟

- نعم سيدي.

- و ألشهود؟

- أتركهم لي.

- يالك من أفاك، كنت أظن أنني الوحيد القادر على تدبير الأمور، ولكن أراك وقد تخرجت من مدرسة ألشياطين.

- بفضلك تعلمت الشيء الكثير. قال ذلك بخبث.

تهللت أسارير الأغا بالفرح، وضجَّ المعاون في موجة ضحك عارمه إلى أن قفز الدمع من مآقيه، ما لبث وأن ضج الأغا أيضا في ضحك متواصل، وضحك معهم ألمفوض ياسين، وهو ينظر إليهما بزهو، كمن وجد حلاً لسؤال مستعصي كان يدور بين الأغا والمعاون.

- طيب إذهب وأعمل ماتراه صالحاً.

- أيعني هذا إنك موافق على إطلاق سراحه؟

- نعم مادمت قد أعددت لذلك.

خرج ألمفوض مسرعاً وقد إلتفت إلى الأغا قائلاً:

- بإمكانك أن تأتي الأن و تصطحبه إن شئت.

لم يمضي إلا بضع دقائق حتى ونهض الأغا من مكانه وصافح ألمعاون بديع، وشكره على صنيعه وقال:

- إنك مدعو يوم الجمعه المقبله في قريتنا، سوف نقيم حفلةً كبيره بهذه المناسبه، وأعدك إنك سوف لن ترى محسن في هكذا مواقف، سأرسله للخارج إن تطلب الأمر فأطمأن.

ثم ودعه بأبتسامه فرح كانت قد طبعت كل أسارير وجهه. وحينما خرج من الباب وجد ألمفوض ياسين وبرفقته أخوه محسن ينتظرانه في الممر.

- أنني أردّ الأمانه أليك ياأغا. قال المفوض ذلك بإبتسامه.

- بارك ألله فيك، سوف لن أنسى لك هذا ألجميل، تعالَ وزرني غداً أو بعد غد فلي معك أمرٍ، وأن شئت فأحضر الحفله التي سأقيمها يوم الجمعه المقبل في القريه وقد دعوت إليها بديع بيك أيضاً.

- سأكون حاضراً بالتأكيد.

- مع ألسلامه.

- مع ألسلامه.

وهكذا غادر أحمد أغا وشقيقه محسن السراي وكانت سيارةً بونتياك جديده واقفةً أمام الباب ألخارجي في إنتظارهم.

إستمرت عمليه ضبط الأفادات حتى ألمساء، وبعدها سيق الموقوفين الى إحدى غرف التوقيف المخصصه للسياسين عادةً. فتح أحد ألحراس الباب ذا ألقضبان ألحديديه، وقد خرج منها أنةً طويلةً،

ودخل الجميع إلى هذه الغرفه الصغيره التي كانت تفوح منها روائح نتنه وكريهه، وقد وضعت في إحدى الزوايا تنكه صدئه، للبول الأضطراري، مما حدى بأحد الموقوفين أن يصرخ بوجه الحارس:

- ماهذا إيها الملاعين، أتحشروننا في إصطبل الحيوانات، أتسمون هذا موقفاً؟

- تحملوا فهي ليله واحده.

- ومن يقول إنها ليله واحده؟ لايمكننا ألبقاء في هذه الزريبه أفهمت؟ أذهب وأستدع ألمفوض وإلا قلبنا الكون في وجوهكم.

حضر المفوض الخفر، وكان شاباً في الثلاثين من عمره، متوسط القامه، يزين وجهه شاربان رقيقان، و ظلَّ لبرهةٍ من الزمن يتفحص وجوه الموقوفين بعينيه السوداوين، وبإبتسامه مترجرجه وقال:

- نحن آسفون فالغرفه غير مناسبه، كل الغرف مملوءه، وليس في غرف السراي موضع قدم واحد، وهذه الغرفه كان فيها مجموعه من السجناء العاديين، أخرجناهم من أجلكم، ووزعناهم على باقي الغرف، أيمكنكم الصبر لهذه اليله؟!

صاح احدهم:

- ولكن ألا ترى هذه ألقذاره، أجلبوا لنا بعض المكانس سننظفها بأنفسنا.. ثم أين الفرش، هل سننام في ألعراء؟

- طيب.. طيب، سنجلبها لكم، فالأفرشه التي جلبتها عوائلكم موجوده لدينا ولكن ليس بإمكانكم مقابله عوائلكم الأن، فستكون ألمقابله غداً.

- المفوض كريم شاب خلوق ومؤدب، انه جيراننا، تربطنا مع عائلته روابط وثيقه، قال ذلك نافع لزميل آخر، بصوت خفيض.

- إذن لماذا لا تحدثه، عسى ان يفيدنا في مثل هذا الموقف.

- مفوض كريم ألا تعرفني؟!.. إنني نافع.

- آه ياللمصيبه، أأنت معهم أيضاً؟ قال ذلك وقد إرتسمت على ملامحه علائم الأرتباك.

- أجل تراني معهم، هذه هي الدنيا.

- .. سأخبر العائله، وسأفعل مابوسعي.

إنهمك الموقوفون في تنظيف الغرفه، وبسط الأفرشه التي جلبتها عوائلهم وشارك من لم تكن عائلته في ألمدينه، ومنهم أزاد، والآخرين في أفرشة الأخرين، و صفت صحون الأطعمه التي جاءت من الأهل

والأقارب، على قطعة قماش كبيره وجعلت سفره واحده، ألتف حولها الجميع، وبدأو يأكلون بينهم, قال احدهم:

- إنه طعام رائع، أليس كذلك؟

- آه انه لذيذ، سيما بعد أحداث اليوم العاصفه.

- وقال آخر: الأن تذكرت بأننا لم نتغدى ايضاً.

وضحك آخر وقال:

- نعم والله لذيذ.. كلوا ملىء البطون، و أخزنوا مزيداً من القوه لأحداث الغد.

وضحك الأخرون.

لقد قضوا قسماً كبيراً من الليل يتحدثون مع بعضهم، وكانت معظم هذه الأحاديث تدور حول أحداث ألنهار ودور كل واحد منهم في تلك ألمظاهره، وظلوا يقيمون نتائجها، سلباً وايجاباً.

- عندما أشرت لي، بإعلان موعد المظاهره، كنت أعتقد إن المئات أو الألاف سوف يندفعون إلى الشارع ولكن!..

قال ذلك بشير وقد طفت المرارة في ثنايا صوته، وهو يشير بأصبعه إلى أزاد.

- نعم، أنا أيضاً كنت أعتقد ذلك.

- لقد قيل لي بأنه أكثر من خمسين شخصاً من العمال الصِداميين سوف يتقدمون المظاهره، ويحرس أضعافهم جانبي ألمظاهره، كما حدث في مظاهرات الوثبه في العام الماضي، ولكن ألذي حدث إن المشاركين كانوا قله و معظمهم كان من الطلبه.

- بل قل أن معظمهم كانوا من طلبه ألقسم ألداخلي.

- لماذا تريدون أن تنسبوا العمليه لكم وحدكم، قال ذلك نافع وقد أرتسمت على ملامحه إمارات الأنفعال, أنا لست طالباً فكما تعلمون أنا عامل في البلديه، ومع ذلك فقد شاركت بل ودخلت المعركه، وقد رأيت الكثيرين من غير الطلاب في المظاهره.

- لماذا لاتقرّ ألواقع، أنظر ألا ترى إن معظمنا طلاب. قال ذلك رشاد بجدًّ وقد إحمر وجهه، وأخذَّ يتحسس جرح رأسه فوق ألضماد.

أنتحى أزاد جانباً، وقبع في زاوية الموقف ألمقابله للباب الحديدي بينما ظلَّ الباقون مستمرون في نقاشاتهم التي كثيراً ماكان الأنفعال أو ألحده تتخللها. لقد أخذته ألخيالات، وظلّت مشاهد المظاهره

وأحداثها، تسير أمام ناظريه كفلم سينمائي، ولقد حاول أيضاً أن يعيد في ذاكرته، حتى اللقطات القصيره، والحوار ألذي دار بينه وبين (خالص) حيث قال له:

- أسمع يا ازاد، هذا يومكم وعليك أن تنهض بالمهمه، لقد عرفت فيك ألشجاعه والأخلاص. لقد أبلغه بانه المسؤول في القياده ألمباشره للمظاهره، وسيتولى هو قيادتها من الخارج.

لقد سرَّه هذا المديح كثيراً، سيما وأنه يحقق ألحلم ألذي كان يراوده على ألدوام في أن يسير على خطى كبار ألثوريين في العالم ألذي قرأ عن سيرتهم و ومقالاتهم ألشيء الكثير، حيث اصبحت ألثوريه لديه كخيال رومانسي يداهمه في أحلام يقظته، ولقد كان يردد على ألدوام ألقول المأثور لديه، والذي كان قد حفظه عن ظهر قلب، ((ليس ألمهم أن تفسر العالم ولكن ألمهم ان تغيِّره)).

لذا فإن فكرة التحدي، وتحويله إلى معركه، وتحويل المعركه إلى إنتصار كانت تسيطر على أعصابه وحواسه، لقد كان ومجموعة الشبان المتحمسين المشربين بالروح ألثوريه وألتمرّد، لايعرفون للخوف و الجبن أي معنى، ولربما لم يجربوهما بعد، وكانوا يجدون في الكفاح الطريق الدامي المؤدي الى النصر، و الكفاح في مفهومهم لم يكن سوى الأستعداد للتضحيه عندما تطلب الضروره لذلك.

.. تذكره، وهو يقف بجسده المربوع منتصباً على دكةٍ مرتفعه في شارع المدينه الرئيسي يخطب في جموع المتظاهرين، وقد إزداد وجهه إحمراراً، ورذاذ اللعاب يتدفق من بين شفتيه، وهو يصيح بأعلى صوته المبحوح، ويهزّ سبابة يده اليمنى، عند بعض مقاطع أو كلمات خطبته ألحماسيه. لقد اعجب به كثيراً، و كان آنذاك يتمنى ان يكون مكانه يؤدي هذا الدور.. لقد أنتصرت الوثبه وسقطت الحكومه، وسقطت منها (معاهدة بورتسموث).. كانت أياما عظيمه، مليئه بالأحداث الجسام، لم يكن قد شاهد قبل ذلك غليان الكتل البشريهٔ التي تتزاحف في شوارع المدينه ألضيقه، بهذا القدر الذي يراه الأن، في الصباح أو المساء، في ألمقاهي المنتشره على جانبي الشارع و امام الحوانيت، يقف الناس ليسمعوا أخر أخبار بغداد ((السياسيه)) التي لم تكن تثير سوى إهتمامات المثقفين أو اقساماً منهم، أصبحت ألشغل الشاغل للناس عموماً، وظهرت جرائد وصحف ومجلات جديده، تكتب الحقيقه دون خوف، تذكر صورة البائع الأعرج الذي كان يرتدي البنطلون الخاكي، وقميصاً أبيض اللون، والذي أعتاد أن يحلق رأسه بالكامل دون أن يترك بوصه واحده من ألشعر، وهو يقف على أحدى كراسي ألمقهى متأبطاً رزم الجرائد، بينما كان يشهر عدداً منها بيده الأخرى، وهو يصرخ:

- هلّموا لشرائها، أقتنوا نسختكم، ستجدون فيها مايشفي غليلكم، ((الأسـاس.. الأسـاس)) ((الأحرار، ...الخ)) إقرأو عن أنتصارات الشعب.. عن مطالبته عن تظاهراته المستمره.. عن الأحـزاب.. الخ.

وفجاة توقف سيل الذكريات حين إلتفت باتجاه صوت يناديه قائلا :

- ألا تشارك في النقاش؟

- أشعر بتعب شديد، سأخلد للراحه يارفاق.

وأبتسم قليلاً وقال:

- سوف لن نجد في الأيام والليالي الطوال المقبله، مانشغل أنفسنا به سوى ألنقاش.

مدَّ رِجليه ثم إستلقى على ظهره برهه، وهو يسحب كمية كبيرة من الهـواء يمـلأ رئتيه ثـم يقـذفها بقوه كمن يتخلص من عبء يثقل صدره.وضع راسه على وساده(مخده) ثـم سـحب بطانيـه علـى جسده ولف نفسه بها. يا له من بردٍ قارص... ردّد ذلك مع نفسه. ثم إسـتلقى علـى جنبـه الأيمـن، وحـدق في قضبان الباب ألحديدي حيث تقتحمه بين الحين والأخر نفحة قويه من هواء بارد قارص، تلسع الوجود... تذكر وجه (خالص) المحمّر، عنـدما زارده في نفس هذا الموقف في العام الماضي، لايتذكر بالضبط أيـن كـان جالساً، ولكن يتذكر وجهه الباسم، وأسـنانه البيضـاء التي كانـت تظهـر عنـدما كـان يقهقـه ضـاحكاً، وتنفرج بسببها شفتاه، لنكتةٍ أو حديثٍ فكه يطلقه أحد نـزلاء ألموقـف. لقـد كـان هـذا الموقـف غاصـاً أنذاك أيضاً بالمعتقلين ولقد رأى مع (خالص) ألعديد مـن الوجـوه البـارزه و المعروفـه في ميـدان العمـل السياسي، منهم (أنور، جمال، مولود وغيرهـم) ممـن كـانوا خطبـاء ألمظـاهرات أو قادتهـا. لم يكـن قـد مضت سوى بضعة أشهر على إنتصار وثبة كانون. حيث أُعلنت الأحكـام ألعرفيـه، وقيـل أنـذاك أنهـا لحماية ألجيش ألمشارك في حماية فلسطين.. يتذكر ذلك اليوم الذي سرى فيه نبأ بدء حملة الأعتقـالات في المدينه، كان يذرع شارع المدينه الرئيسي، ويقف طويلاً أمام مبنى سراي الحكومه، وينظـر بغـضب الى رجال الشرطه الذين كانوا يجوبون الشوارع، كان شيءٌ ما يفور في أعماقـه وأحاسـيس متـضاربه كانـت تختلج بها نفسه.. الحقد احياناً.. الحماس حيناً أخر، كـم كـان يتمنـى لـو أن أحـداً القـى القـبض عليـه ليلحق بأولئك الذين يعتـبرهم النمـوذج والقـدوه، كـان يتخيلـهم، ويتـصور مجلـسهم وأحـاديثهم داخـل الموقف، كان يعتقد بأنهم حققوا شرفاً عظيماً، وكم يود لو يحضىً بهذا ألشرف أيضاً، كانوا بنظره رجالاً كباراً لايهابون شيئاً، بـالأمس قـادوا المظـاهرات وخطبـوا فيهـا بكلمـاتهم الحماسـيه، وتحـدثوا للنـاس

بصراحه وشجاعه.. تحدثوا عن فقر العمال وتعاسة الفلاحين وظلم الطبقات المستغله من الملاّك والأغوات، يذكرهم وهم يطالبون بالحريه للناس ويبشروهم بشروق الشمس بالقريب العاجل لتضيء السهول والوديان و ذرى الجبال، ويتذكر الناس يتلقفون كلماتهم بأذان صاغيه.

- مالذي جاء بك يا أخ ازاد.

قال ذلك الشاب الفارع القامه الواسع العينين اللتين تتدفق منهما نظرات حادةٍ ثاقبه.

- لقد أردت رؤيتكم يارفيق، ورأيت ذلك واجباً عليَّ، وإن لم أستطع أن اجلب لكم سوى هذه الهديه البسيطه. وأشار بيده الى علبة السكاير الموضوعه أمامه.

- كلا يارفيق، لم يكن من الصواب قدومك، حيث سيؤدي ذلك الى إنكشافك أمام عيون الشرطه، أننا نريدك أن تكون بين الناس، لتعمل معهم ومن أجلهم. ألمناضل الحقيقي ألذي يعمل بإخلاص، يجب عليه صيانه نفسه والحذر من المراقبه، لأنه ليس ملكاً لنفسه. أفهمت؟

قال ذلك وهو يربت بكفه على كتفه، وقد زيَّنت وجهه أبتسامه ودً ومحبَّه.

- أجل لقد فهمت ذلك يارفيقي.

هبت ريح قارصه ممزوجه برذاذ المطر، أقتحمت قاعة الموقف من خلال فراغات ألقضبان الحديديه مرة أخرى ولطمت وجهه بقود، جفل من مكانه، أخذته قشعريرة برد، توقفت خيالاته، إستدار على جانبه الأيسر ثم سحب البطانيه وغطى بها رأسه وأستغرق في نوم عميق.

-٤-

أستيقظ أزاد منذ ألصباح ألباكر، على صوت الجلبه والضوضاء وطقطقة أحذية الحراس وهي تدق أرض الساحة الواسعه التي تقابل غرفتهم نهض من مكانه، جال ببصره أرجاء الغرفه وجد زملائه لايزالون يغطون في نومهم، لمح من خلال القضبان بعض العمال يحملون أقراص ألخبز، والقدور المملوءه بحساء العدس، وأكوام الأواني المصنوعه من الفافون، بغرض توزيعها على الموقوفين. الساحه كانت مبتله بفعل المطر الغزير الذي إنهمر ليلاً ، وكان الحراس الذين يحرسون ألباب ألرئيسي وأبواب غرف الموقوفين، و الذين يجيئون ويذهبون دون انقطاع متدثرين بمعاطف سميكه, كانت أزرارها النحاسيه الصفراء ، مرصوفة من الرقبه وحتى الركبتين، وقد إندست أياديهم في جيوبها وتدلت بنادقهم على الجنب الأيمن وقد تعلقت أحزمتها ألجلديه بأكتافهم. شعر بالبرد القارص يقرصه، مدَّ ذراعيه الى الأعلى ثم إلى الجانبين وإلى الأمام، وظلَّ يمارس لبرهةٍ من الزمن بعض ألتمارين ألرياضيه، التي كان قد اعتاد عليها، دبَّ الدفء في جسده، أراد أن يوقظ زملائه، رفع ألغطاء من على رأس بشير أولاً ثم حرك رأسه بيده، لكنه أدار نفسه على جنبه الأخر وأطلق زفيراً قوياً، ثم تمتم قائلا :

- بربك دعني وشأني، ماذا هل سنذهب للصف؟!

تركه بايماءة راس وكأنها تقول :

- معك حق يابشير، لم العجله فليس أمامنا شيء نفعله.!

جلس في مكانه ثانيه وتدثر بالبطانيه، ووضع الوساده خلف ظهره، وأسنده إلى الحائط، وظلَّ يرقب حركة الحراس والعمال في الساحه ألمقابله له. لاحظ إنهم يرقبونه. وينظر بعضهم إليه نظرات حاده، و أحياناً كان يستشف إبتسامة كانت تظهر على وجود بعضهم. نظر إلى ساعته العتيقه فوجد عقربها وقد أستقر على تمام الساعه السادسه ، تذكر أن هذا الوقت هو موعد نهوضهم في ألقسم الداخلي، لقد كان عليه أن يمرّ على جميع الغرف ويتولى إيقاظ الطلبه الذين لم ينهظوا بعد، بصفته مراقباً عاماً للقسم، ثم يتوجه الى المطبخ و يحاور الطباخ (لوقا) بشأن نوعية الفطور الذي اعدَّه. كم من المرات غضب منه لرداءة الطعام الذي يعدّه، ولعدم مراعاته الشروط، تذكر وجهه الشاحب، وبنيته الضعيفه، وأسنانه الصفراء المنخوره وصدره الذي كان يشخر بأستمرار.

- لعنة الله عليك كم من المرات نصحتك بمراجعة المستشفى وأخذ التصوير الشعاعي لصدرك الأيجوز أنك مصاب بمرضٍ خطير؟

- أقسم لك بان صدري سليم، فلماذا هذا الألحاح. كل مافي الأمر أنني أعاني من التهاب القصبات المزمن، وكما ترى فأن السكاير هي السبب.

- مادمت تعلم ذلك، فلماذا لا تترك التدخين؟

- لك ألحق سأحاول.. سأحاول.

تدفقت مشاهد زملائه الطلبه في مخيلته وهم يتراكضون الى المغاسل وقد تدلت مناشفهم من فوق أكتافهم وقد أمسكوا بأيديهم الصابون وفرش غسل الأسنان، و رنت في إذنه الجلبه والضوضاء التي كانوا يحدثونها في المطعم، الجدل والمناقشات على مواضيع الفيزياء والكيمياء والهندسه وعن الأجوبه لأمتحانات الدروس الشهريه والفصليه والتي كثيراً ماكان يتخللها الغضب والحنق على الطباخ (لوقا).

- لماذا هذا الشاي هكذا يارجل.. أنه الماء بعينه.

- وهذا الخبز البائت؟..

- لا تغضب يا أخي فأنني أشتريه ليلاً ليكون جاهزاً للصباح، ثم أنني أقدم كل شيء حسب الشروط. بيض، زبده، جبن، أحياناً القيمر.. .

ثم تخيلهم وهم يتأبطون كتبهم ودفاترهم و يغادرون مبنى القسم ألداخلي متوجهين إلى الثانويه ألوحيده في المدينه، قاطعين مسافة طويله مشياً على الأقدام.

كم من المرات أقحم في مشاكل الطلبه مع الأداره، لأنه ممثلهم لديها، لقد أنتخبوه مراقباً عاماً، بكامل إرادتهم، وجعلوه مرجعاً لحلّ مشاكلهم وقضاياهم الطلابيه، وكان لزاماً عليه بحكم ألمسؤوليه ألمناطه به مراجعة إدارة المدرسه، ومديرية تربية المحافظه، لعرض ألمشاكل ألتي طالما كانت تحدث مع مدير ألقسم ألداخلي ((سعيد أفندي)) الذي كان يغالي في تطبيق النظام على الطلبه، إلى ألحد ألذي كانوا يشعرون بالضيق والضجر منه. على جميع الطلبه الحضور في القسم الداخلي في تمام الساعه التاسعه مساءاً، كانت أوامره مشدده على الحراس، يمنع دخول اي طالب عائد بعد هذا الوقت مما كان يضطر بعضهم إلى المبيت في الفنادق او في بيوت أحد أصدقائهم، وكانت أوامره تقتضي باطفاء الأضواء في الساعه العاشره والنوم في هذا الوقت المبكر، ومنع حركة الطلاب بين الغرف، وكانت أية ضوضاء أو أصوات قد تتعالى بينهم، سبباً في إثارة غضبه، وتهديدهم بالويل والثبور, وكم هي

عديدة تلك المرات التي كان يستدعيه ويلومه فيها ويهدده أحياناً فيما إذا لم يضع حداً لكل هذه المخالفات.

.. قفزت إلى ذهنه صور ومشاهد تلك الحادثه التي كادت أن تكون سبباً في فصله من المدرسه. كان ذلك في العام الماضي، عندما كان طالباً في الصف الرابع الثانوي، في صباح يوم جمعه، استيقظ من نومه العميق على أصوات طرقات قويه، يطرقها أحد الطلبه، بعصا خشبيه على باب الغرفه وبصراخ قويٍ:

- أنهضوا ياكسالى أنهضوا.. ماهذا النوم، لقد بلغت الساعه الثامنه، المطعم ينتظركم.

ثم ذهب مسرعاً إلى الغرف الأخرى، وكان ألمشهد قد تكرر أيضاً. نظر إلى ساعته فوجدها في الثامنه بالضبط كما قال ذلك الطالب، أستدار على ظهره، مدَّ يديه الى جانبيه بعد ان سحب الغطاء وغطى رأسه به، تنفسَّ بقوه ثم أطلق الزفير دفعةً واحده شعر بثقل يلف جسده، أغمض عينيه مرةً أخرى.. تذكر أن اليوم التالي هو موعد الامتحان الشهري لمادة الجبر، وعليه أن يكرس هذا اليوم بكامله في ألمراجعه والدراسه بتركيز، إن درجاته منخفضه في هذا الدرس، وإن الأستاذ سعيد مدرس الرياضيات متشدد تجاهه، وتجاه الطلاب الذين يعملون في السياسه، كان يشعر بغيضه وحنقه منه، يلمح ذلك من نظراته الحاده، والغاضبه في كثير من الأحيان ، إنه رجل محافظ، كما يدعي هو وكثيراً ماكان يستدعيه ويستدعي من كان يعتقد أنهم النشطاء والحركون في العمل الطلابي، ويلقي عليهم المحاضرات، طارحاً آرائه في القضايا الأجتماعيه والسياسيه، كان يرى أن الطالب ينبغي أن يكرِّس كل وقته للدراسه، و إن السياسه ماهي إلا مهنةً قذره على الطالب أن يبتعد منها. كان قد قرر منذ يوم أمس أن يغادر القسم الداخلي بعد الفطور مباشرةً، ويذهب مع زميل له إلى البستان القريب ليدرسا معاً في ظل شجرة الفستق الجميله ألمزدانه بالورود البيضاء، كان الفصل ربيعاً و ورود الربيع البريه ترسم أجمل المناظر في تلك الأرض المغطاة بطبقةٍ كثيفه من الحشائش الخضراء، وقد تساعد نسمة الهواء العذبه التي تحمل عطر الأزاهير وروائحها الفواحه، على تفتح الذهن، وزيادة قابلية الأستيعاب والفهم.

قال مع نفسه: حسناً، سأنهض بعد برهه.

ولكن لم تمرَّ لحظات، حتى سحب أحدهم ألغطاء منه بقوه، فتح عينيه على صوت صراخ حادّ، كاد أن يمزّق طبلة أذنه:

- إنهض إيها الوقح، لاتتظاهر بالنوم، ماهذا الصياح والصخب في هذا الصباح الباكر.. إنهض فإنك سبب لكل مشاكل هذا القسم لم يعد بوسعي تحمل أعمالك، إنهض.

لم يكد يستوي في مكانه حتى أرتطم بوجهه كفٌ ((سعيد أفندي)) مدرس الرياضيات ومديرالقسم الداخلي أيضاً، وحينما رفع عينيه وجد وجهه المكفهر وعيناه الجاحظتان من الغضب، وقد تدلت خصلات من شعره الأشعث الفاحم على جبينه. كان لايزال بملابس النوم. لقد شعر بالدماء تفور من عروقه، نهض من سريره في الحال، ووجهّ صفعة قويه إلى وجه سعيد افندي، وأمسك بياقة قميص بجامته وهو يصرخ:

- إنك لوغدٍ حقاً ، كيف تجروء على صفعي وانا نائم، مالذي فعلته لك، اعرفك جيداً فأنك تحقد عليَّ..أ.. سنضع حداً لعجرفتك أتفهم؟!

قفز ألطلاب الأخرون في نفس الغرفه من أسرتهم وأحاطوا بهما، ووقف بعضهم بينه وبين ألمدير، تعالت الأصوات.. أستاذ والله لم يكن هو، لقد كان نائماً مثلنا،.. لعنة الله عليك يامجيد، لقد أعتاد على ذلك هذه هي طريقته في إيقاظ الطلبه، انه مشاكس، اية مشكله احدثها في هذا الصباح الباكر.. آه لم يفطن الى إن غرفتكم ملاصقه لهذه الغرفه..

لم يمّر سوى وقت قصير، حتى تجمهر غالبية الطلاب، وأندفعوا الى الغرفه وأحاطوا بالمدير من كل الجهات، كان بعضهم يحمل في صدره الحقد الدفين تجاهه، تفجَّر غضبهم وصرخ بعضهم في وجهه بغضب.. كيف تجروء أن تصفع ممثلنا وبهذه ألطريقه.. أنها إهانةٌ لنا جميعاً.. أهكذا يكون ألتعليم وتكون ألتربيه؟

لايزال يذكر أمارات الخوف والهلع التي إرتسمت على وجهه الشاحب، وقد جفَّ حلقه ويبست شفتاه، وظلَّ يتلعثم ويتمتم ببعض إلعبارت النابيه عصابه.. عصابه، سأفصلكم جميعاً، سأعلمكم النظام.

إبتسم مع نفسه، حينما تذكر أقوال بعض زملائه من أنهم كانوا قد ركلوه، ولكموه على ظهره وبطنه. لقد أشتكى عليه لدى مدير الأعداديه، وقُدِّم إلى مجلس الأنضباط، ولكن الطلاب وقفوا إلى جانبه، وقدموا شكوى ضدَّ سعيد أفندي ولم يثبت إلى المجلس من إنه قد وجه صفعةً إلى سعيد الذي أصبح هو ألمتهم بالأعتداء.

•

يذكر، حينما إستدعاه مدير الثانويه، وأجلسه على إحدى كراسي غرفته، ورجاه أن يسحب شكواه ضدَّ سعيد، ثم أستدعاه وطلب منهما المصالحه.. إنه أستاذك على أية حال وله حق التعليم عليك، ثم أطلق ضحكة.. لابأس.. لابأس، لقد تعودنا منذ الصغر أن نتلقى الضرب من أساتذتنا، ذلك لا يقلّل من شأن الطالب، أن الأستاذ لايبغي سوى مصلحة الطالب، اليس كذلك يا سعيد أفندي؟

إبتسم سعيد أفندي بخبث، وتوجه نحوه وقبلّه ووضع يده على كتفه.. معذرةً يا أزاد، لم أقصد الأساءه.. أعترف أنني صفعتك وكنت في حالة غضب وهياج، ولم أكن أعرف أنذاك بإنك لست السبب في ذلك ألضجيج، ولكن كن صريحاً الأن، ألم تضربني أنت أيضاً، ألم تمسك بعنقي.. ألم تحرِّض الأخرين عليَّ.. أعرف بأنه لم يثبت عليك شيء، لم يشهد عليك أحد، وأنت تعرف السر كما أعرفه أنا، ولكن أستحلفك بالله، ألم تقم أنت أيضاً ب.. .

شعر أزاد بالحرج، فكر للحظه، قد يكون هذا فخا له، ثم إنه أنكر ذلك في التحقيق، والأعتراف أمام المدير، قد يؤدي إلى إدانته، وقد يعاد التحقيق مجدداً وقال مجاملاً:

- أعتذر أنا كذلك فيما إذا بدر مني ما أدى إلى إزعاجك، لقد تعودنا أن نَكُنُّ لأساتذتنا أعمق مشاعر الأحترام والتقدير، أرجوا أن تسود المحبه بيننا مستقبلاً.

أيقظه صوت أجش من خيالاته..

- أتنامون حتى ألظهر.. هيا إنهضوا. كان ذلك صوت الحارس، الذي ظلَّ يدق القضبان الحديديه للباب بالعصا التي كان يحملها، إلى أن نهض الجميع من النوم وجلسوا القرفصاء على أفرشتهم، وإتكأ بعضهم على وساداتهم متثائبين.

- ألا تفتح الباب يا أخي، ألم يحن وقت الأغتسال؟ قال ذلك ازاد، موجهاً كلامه الى الحارس.

- بلى لقد جئت كي أفتح لكم الباب فالمراحيض والمغاسل خاليه حيث أكمل الموقوفون العاديون حاجاتهم منذ أكثر من نصف ساعه.

حينما خرجوا إلى الساحه الصغيره، كانت تترامى إلى سمعهم من الباب الجانبي للسراي ضجيج وصراخ عوائلهم الذين تجمهروا، وهم يلحون على مقابلة الموقوفين، بينما كان حارس الباب يردِّد بصوت جهوري:

- ممنوع.. لقد قلت لكم ذلك ألف مرةٍ ألا تفهمون.

- إذن متى تسمحون لنا برؤيتهم؟

- لست أدري ولا يدخل ذلك ضمن واجبي أنني أنفذ ما أؤمر به فقط. ولكن بأمكاني مساعدتكم وذلك بأيصال ماجلبتموه من الفطار إليهم، هذا فقط ما أستطيع عمله لكم، أتفهمون؟

لم يكد يمضي ساعةً من الزمن بعد تناولهم الفطور، حتى جائهم عريف الموقف وبيده قائمه ومجموعه من الأوراق وظلَّ يطرق بالعصى الذي كان يحمله القضبان الحديده لباب الموقف محدثاً ضجيجاً وصخباً، وبعد أن تفحص سطور القائمه، بدأ يقرأ أسماء الموقوفين، ثم ركّز بصره على الوجوه وصرخ قائلاً:

- هيا أجمعوا حوائجكم، بعد ساعه أو ساعتين ستسَّفرون إلى بغداد.. ستكون السيارات جاهزه وكذلك أوراق التسفير أفهمتم؟ .. سادت فتره من الوجوم من تأثير المفاجأه، وقد لاحظ العريف أن وجوههم قد أكفهَّرت، و تقلصت عضلاتها، وأرتسمت إمارات القلق عليها.

- ماذا؟! الا تسمحون لنا بمقابلة عوائلنا، ألم توعدونا بأننا سوف نستطيع رؤيتهم بعد ألظهر.

قال ذلك بشير بلهجةٍ حادّه.

فيما نهضّ الأخرون مندفعين حول الباب، وقد تعالت أصوات الأحتجاج والرفض من ألجميع، لن نبرح هذا الموقف إن لم نقابل ذوينا و إن لم تجلبوا لنا حوائجنا.

- ليس مع بعضنا حتى أدوات ألحلاقه.

- ماهذا الأستهتار، ما.. ما.. .

قال العريف بغيض:

- ماهذا الصراخ، أ أناالذي يسفركم إلى بغداد؟

- من ألذي أخبرك بهذا الأمر؟

قال ذلك أزاد وقد تقدم الى الباب موجهاً كلامه إليه.

- المعاون.

- أذن قل له بأننا نريد مقابلته.. أفهمت.

غادر العريف الموقف متجهم الوجه.

- تراجع الموقوفون إلى الوراء، جلسوا جميعاً وكونوا حلقةً توسطهم أزاد، وظلوا يتداولون في الأمر ومايـنبغي فعله، وقوله عند مجيء المعاون.

- أنني أقول بأن نرفض السفر إطلاقاً، إن لم يسمحوا لنا بمقابلة ذوينا.

- أنا أيضاً أرى ذلك.

- ولكن قد يستخدمون القود ضدنا، وماذا سيكون موقفنا أنذاك.

- موقفنا معلوم، ألمعركه.. ألتحدي.. ألرفض.

- أرى أن نختار أثنين منا، كي يتوليا التفاهم معهم إذ ليس من المعقول أن نتكلم جميعاً.

- هذا معقول طبعاً على أن نتفق على مايجب قوله.

- طبعاً.. طبعاً.

دار الحوار الآنف الذكر بينهم، وقد إختاروا أزاد و بشير للتفاوض. بعد برهةٍ من الزمن جاءهم معاون وعندما تفحصوا ملامح وجهه، أدركوا بأنه يحمل أمراً ما، قد لايستطيع مخالفته.

- ماذا أردتم مني؟ لقد أبلغني عريف الموقف من إنكم تريدون رؤيتي.

قال أزاد وهو يحاول أن لايظهر اي إنفعال على ملامح وجهه، وقد تعمد في أن يظهر على شفتيه إبتسامةً كانت تبدو باهته:

- أيها السيد بديع، أتكلم معك بإسم إخواني وأرجوا أن يجري التفاهم على أساس أحترام حقوقنا كمواطنين أوقفوا بتهمةٍ لم تثبت عليهم بعد.

ضحك المعاون بديع، وتوردت وجنتاه وقال:

- أ أفهم من هذا أن المظاهرة قام بها الأشباح أو الجان؟

ثم قطب جبينه، وأردف قائلاً:

- أود أن اوضح لكم أن الأمر قد صدر من الجهات العليا لتسفيركم وسوقكم إلى الحكمه العرفيه العسكريه في بغداد، دون إبطاء وهي التي ستقرر مصيركم، وتحدد من هو المجرم ومن هو البريء، أما نحن فقد قمنا بما يمليه علينا الواجب تجاهكم، افهمتم؟

قال أزاد بهدوء:

- لقد أوقفنا يوم أمس، ولم تمضي أربع وعشرون ساعه على توقيفنا، فلم هذه العجله، ألا ينبغي مقابلة ذوينا وأقربائنا، ألا تسمحون لنا بجلب مانحتاجه من اللوازم والأشياء.. ألا تسمحون لنا بتوكيل محامي.. ألا..ألا.

- هذا أمر قد تقرر ونحن بصدد إكمال المعاملات المتعلقه بتسفيركم.

-أذن أنتم تقررون مصائرنا مسبقاً، وتحجبون عنا أبسط الحقوق، كنا نروم أن نقدم عرائض إلى حاكم التحقيق فلربما يوافق على إخلاء سبيل بعضنا بكفالةٍ شخصيه أو ماليه ، إلى حين موعد المحاكمه.

تدخل بشير غاضباً:

- إسمع ايها السيد، أننا لن نبرح هذا الموقف إن لن يسمح لنا بمقابلة ذوينا وجلب حوائجنا، أفهمت.

- وماذا بوسعكم أن تفعلوا؟

- نفعل مانستطيع القيام به، وليكن مايكون.

تدخل أزاد، وحاول أن يهدىء من حدة بشير أيضاً:

- أيها السيد بديع، ليست لدينا أية عداوة شخصيه مع أيٍ منكم، فهي وسيلةٌ لأبداء وجهة النظر، إن كنت تفهمني.

ومع هذا فالقيام بمظاهره، ليس من الأمور الخطيره إلى هذا الحد ألذي تتصورونه. المظاهرات في كثير من بلدان العالم حق طبيعي للمواطنين. الذي نراه أنكم تعاملوننا وكأننا قمنا بثوره مسلحه !..

فنحن لانقول بأننا نرفض تقديمنا للمحاكمه، لأننا نعلم بأننا لا نستطيع ذلك فنحن بين أيديكم اسرى ، كما ولانقول بأنه لاينبغي تسفيرنا الى بغداد لأننا نعلم بأن الأحكام العرفيه ساريه في كل البلاد، والمحاكم المدنيه غدت لاتنظر في التهم السياسيه، كما نعلم أن هذه المحاكم موجوده في بغداد، وكل مانطلبه هو إعطائنا فرصه يوم أو يومين لمقابلة ذوينا وعوائلنا ولتدبير مايكفي تدبيره للدفاع عن أنفسنا إضافةً إلى حاجتنا إلى بعض الحوائج واللوازم، إذ قد تطول مدة توقيفنا. هذا كل مانطلبه الأن.

- أعرف أن الأمر قد تقرر ولكن سأعرض طلبكم على مدير شرطة المحافظه.

إستدار المعاون، وقطع الساحه المواجهه للموقف، ثم دخل الممر المؤدي إلى السراي، بينما تجمع الموقوفون ثانيةً داخل الغرفه، وبعد نقاش وجدل، قرروا الأضراب عن الطعام إن هم أصروا على تسفيرهم اليوم وعدم الأذعان لاوامر التسفير.

كان العديد من العوائل وذوي الموقوفين في ذات الوقت يراجعون المسؤولين بشأن المقابله ويصرون على ذلك، وقد عرفوا بخبر تسفيرنا ايضاً، مما أدى إلى تجمهرهم أمام السراي، وأمام الباب الجانبي

تقابل لساحة التوقيف , وكنا نسمع صراخهم وضجيجهم بوضوح فكان هذا الأمر مشجعاً لأتخاذ قرار نقاومه، فلربما تستطيع العوائل أن تفعل شيئاً.

عاد المعاون بعد اقل من ساعه , وقال:

- لقد عرضت الأمر على السيد المدير وإتصل بدوره هاتفياً بالجهات المعنيه في بغداد، ها أنا ابلغكم بأن قرار تسفيركم هذا اليوم لارجوع فيه، إنها مسألةً أمنيه تخص الدوله أفهمتم؟

توقف برهةً عن الكلام وظلَّ يدقق النظر في الملامح وهو يحاول معرفة ردود فعل ماصرح به للموقوفين , ثم اردف قائلاً:

- بعض من ذويكم ينتظرون في الخارج وطالبونا بنفس مطلبكم، لكننا وافقنا فقط على إيصال بعض الحوائج الضروريه لكم كأدوات الحلاقه والمناشف والبيجامات، وأستلام الأطعمه. ولقد كلفت أفراد الشرطه بإيصالها، وسيصلكم كل ذلك بعد قليل، اما مقابلتهم، وتأجيل السفر، وتوكيل محامي وغير ذلك من الأمور فلا مجال للنظر فيها.

نظر إلى ساعته اليدويه، ثم رفع عينيه وهو يحدقهم بنظرات حاده وقال:

- الساعه الأن الثانية عشر ظهراً، أمامكم فرصة ساعتين للسفر بإمكانكم أن تتناولوا الغداء وتحزموا أمتعتكم، سوف تكون السيارات جاهزه في الساعه الثانيه بالضبط، لتقلكم إلى كركوك وتلتحقوا بالقطار المغادر إلى بغداد مساءاً أفهمتم؟!

وحينما غادر الموقف كانت كلمات اللعنه.. الأوغاد.. الأضراب.. سنقاوم.. سترون ماذا سنفعل وغيرها قد أحدثت دوياً قوياً تصك أسماع المعاون بديع وأفراد الشرطه الأخرين المتجمهرين في الساحه، وكان الصراخ يصل ايضاً الى أسماع ذويهم المتجمهرين خارج السراي.

كانت الساعه تشير إلى الواحده بعد الظهر حينما حضر عريف الموقف، ومعه ثله من رجال الشرطه، يحملون الأطعمه والمأكولات التي ارسلتها العوائل المجتمعه أمام الباب الكبير الخارجي الذي يقع في الجانب الأيمن من ساحة الموقف، كما حمل متعهد تجهيز الطعام للموقوفين حصتهم المقرره من طعام الغداء وهو عبارة عن قطعتين من الكباب مع بعض الخضراوات والبصل المثروم موضوعة في قرص واحد من الخبز، كحصة لكل واحد منهم.

لم يكن الدوام قد إنتهى بعد، إذ ان جلبة وضوضاء المراجعين للدوائر المختلفه داخل السراي كانت تترامى إلى الاسماع بوضوح. نهض الموقوفون جميعاً من أماكنهم، وتدافعوا نحو باب الموقف، وأمسك بعضهم بالقضبان الحديديه، بينما تقدم كل من أزاد وبشير وخاطبا العريف:

- قل لسيدك بأننا مضربون عن الطعام.

- هل يعني ذلك بأنكم لن تستلمون الطعام البته؟

قال ذلك العريف بإندهاش، وظلَّ يجول بنظارته بين الأواني والقدور الصغيره المملوءه بأصناف الطعام، وبين وجود الموقوفين، وكأنه يقول في نفسه.. أ مجانين هؤلاء ياترى؟ يدفعون بأنفسهم إلى داخل هذا الموقف الشبيه بزريبة الحيوانات، ويضربون عن إلتهام هذه المأكولات الشهيه، أي نعمةٍ كانوا فيها؟

قطع حبل شرود العريف صوت يقول:

- نعم تعيد المأكولات إلى ذوينا وتبلغهم بالأمر، كما ولسنا بحاجه إلى طعامكم هذا، فنحن مضربون عن الطعام لحين تلبية ماطلبناه.

- ولكن..

- ولكن ماذا؟ .

- أكاد لا أفهمكم أبداً! أهناك من يجوع نفسه بنفسه؟ أترفضون هذه النعم، إخواني أنتم مقبلين على السفر، السيارات التي تنقلكم إلى كركوك من النوع الذي يخض الأحشاء ويكاد المرء فيها يشعر بتمزق أمعانه، صدقوني لقد نقلت بها موقوفين إلى سجن كركوك مرات عديده ، فهي سيارات مسلحةٍ قديمه، تهتز كل قطعة فيها عندما تسير على الطريق .. لعنة الله على هذه الطرق، لقد تآكل التبليط منذ زمن، وأمتلأت بالحفر والأنفاق.. ثم.. ثم قد لاتجدون الأكل في المحطه، أما في القطار فالأمر أصعب، سوف تركبون الدرجه الثالثه، وأنتم أعرف بتلك المصاطب الخشبيه التي يسمونها مقاعد.

أنا اعرف منكم بمصاعب سفرتكم أنتم بحاجه للطعام أكثر من أي وقت آخر أتفهموني؟!

- قلنا لك عد بالطعام إلى ذوينا وبلغ المعاون بذلك.

- لست أفهم مادخل العزوف عن الأكل بمطالبكم، ..لا..لا أنا أخالفكم في هذا، عليكم أن تأكلوا جيداً كي تزدادوا قوةً وشجاعه، الجوع يولد الغضب وليس القوه ابداً، لست مثقفاً مثلكم ولكنني ذو تجربه، لقد كنت فلاحاً قبل دخولي لسلك الشرطه، وحياة الريف علمتني الشيء الكثير، ولقد واجهت

من مشاق الحياة و صعابها مالا أستطيع الأن سردها لكم، ولكن كلما وقعت في مشكله، كنت أنكبّ على الطعام بنهم أكبر، أكل وأكل حتى املأ بطني، ثم أربت بكفاي عليها، وأتنفس بعمق وعندها أشعر بقوةٍ أكبر وشجاعةٍ أعظم.

توقف قليلاً وهو يحدق الموقوفين بنظرات عطوفه، وكمن يريد أن يرى تأثير كلامه على سيمائهم، و ترجرجت شفتاه بأبتسامةٍ قصيره، ثم اردف قائلاً:

- ألا تصدقونني من أن الطعام يولد في النفس قوةً كبيره؟

حسناً، كنت لفترةٍ سجاناً ولقد رأيت بأم عيني المحكومين بالأعدام يطلبون اصناف الطعام الشهيه بعد تبليغهم بأمر التنفيذ، و يأكلون بنهمٍ عجيب، وكما قلت لكم كانوا يولّدون بذلك القوه والشجاعه في نفوسهم، كنتِ أرى بعد الشبع وبوضوح الدم القاني يتدفق في وجوههم الشاحبه، حتى أن نظراتهم كانت تبدو اكثر بريقاً ولمعاناً.

- يبدو أن هذه الأطعمه قد فتحت شهيتك يا عريف. قال ذلك بشير مداعباً.

- عريف أحمد.. أنا أسمي أحمد ياسيد بشير.

- وكيف عرفت أسمي؟

- ألست عريف الموقف، فأنا أعرف أسماء معظمكم. فأنتم من عوائل كريمه، لقد تعرفت بمعظم ذويكم، خلال هذين اليومين، لقد تفطر قلبي دماً، وأنني أراهم يقفون طيلة النهار واقفين، متوسلين بالمعاون أو غيره من المسؤولين كي يظفروا بمقابلتكم، أقرأ في وجوههم القلق والحزن والأسى، أكان من الضروري ان تسببوا لهم كل هذا ؟!

توقف فجأه وعلى وجهه إمارات الحزن، ثم اردف قائلاً وقد توجه بكلامه الى بشير:

- أظنك لم تفهمني، وأعتقدت بأنني حين أصر عليكم بأستلام الطعام، أطمع في أن اشارككم فيه أو لي مأرب أخر، أنا أصلاً فلاح ولي عزة نفس، صحيح لم نكن نأكل مثل هذه الأصناف، أو كنا نأكل بعضها في الأعياد، ولكن لم أطمع يوماً ما في شيءٍ لا يخصني، ولقد كان والدي رحمه الله كريماً مضيافاً، لم يكن يتردد في أن يشاركه الجيران والضيف طعامه المتواضع، ياسيد بشير لقد ربانا والدنا على الكرم وتقدير الضيف، وأنك قد اسأت فهمي. تدخل أحدهم:

- لا تتأثر ياعريف أحمد، فلربما سبب سوء ظن بشير هو مايسمعه عن الشرطه في المدينه.

- لقد عرفت مايرمي اليه، ولكن حتى أصابع اليد ليست كبعضها، صحيح هناك أفراد من الشرطه من يطمع حتى في درهم، ولقد رأيت في القريه، بعضاً منهم يطمع في دجاجةٍ أو بيضه، وقد يكون ذلك بدافع الحاجه، ولكن على أية حال ليس كلّهم على هذه الشاكله، صدقوني أشعر بميل عجيب نحوكم، قد لاأستطيع أظهار هذا الشعور علانية فأنهمّ يحصون علينا الأنفاس، ولكن في الريف، كثيراً ماكنت أحضر مجالس معلم القريه وأسمع منه الكثير، عن السياسه وشؤون الحياة، كان يقول بأن الفلاحين لو أكتسبوا الوعي، وتعلموا، وفتحوا أعينهم على واقعهم، لما استطاع الأغوات والملاكون، أن يجبروهم على السخره و دفع الأتاوات وجعلهم يلفون أجسادهم بالملابس الرثه، لو اتحدوا وتحركوا، لمسكوا الشمس النيَّره بقبضات أياديهم القويه. كان جاداً في تعليم اولادنا وتربيتهم حتى المساء كان الفلاحون المتعبون العائدون من حقولهم يحيطونه كالسوار ويستمعون إلى أحاديثه بلهفهٍ وشوق، وقد إرتسمت على وجوههم إمارات الدهشه والفضول، كان يقول لهم كلاماً لم يسمعوه من قبل، كانوا مشدوهين، كمن يسبرون غور عالم مليء بالأمنيات والأحلام.

.. تأوه ثم قال:

.. كم كان عظيماً لقد نصحني كثيراً بوجوب الأستمرار في الدراسه، كان يقول لي أن مستقبلك يا احمد في التعلم، حتى أن الأرض ستنبت زرعاً أكثر وأجود بالعلم.. العلم ياأحمد غنى الحياة ومفتاح المستقبل ولكنني تركت الدراسه في الصف الرابع الأبتدائي، وتفرغت لأمور الزرع وتربية المواشي بعد ان أنهك التعب والدي والمّ به المرض ولم يكن لي بدٌّ من أن أحل محله ثم بعد ذلك التحقت بالجنديه، وعندما أكملت المده وعدت الى القريه، كان المرض قد هدَّ قوى والدي، ومالبث أن توفى بعد أسابيع وقطعة الأرض التي كنا نزرعها، كان الأغا قد أنتزعها منه وهكذا أضطررت لترك القريه والتوجه نحو المدينه وجلبت معي والدتي وأختي، عملت لفتره عامل في البناء ثم رأيت الأفضل أن أدخل سلك الشرطه وهكذا كان، والأن وبعد مرور خمسة سنوات على خدمتي في هذا السلك تلقيت الشكر عدة مرات، وأصبحت عريفاً وإضبارتي خاليه والحمد لله من أية عقوبه. نعمةٌ كبيره أن يكون المرء مستقيماً ومخلصاً وجاداً في عمله، ماذا يبقى للانسان غير الخصال الحميده.. أجل.. الفضل كله ل (حسني أفندي) معلم قريتنا ذاك.

سكت قليلاً، تفحص بنظراته الودوده سيماء الموقوفين مرةً أخرى ثم أستدرك قائلاً:

- لأعود إلى موضوع الأضراب عن الطعام مرةً أخرى، أودّ أن أقول ذلك بصراحه، من إنه لن يجدي نفعاً في موقعكم، لقد تقرَّر كل شيء وسيتم تسفيركم بعد الدوام مباشرةً.

تقدم منه أزاد وقد إلتصق وجهه بقضبان الباب وقال:

- ياعريف أحمد إنك أعظم مما كنا نظنّ ونشكرك لتعاطفك معنا.

ثم مدَّ يديه من بين القضبان، ووضعهما على يدي العريف، مصافحاً، وقال له بإبتسامةٍ ودودة:

- ياعريف أحمد يبدو أنه ليس لنا نصيب في هذا الأكل، إنه شهي فعلاً وقد يعطينا القوه البدنيه كما تقول ولكن ليس لنا من سلاح أخر نقاتل به الأن، أنهم يريدون أن يفرضوا إرادتهم علينا دون وجه حق، نحن أقوياء بنفوسنا وبروحنا المعنويه، ثم أن الشجاعه ليست دائماً وليدة القوه البدنيه، ألم ترى من الجبناء من كان ضخم الجثه قوي البدن؟

- بلى.

ألم تصادف أمرءً ضعيف البنيه نحيل القوام، تحدّى من هو أقوى منه بكثير.

- بلى رأيت من ذلك الكثير.

- أذن فالشجاعه، قوه تنبعث من الأيمان، القناعه، الصواب والمواقف.. اذهب ياعريف أحمد وأفعل ماقلناه لك، فهذا قرارنا الأخير.

تجهم وجه العريف وقد بدت عليه إمارات عدم الرضا وقال:

- حسناً سأفعل ماتريدون، ولكنني لازلت عند رأيي وأعتبر قراركم هذا قراراً غير حكيم وغير ذي نفع.

- بأمكانكم التمتع بهذا الأكل الشهي إن شئتم، نقول هذا بمحض رغبتنا على أن تعيدوا الصحون الفارغه إلى ذوينا.

قال ذلك بشير بصوتٍ عال.

- لن نفعل ذلك أبداً.. أبداً، لانريد الشبع على حساب جوعكم، لن نفعل ذلك.

قال ذلك العريف بغضب، وقد أمر الأخرين بحمل الأطعمه، وغادر الموقف دون أن يلتفت.

ظلَّ أزاد متسمراً في مكانه وكفّاه تمسكان بالقضبان، بينما تراجع الأخرون إلى الداخل وقد جلسوا على أفرشتهم. أخذته الخيالات وهو يتابع بنظراتهِ خطوات العريف أحمد من الخلف، وخطوات الأخرين وهم يحملون الصحون والقدور الصغيره، وأكياس مليئه بالخبز وغيره. تذكر والده وأخوته الصغار، الذين

هم غير موجودين الأن خلف الباب الكبير الجانبي للسراي مع عوائل وذوي بقية زملائه، لا ينتظر أحداً منهم يحمل إليه صحناً من الطعام أو بطانيةً أو وساده، فهم يبعدون عنه، يعيشون في تلك القريه النائيه، الواقعه على سفح الجبل، تظل الثلوج البيضاء على قممها وصخورها حتى منتصف الصيف، أما الأن فالثلوج تتساقط كنتف القطن الناصع البياض، وقد غطت دون شك صفحة الجبل بكاملها، وتدلت أغصان أشجار التفاح والكروم والرمان العاريه من أوراقها، من ثقل طبقات الثلج المتراكمه عليها.. البساتين الخضراء الوارفة الظلال الحامله للثمر اللذيذ من كل الأصناف في الصيف، أنحنت سيقان أشجارها الأن , تعصف بها الرياح الثلجيه القارصه، والطيور على اشكالها لم يعد يسمع لها تغريد، اللقالق قد هاجرت منذ الخريف، منذ بواكير البرد وسقوط الأمطار، غطت العيون طبقات كثيفه من الجليد، السناجب الصغيره، قد توارت في الكهوف الصغيره المحفورد بين طيات الأرض بعنايه أو في جذوع أشجار الجوز اليانعه الضخمه، سطوح الأكواخ الحجريه المتلاصقه مع بعضها، المنحدرات والوديان، وحتى مزابل القريه، أصبحت مغطاة بطبقة كثيفة من الثلج الأبيض الناصع، تذكر تلك الأيام البارده، حيث كانت الثلوج تقطع الطرق المؤديه إلى المدرسه الأبتدائيه التي كان يدرس فيها، كان ينقطع عن المدرسه مع بعض الطلاب لأيام، ولكن لم يكن يستطيع البقاء في الدار الصغيره المصنوعه من الطين والحجر مع إخوته الصغار، كان يخرج إلى السطوح عندما كان الثلج ينقطع عن الهطول، ويلعب مع الأطفال ويضرب بعضهم بعضاً بكرات الثلج التي يصنعونها بأيديهم، كم من المرّات أصيبت يداه ووجنتاه برضوض جراء إرتطام الكرات الثلجيه بها، وحينما كان يعود للدار كان والده يصرخ في وجهه:

- أليس من الخير أن تذاكر دروسك على أن تلعب بكرات الثلج، أخشى أن يفقأ احدهم عينك؟

- لا تخشى يا والدي فأنا أمهر منهم في اللعب.

- ألا تخشى أن يفتك بك البرد وتصاب بالسعال أو نزلةٍ صدريه، ألا ترى أن المضمد الصحي لا يقضي في الشهر أسبوعاً واحداً هنا، ماذا عسانا أن نفعل آنذاك، أننقلك بالدراسه إلى مدينة الكوي وهي تبعد مسيرة يوم كامل.

- لاتخشى عليّ ياوالدي فالحركه تبعث الحراره في الجسم.

- إذا كنت بهذه القدره إذن لماذا لا تصعد إلى السطح وتجرف طبقات الثلج المتراكمه بالجرفه ، ألا يمكن أن تفعل مايفعله أخوانك؟

- لك الحق يا والدي سأفعل.

تنهّد بقوةٍ، وظلّ مع خيالاته.. ماعساهم يفعلون الأن، ليس الأن موسم السقي والحصاد أو جني الثمار، وحقلهم الصغير الذي أعتادوا أن يزرعوه تبغاً قد غطاه الثلج ايضاً، لقد شارك في قطف أوراقه في العطله الصيفيه، ولربما ظفر والده بكميه من المال لقاء بيع المحصول.. ماعساهم يفعلون الأن، بالتأكيد يظنونني الأن منهمك في دراستي، لشدّ ماعقدوا الأمال عليّ، كانوا يتطلعون في أن يكون لي مستقبل غير العمل في البستان والحقل، وكثيراً ماكان والدي يقول:

- سأجعل من أبني أزاد رجلاً متعلماً ذا مكانه مرموقه، سأجعله موظفاً كبيراً وسأصرف على تعليمه قدر ما أستطيع أنه فتى ذكي، إن عقله يسبق عمره بسنين، أنني أعقد عليه الأمال.

آه ياوالدي المسكين لست أدري كيف ستتلقى هذا الخبر، أنني أرى آثار الصدمه على وجهك ألمح منذ الأن خطوط خيبة الأمل ترتسم على ملامحك.. أعرف.. أعرف ستتذكر أقوال زوجتك وهي تردد على مسمعك:

- يارجل، أنت فلاح حياتك في الحقل والبستان، أليس من الأفضل، أن يبقى هذا الولد ليساعدك، إنك بدأت تكبر، و سوف لن يكون بمقدورك مواصلة العمل بعد عدة سنوات، مالك وهذه الأوهام، سأجعله موظفاً كبيراً.. موظفاً مرموقاً، يارجل كن عاقلاً وفكر بترويّ، لقد أرادت الدجاجه أن تقلد الأوزه وتبيض بيضه بحجم بيضها و...

- لاتكملي يا امرأه (فأزاد) سيكون أنساناً راجح العقل، وسيخلق مستقبله بذكائه، لقد ختم القرآن وهو صغير ومنذ أن أدخلته المدرسه، نجح في كل الصفوف ويتفوق ولقد نال اعجاب المعلمين الذين تولوا تعليمه.

- ولكن كيف بوسعك أن تجعله يحقق أمالك دون أن تشرف عليه.

- أنني مطمأن لذلك يا (فاطمه).. أنا مطمأن فهو يعرف مستقبله.

- سترى يا رجل.. سترى وعند ذاك لن ينفع الندم.

توقف قليلاً عند هذا المشهد من الذكريات القديمه، وتأوه، ثم تابع يحادث نفسه. يالك من امرأةٌ ماكره خبيثه، كنت أعلم إنك لا تحبيني، وتفضلين أطفالك عليّ، لا تريدين النجاح لي أعرف ذلك، لازلت أذكر ذلك اليوم الذي صفعت فيه أخي (طارق) لشقاوته، ولازالت أقوالك ترنّ في سمعي وأنت تقولين له، لاتقترب منه أبني أنه ليس بأخيك، لاتقترب منه إنه شرير وسيصيبك بالأذى أفهمت؟

- ولكن يا أماه كيف إنه ليس أخي؟

- إنه ليس أبني لقد ماتت أمه قبل أن أتزوج أبيك.

صحيح أنك لست امي لكنني أحببتك كما لو كنت امي الحقيقيه، فأنا وبالرغم من مرور أكثر من خمسة عشر عاماً، لا اذكر من ملامحها شيئاً، لاأذكر سوى طيفاً يمرّ في ذاكرتي أحياناً، طيف امرأةٍ عاريه مدت على لوحٍ خشبي وقد تدلى شعرها الأسود على صدرها، مغمضة العين، تجمعت حولها عدد من النسوه يسكبن الماء على جسدها ويغسلنها. ولازلت أذكر والدي يبكي كالطفل يلطم رأسه ووجهه بقوّةٍ وهو يصرخ:

- لقد رحلت ام أزاد.. لقد رحلت يالمصيبتي، ما أنا فاعل بعدها.. يالمصيبتي.

وبعدها بثلاثة أشهر وجدتك في البيت، عروسةً جميله، وقد أفهمني والدي بأنك أمي الجديده، وهكذا ناديتك منذ ذلك الوقت .. أمي.. أمي!!

.. آه يا أمي، يا من تواريت في أعماق الثرى، كم أنا أهفو لنبرات صوتك الحنونه التي لا أتذكر سماعها إلا في خيالاتي، كم أنا أهفو لنظراتك الصافيه العذبه، وأناملِك الناعمه، وأنت تمررينها بين خصلات شعري الأسود المتدلي على كتفي، كم أنا ظمآن إلى قبلاتك الحارّه الممتلئه شوقاً وحباً، وهي تنهال على وجنتاي، وراحة يداي، وعيناي وحينما أغمض عيناي اشعر أحياناً بأنني عدت طفلاً، لأظفر بحنان الأمومه في أحلام يقظتي، الأم التي حلّت محلك، وناديتها منذ أن فارقتني بأمي. لم أرَ في حنانها سوى وهماً وسراباً كبيراً.. آه يا أمي الحبيبه، لم أكن أفقه لغيابك عندما كنت صغيراً، كان حلماً قد ولّى، ولكن حتى كبرت، كبر ذلك الحلم وأدركت أنه ما من انسان في هذا الكون اعظم من الأم، أعذريني فأنا لا أتذكر ملامح وجهك، احاول أن ارسم هذه الملامح في خيالي وكما يحلو لي ولكن في أجمل صوره.. .

لطمت وجهه هبّة ريحٍ بارده، ممزوجه بزخات مطر قارس. إنتفض من مكانه وأنقطع حبل ذكرياته، مسح بكفيه وجهه المبلل، وتراجع إلى نهاية الغرفه وجلس القرفصاء على فراشه، متفحصاً وجوه زملائه الأخرين، الذين كان البعض منهم يتحاور مع الأخر في نتائج القرارالذي أتخذوه وردّ الفعل الذي سوف يحدثه لدى سلطات اللواء, بينما البعض الأخر غارقاً في لجج التفكير العميق، يحملقون في ثنايا القضبان الحديديه لباب الموقف، في الساحه المقابله لهم، ويرهفون السمع إلى الضوضاء الأتيه من الباب الخارجي، ويراقبون بحذر حركة الحراس وأفراد الشرطه، وهم يذرعون ارض الساحه، أو يدلفون إلى داخل السراي عبر الباب المقابل لهم أو يخرجون منها.

-٥-

لم يكد الدوام الرسمي ينتهي، حتى ودبَّ الضجيج والصخب ارجاء السراي وهرع الموظفون يخرجون من غرفهم مسرعين، وهم يدقون بأقدامهم ارض ممرات الطابق العلوي التي التصقت بها كتل من الأوحال التي جلبتها أحذية المراجعين، ثم ينزلون مسرعين من درجات السلم الكونكريتي، التي غطت أيضاً بطبقه سميكه من الوحل، وحالما وصلوا الباب الرئيسي حتى دسّوا بأيديهم في جيوب معاطفهم و بدأوا يخفون رقابهم وأذانهم بين طيات ياقات معاطفهم السميكه أو يلفونها برباط صوفي، خشية نسعات البرد القارصه، التي تحملها الريح الشتائيه، وهي تضرب الوجود بعنف، وعندما إستدار بعضهم إلى الجانب الأيسر من السراي حيث الباب الخاص بالمراجعين، لمحوا جمهرةً من الناس، حول الباب يتدافعون كي يحملقوا بين القضبان إلى الساحه الداخليه، تعالى الهمس بينهم، وهم ينظرون اليهم بفضول، وقد علا وجه بعضهم إمارات الحزن والكآبه:

- أتعرف لماذا يتجمهر هؤلاء هنا؟
- نعم.. فهم عوائل الموقوفين لمظاهرة يوم أمس.
- يقال أنهم منعوا عنهم مقابلة ذويهم.
- سمعت من أحد لفراد الشرطه بأنهم سوف يضربون عن الطعام إن لم تلبى طلباتهم.
- وما الفائده من كل هذا يا أخي، يضحون بمستقبلهم ودراستهم من أجل ماذا؟
- بلى والله أنك تقول الحق أنهم لمجانين حقاً، كيف يتسنى لحفنه من الصبيه أن يتحدوا الحكومه وهي تملك من القوه لسحقهم.
- ما هذا الكلام الفارغ.. أنهم صبيةٌ ولكنهم شجعان، شجعان حقاً وهم ليسوا على شاكلتك، ممن يعيشون يومهم.
- نعم لقد سمعت بأنَّ لهم أنصاراً عديدين، وقد تكون أنت واحداً منهم.
- أطبق فمك وإلا.. .
- كفى يا أخوان، ماهذه المشاده أسرعوا إلى بيوتكم لملأ بطونكم، فالقضيه لاتحل في الطريق العام.

وبالرغم من أن السراي أصبح خالياً تماماً مـن المـوظفين والمراجعين، إلا أن الجنـاح الخـاص بـدوائر إجهزة الشرطه والأمن، ظلّت تدب فيه الحركه وثمة أفراد للـشرطه ومراسـلين، ينـتقلـون بـين غرفـة مـدير شرطة اللواء وغرف معاون الشعبه الخاصه، ومعاون البلـده، والتـسفيرات، وغـرف المفوضـين والكتبـه. وكان واضحاً إن ثمة أجراءات في طريقها للتنفيذ.

رنَّ الجرس المعلق امام غرفة مدير الشرطه، ونهض الشرطي الجالس على كرسي عتيق مـن مكانـه، أصلح هندامه وعدَّل سيدارته، وحرص أن تكون مقدمتها المدببه التي تحمل نجمةً برونزيـه معلقـه بقطـة قماش سوداء مستطيلة الشكل على أستقامة جبينه، فتح الباب و أندفع للداخل، دقَّ بقدمـه اليمنـى ارض الغرفه بقوةّ، أهتزت لها منضدة المدير، وأدى التحيه الروتينيه:

- نعم سيدي.

لم يرفع المدير رأسه في الحال، إنما ظلَّ منشغلاً يراجع سطور الكتب المرصوفه على منـضدته، ويوقـع على بعضٍ منها. ظلَّ الشرطي واقفاً كالصنم ورأسه مسَّمر على رقبتـه ويـداه المـضمومتان ملـصقتان بجنبيه، وكأنما دقتا بمسمار حديـدي، لم يهتـز في جـسمه أي عـضو عـدا عينـاه اللتـان ظلتـا تـدوران في حجريهما، تارة تتجهان نحو المدير، وتتفحصان نظارةً عينيه، والأزرار اللماعه التي تزين قميصه التبني الأنيق، وملامح وجهه المتورد وتارةً أخرى يحملق في الصوره الكبيره ((لجلالة الملك فيـصل الثاني)) المعلقه وراء المدير على الحائط المقابل له، وفجأة انتفض من موضعه على صوتٍ أجـش، وقـد دفع بأضبارة تحتوي على تلك الكتب التي كان يدققها ويوقعها:

- أعطي هذه الأضباره إلى المعاون ناظم وبلِّغه بأن يباشر بتنفيذ الأجراءات التي هو مكلـف بهـا، وليعلمني بالتطورات أولاً بأول.

- نعم سيدي.

بعد أقل من سـاعه، توزّع في ارجاء الساحه المقابلـه للموقـف وفي الزوايـا وأمـام الأبـواب الخارجيـه أعداداً كبيره من أفراد الشرطه بكامل عدتهم وقد تدلت بنادقهم علـى اكتـافهم، والتـصقت بمعـاطفهم الـسميكه الزيتونية اللون، كما وقف أيضاً صفين منهم، وبيدهم الهراوات الخشبيه اللماعه الغليضه، وهم يحملقون عبر قضبان الباب في وجوه الموقوفين.

هرول عريف الموقف (أحمد) نحو باب الموقف، وظـلَّ يـدّق بعـصاه ضـربات متتاليـه علـى القـضبان الحديديه ويصرخ بصوت عالٍ مرتجف :

- هيّا.. هيّا أخوان لقد آن وقت سفركم أحزموا أمتعتكم فالسيارات بأنتظاركم كرر ذلك عدة مرت وهو يلتفت يميناً وشمالاً، ويحملق بالمعاون (ناظم) الذي كان يقف على مسافةِ خمسة أمتارٍ منه، نهض الموقوفون دفعة واحده، أنتابهم الذهول باديء الأمر، وتبدلت سحناتهم، وعلاها الأصفرار، أستبد القلق ببعضهم والخوف اللا أرادي سرى كتيارٍ كهربائي في عروقهم، شعروا برجفاتٍ مفاجئه وأرتعاش في عضلات معدتهم و مفاصل ارجلهم، وهم يشاهدون هذه الأعداد الغفيره من الشرطه المسلحه , لاحظوا المعاون (ناظم) وقد وضع يده اليمين على مقبض مسدسه المتدلي على خاصرته، وهو يحدق فيهم مراقباً، بما يتمخض عنه الموقف.

.. لحظات، وقد أنقطع التيار.. تيار الخوف، وتوقفت المفاصل والعضلات عن الأرتعاش، عاد القلب يدق دقاته الرتيبه، وقد أنخفضت تلك السرعه الهائله لبدء المشهد، أنجلت غمامة القلق في وجوههم، بدء الدم يتدفق في عروقهم ثانيةً، مُسحَ الغبار الأصفر الذي كان قد غطى قبل ذلك ملامحهم امسكوا بقوةٍ قضبان الحديد وتقدم أزاد قائلاً:

- قل لسيدك ياعريف أحمد بأننا لن نبرح هذا الموقف.. قل له، أفهمت.

- كم أنا متألم لما ساقوله لكم، لكن أرى أن لافائده فيما تفكرون فيه، قال ذلك بصوت خفيض مرتعش. وقد لاحظ أزاد أن شفته السفلى ترتجف وقد يبست تماماً.

تقدم المعاون ناظم بخطوات متثاقله نحو باب الموقف، مسك بيده اليسرى أحدى القضبان، و تقلصت عضلات وجهه، وضاقت حدقتا عينيه:

- ماذا تنتظرون؟.. ألم يبلغكم بالقرار.

- ألم نقل لكم بأننا مضربون عن الطعام حتى..

- والله هذا شأنكم، فأنا مأمور ومبلغ بتسفيركم وفي حالة الرفض سنخرجكم بالقوه.

قال ذلك وهو يشير بأصبعه إلى صفوف رجال الشرطه، المتهيأين لهذه المهمه.

دار حوار ومناقشات كثيره لم تستقر على أيه نتيجه، وكان العريف أحمد الذي كان واقفاً وراء المعاون يحدق بعينيه نحوهم متفحصاً وجوههم، متوسلاً بنظراته، من أن لا يقدموا على أية مواجهه.

دوى صوت المعاون فجأةً:

- أفتح الباب ياعريف أحمد.

ثم التفت إلى صفيّ الشرطه قائلاً:

- أستعّد، إلى الأمام سر.. قف.. تهيأ.

لقد أصبحوا على بعد مترين فقط عن باب الموقف، دبَّ الحماس في نفوس الموقوفين، وكان ردّ الفعل قوياً لديهم، لقد أستعدوا للمعركه التي كانوا يتوقعونها.

ارتفعت الصيحات:

- دقوّا اعناقهم أن هم تجرأو للأعتداء علينا.

- هيا يارفيق حسن، محمود، رشاد...إلى الصف الأمامي.

- الأقوياء يقفون في المقدمه.

- لاتقربوا أن لم يبدأوا هم.

ما أن أنفتح الباب على مصراعيه، حتى هجم الأفراد على الموقوفين يحاولون الأمساك بأيديهم وملابسهم وحتى شعور رؤوسهم وجرّهم إلى الخارج، .. دوّى صوت صراخ هائل، وهتافات متواصله شقت عنان السماء، وأهتزت بها أركان المبنى بكامله، صعد الناس على أسطح منازلهم القريبه من مبنى السراي يستطلعون الأمر، دبّ الصياح والصراخ بين عوائل وذوي الموقوفين في الخارج وهم يلمحون عبر قضبان الباب ما يجري في الداخل، لقد كانت أستغاثات بعضهم تختلط بأقذر الشتائم والسباب للبعض الأخر، كانت بعض النسوه، ينتحبن وتسيل الدموع من مآقيهن كسيل جارف تغسل وجوههن التي علاها علائم الفزع والكآبه، المارّه في الشارع الرئيسي الممتد أمام السراي، توقفوا في اماكنهم وهم يحملقونَ بذهول بإتجاه الحشد الغاضب، أطفال الأزقه و نسائها بدأوا يتراكضون نحو مصدر الصخب.

أما في الداخل، فقد إنتزع الواقفون في الصف الأمامي أنفسهم من الأيدي الممتده اليهم و أهووا بقبضاتهم على رؤوسهم، وأستطاع حسن ومحمود وأزاد أن ينتزعوا عدداً من الهراوات من أيديهم، ويهووا بها على رؤوسهم وأكتافهم، لاحظوا أن الدم يسيل في جباه بعضهم كخيوطٍ حمراء قانيه، متعرجه نحو الخدين ونازلةً من تحت أرنبة انوفهم وقد غطت كتل الدم المتخثر شواربهم السوداء وقسماً من شفاههم وأندفع الموقوفين الأخرين نحو الأمام ليردوا مع الصف الأمامي هجمةً أخرى، من الشرطه الذين جلبوا أعداداً أضافيه، انتزعوا هراوات أخرى، كم أستخدم البعض الأحذيه والأحزمه في المعركه..

لقد دام الكّر والفّر لمدة تقارب الساعه، كانت الشرطه تهجم وبعد أن تفشل في أقتحام الموقف وأرغام الموقوفين عن الخروج تتراجع و ويبدأ الحوار الفاشل، ثم الهجوم وهكذا... .

نظر أزاد إلى وجوه زملائه، رأى ان جرح رشاد بدأ ينزف وقد اصطبغ اللفاف الأبيض بلون احمر قـ ي، كما وأن حسين قد أضيف إلى جرحه السابق الذي اصيب به في المظاهره جرح أخر فوق ارنبة انفه، .ظل يمسح قطرات الدم التي كانت تتدفق من الجرح بكفه، إلا أن النزف لم يكن ينقطع، كما تفحّص في .قي الوجوه، كانت آثار الكدمات والرضوض باديةً على الوجود بشكلٍ واضح لم يلبث وأن قال:

- رفيق جبار أنت والرفيق نافع تولوا تضميد الجراح، أسرعا.. أسرعا.

- آه من يملك الكولونيا، ومناديل نظيفه.

- ابحثوا بين الحاجيات ستجدونها.

ضحك بعضهم:

- إنها بسيطه، لا معركه دون خسائر.

- آه بسيطه، سوف نكبر وننسى.

في هذه الأثناء خرج مدير الشرطه و المعاونون من غرفهم بعد أن صكّ دوي الهتافات والصيحات ذانهم، ينزلون درجات الطابق العلوي مهرولين وما أن وصل الساحه حتى أطلق صيحة قويه.

- أيها الأغبياء، أيها الجبناء الرعاديد أأنتم شرطه؟.أأنتم رجال كيف لاتقدرون على إخراج حفنةٌ من الصبيه المشاغبين الأسرى من الموقف.. هيا أفتحوا الموقف أخرجوهم , جروهم من شعورهم , ضربوهم دون شفقه أفهمتم؟ هيا.. هيا.ضاقت حدقتا عينيه، وأرتسمت عدة خطوط على جبينه مركزاً نظراتاً غاضبة على المعاون المكلف بقيادة المهمه:

- معاون ناظم.

- نعم سيدي.

- اهكذا تؤدي الواجب.. أترى الأفراد، أنظر.. أنظر اليهم، هل ترى ياقات قمصانهم المزقه، وأغطية رؤوسهم الملطخه بالوحل تتقاذفها الأرجل؟!

- س..س.. سيدي أنهم يقاومون بعناد وقدأستعملنا ما بوسعنا معهم.

- لماذا أنت واقف تتفرج هكذا، والله إن لم ينهى هذا الأمر خلال دقائق، لرميتك في أقذر غرفه وأحلتك إلى التحقيق أفهمت؟. أذهب واجلب قوةً أضافيه أخرى أفهمت؟

- أ..أ.. أمرك سيدي.

لم يمضِ إلا وقت قصير حتى جيء بقوةٍ إضافيه، وبدأ أفراد الشرطه يتراكضون في الساحه وكأنهم في حلبة سباق، ساد صمتٌ موحش لدقائقٍ معدوده ثم بدأ الهجوم مجدداً. كان المعاون (ناظم) يركض امام القوه هذه المره نحو الموقف، لاهث الأنفاس، وقد علا وجهه شحوب قاتم وغدت سحنته كسحنة الأموات، شفتاه كانتا ترتجفان. وخيط رفيع من سائل ابيض اللون قد سال من أنفه، وأستقر على شاربه.

أمّا المدير فقد وقف بعيداً، مكفهر الوجه، يشرف على عملية الأقتحام.

دارت المعركه من جديد وأستبسل الموقوفين بالدفاع عن أنفسهم، ولكن القوه التي هاجمتهم كانت أضعافاً مضاعفه بالنسبه لعدوهم ومسلحون بالعصي والهراوات والحراب والمسدسات، بينما ثلةٌ منهم كانوا قد اصطفوا في صفين متوازيين موجهين فوهات بنادقهم نحوهم ينتظرون الأشاره، استطاعوا جرّ البعض إلى الخارج، وكان كل موقوف يجد نفسه بين ايدي عشرةٌ من أفراد الشرطه، وفي الساحه كان يجد الجحيم نفسه.

صرخ أزاد:

- كفى يارفاق.. كفى ليس بوسعنا أن نقاوم أكثر.

وصرخ ثانيةً بصوت عالٍ مخاطباً مدير الشرطه الواقف بعيداً عنهم.

- سنخرج إن توقفتم.

- طيب أخرجوا دون أية مقاومه وأصطفوا في الساحه.

قال ذلك مدير الشرطه بصوته الأجش. ثم نادى على الشرطه:

- أتركوهم كي يخرجوا أرموا امتعتهم إلى الساحه.

خرج الجميع من الموقف، وأصطفوا في الساحه كأسرى متخاذلين، خاضوا معركةً خاسره، كان الألم يتفطر من وجوههم التي أدمتها الكدمات والرضوض وفي جروحهم التي كانت تنزف دماً، كانوا يحملقون في وجه المدير المكفهّر بعيونٍ تقدح بالغضب والحقد، وقفوا في اماكنهم لبرهةٍ من الزمن، وأعصابهم يأكلها القلق ومرارة الهزيمه. التقطوا امتعتهم وحاجياتهم المتناثره في ارجاء الساحه بعد أن قيد كل أثنين بقيد واحد.

ثم أمروا بالأصطفاف في خطين متوازيين متلاصقين وقد قيدت الأيادي اليمنى مع الأيادي اليسرى بقيدٍ واحد وأقتيدوا عبر الباب الجانبي الأيسر للسراي إلى الشارع الفرعي حيث كانت عدّة سيارات مسلحه رُكبَت في مقدمتها رشاش من نوع فيكرز، وكان مشمع رمادي اللون يغطي السيارات من

الأعلى. حينما خرج الموقوفين، تعالى الصراخ والصيحات من الرجال وذويهم الذين كانوا يقفون بعيداً بجوار حائط السراي الجانبي وكان عويل النساء ونحيبهن يصكّ أسماعهم، اندفع بعضهم، ولكنهم جوبهوا بجدارٍ صلد من أجساد الشرطه المكلفه بالحراسه، حيث ضربت طوقاً محكماً على طول الشارع وعرضه، ألتفت الموقوفون نحوهم، كانت عشرات العيون، تبحث وتستجلي الأمر، وتتناجى من بعيد.

حملق أزاد في الجموع كزملائه بالرغم من أنه يعلم بأن اهله يسكنون بعيداً ولكن ما الفرق فهؤلاء عوائل وذوي زملائه وأصدقائه، أنه يرى هذا الشعور الدافق المملوء حناناً وعطفاً من عيونهم، رأى فجأةً أمرأةً تندفع إلى الأمام وتشق طريقها بصعوبه بين جميع النسوه، تلوح بيدها اليمنى والتي أخرجتها من كمّ عباتتها السوداء وهي تصرخ.. أزاد.. أزاد. تفحصها. كم كانت دهشته عظيمه، وحينما ركزَ بصره عليها وجدها تمسح دموعها بمنديلٍ أبيض باليد الأخرى، وكانت تكاد شهقات البكاء تكاد تصك أسماعه، هتف في داخله، إنها زينب، ولكن كيف علمت بالخبر؟!

لوح لها بيده اليسرى، بينما ظلَت اليد اليمنى المقيده بيد زميل له بقيد حديدي، ممدوده إلى الأسفل، لم ينبس بكلمةٍ واحده، ولكنه أبتسم لها، وعيناه ترسلان لها ضياءاً يتألق فيهما الكبرياء والشموخ. يشعر في هذه اللحظه بفرحٍ يغمره، لم يعدّ يحس بالألم في جسده، الذي مزقته وأدمته، ضربات العصي والهراوات، وحدّث نفسه:

- ولكن أين هي والدتها، أيجوز أنها شعرت بالتعب وسأم الأنتظار وجلست كي تستريح وراء الجموع؟!

لم يلبث وأن أنتفض على أصوات تنادي:

- هيا أدخلوا السيارات.

- أرموا بأمتعتهم إلى الداخل.

- لا.. لا.. هناك سيارةً أخرى مخصصه للأمتعه.

- طيب أذن أنقلوها.

تقدم أزاد وبشير المقيد معه بقيدٍ واحد وورائهما حسين ومحمود ثم نافع و جبار وصعدوا أول سياره من مؤخرتها، وتوزع الباقون على السيارات الأخرى، جلسوا على مصطبتين خشبيتين كانتا تتقابلان بطول هيكل السياره وجلس في مؤخرةِ السياره عدد من الأفراد المسلحين بالبنادق للحراسه ولزيادة الحيطه ربطت القيود بسلسلة حديديه طويله شدّت بأحكام بالمقاعد. خفضوا رؤوسهم داخل السياره

وأمالوا رقابهم وهم ينظرون إلى حشود الأهل والأقارب، يلوحون بأيديهم التي كانوا يجدون صعوبةً بالغةً في رفعها، تدافع الحشد، أهتزت الأيادي ملوحةً بالوداع الأخير، سألت الدموع من المآقي، ترامى إلى أسماعهم صوت عويل، رفعت امرأةٌ يديها إلى السماء، وهي تتمتم بعبارات وجمل لم يفهموا منها شيئاً، ثم خفضت يديها ولطمت صدرها بقوّةٍ ورفعتهما ثانيه، وقد مالت برأسها إلى الوراء وهي تحدق في الأعالي. دبَّ الصخب والضجيج بينهم تعالت الأصوات:

- ليكن الله في حفظكم.. ليكن الله

- في أمان الله.. في أمان الله.

ألتفت أزاد على صوت شهيق، وإذا به يجد نائب العريف الملتصق به، يرتعش، وحينما نظر إلى وجهه وجد عيناه دامعتان، وقطرات من الماء الصافي تتدفق من مآقيه، وهي تسيل من الأخاديد المحفوره في وجهه، لتستقر على شاربه الكث الذي خطه الشيب.

اطلق زفرةً قويه لفحت وجه أزاد، ثم قال بصوتٍ مرتعش:

- لم أتحمل المشهد يا ولدي!

تحركت السيارت. كانت سيارةً مسلحه تتقدم الموكب، وقد جلس المعاون (ناظم) بجانب السائق، وكان رئيس العرفاء مع شعبه من الأفراد يجلسون في الخلف، ورامي الرشاش المثبت في مقدمة السياره، كان واقفاً ويداه على مقبض الرشاش الذي تدلت منه شريطين من الرصاص الأصفر اللماع، لفَّ رقبته ووجهه بلفاف رمادي، وأنزل أطراف الخوذه التي غطى بها رأسه، حتى التصقت باللفاف، ولم يكن يظهر من وجهه سوى عينان غائرتان في حجريهما، بعدها ثلاثة سيارات تحمل الموقوفين وورائها سيارةً مسلحةً أخرى للحراسه.

ظلَّ الجو قارصاً يجمد الأطراف، وريحٍ قويةً كانت تعصف بشدةٍ، يختلط معها رذاذ المطر المتساقط، تقتحم السياره من المؤخره، تلطم وجوههم وتلسعها. وحينما مرَت السيارات بشوارع المدينه، نهض الجالسون في المقاهي ينظرون من وراء الزجاج، واصحاب المحلات والدكاكين، خرجوا وهم يقفون أمام محلاتهم، يحملقون بفضول إلى موكب السيارات، بضعةً شبان، وقفوا طرف الشارع، لوحّوا بقبضاتهم، حتى غابت السيارات عن الأنظار. وحينما اجتازت نقطة السيطره، أنطلقتْ جميعها بسرعةٍ فائقه، ولم تتوقف في أي مكان في الطريق حتى بلغت محطة السكك الحديد في مدينة كركوك.

-٦-

على التلال الصخريه المطله على مدينة كركوك، لاح من بعيد اللهب الأصفر المشوب بحمرةٍ عمقه، وهو يندلع من آبار نفط باباگرگر، وحلقات من دخان أسود، تتصاعد على شكل حلزوني إلى السماء. ولقد بدى الطريق الضيق الأسفلتي نظيفاً و لماعاً إذ غسلته سيول الأمطار التي هطلت بغزارةٍ خلال هذا اليوم، وكان على سواق السيارات، ألنزول بحذر من المنحدر، خشية الأنزلاق والأنحدار إلى الوادي.

حينما دخلوا المدينه، كانت السحب الداكنه تغطي سماءها تماماً، بحيث لم تجد الشمس الأيله للمغيب أية فسحه ولو كانت ضيقه للنفاذ منها. لبرهةٍ من الوقت أنقطعت زخات المطر المتساقط طوال النهار. وفي الجانب من مدخل المدينه لاحت المباني الحديثه، والخزانات المدوره الكبيره، الفضية اللون , الأنابيب الجباره والمنشآت النفطيه المختلفه , وعلى مقربه من الشارع، كانت ثمه بيوت صغيره مُبناة بالطابوق والطين وكانت أشبه بالأكواخ، خرج منها صبيةٌ صغار يتراكضون في الفسحه الموحله الصغيره، مستغلين فرصه أنقطاع المطر، يرمون بعضهم بعضاً بكرات طينيه حمراء، وقد تلطخت من أثر ذلك ملابسهم الرثه بالأوحال، وعندما ينفذ البرد القارص إلى عظامهم الرخوه، وتكاد أصابع ايديهم تتجمد، ينفخون في راحات اياديهم المكوّره بقوةٍ، ليدفئوها بزفيرهم.

قال نائب العريف الأشيب، وهو يلتفت إلى (أزاد):

- أنظر إلى هؤلاء الأطفال المشاكسين ماذا يفعلون!.. حتى البرد القارص لايردعهم.

- ابناء من هؤلاء المساكين؟

- ألم تسمع ب (رحيماوه)؟!

- كلا.

- إذن هذه اول مرّه... .

- أجل، هذه أول مره أرى هذه المدينه.

- معظم سكان هذه المحله، هم عمال، يعمل بعضهم في شركة النفط، والبعض الأخر في أعمال الطرق والبناء أو كأجراء في أي عمل كان، ولكنهم بالأصل فلاحون نزحوا من الأرياف والقرى المحيطه

بالمدينه. لقد سكنت أنا ايضاً لفترةٍ من الزمن في هذه المحله ولذلك تراني عارفاً بأمورها، وعلى صلةٍ بالعديد من عوائلها.

- أنت أذن من أبناء هذه المدينه!

- ليس بالضبط. فأنا الأخر مثلهم، كنت فلاحاً في قريةٍ صغيره تقع بقربةٍ من المدينه، بعد أكمال الخدمه العسكريه، رجعت إلى قريتي، إلا أنني تركتها بعد ذلك، وأشتغلت عامل بناء لأشهرٍ، ثم آثرت الألتحاق بسلك الشرطه، وقد مضى على خدمتي أكثر من خمسة عشر عاماً، تنقلت خلالها في مدن وقصباتٍ كثيره.

- ألم يعجبك الريف؟

- كيف لم يعجبني، هل هناك مكان أحلى منه، ولكن إذا لم تكن تملك أرضاً خاصةً بك تفلحها كما تشاء وتنعم ببركاتها وتوفر لأسرتك العيش الكريم، فأنك لاتستطيع حتى أن تستنشق هواءها العذب بحريه، لقد كنا نعمل للغير، ويستحوذ الملاك على معظم المحصول، مرّ فصل وتمكنا من سداد الديون، أما في فصل الجفاف، فالموت أهون.. وعلى كل حال لم هذا الحديث الان.. إلا يكفيكم ما أنتم عليه.

- وهل انت قانع بما تكسبه؟

- الحمد لله، مهما يكن تعيش، وهو أفضل من أن لاتملك أي شيء، هذه نعمةٌ من الله.

توقفت السياره فجأه وأهتزت، وتمايل الركاب يميناً وشمالاً، رفع نائب العريف حافة المشمع، أندفعت نفخةٌ من، هواءٍ بارد لاذع إلى داخل السياره وأرتطمت بالوجوه:

- يبدو إنه حادث أصطدام.

- في الشتاء تكثر حوادث أصطدام السيارات.

- سيما عند تقاطع الشوارع.

- يبدو أنه وصلنا إلى طرف الجسر.

كان الجسر الموصل بين طرفي المدينه، تتلاطم من تحته أمواج نهر (خاصه صو) ، وتنحدر بسرعةٍ مياهه التي أصطبغت بلون الطين الأحمر، تجرف معها قطعا خشبيه وأغصان الأشجار اليابسه، و صفائح التنك وأصناف مختلفه من النفايات.

قال نائب العريف ثانيةً، عندما لاحظ البقيه يحملقون بأندهاش إلى النهر الغاضب ثم ينظرون إلى القلعه الواقعه على مرتفع عالٍ، وقد ظهر منها جدران أبنيتها القديه التي تهدم بعضها.

- لا يتعدى عمر هذا النهر عن ثلاثه أو اربعة أشهر. في الصيف لاتجده سوى وادي يغطيه الحصى والرمال.

واصلت السيارات مسيرتها ببطء مخترقةً شوارع المدينه، حيث كانت الدكاكين والمحلات تصطف في جوانبها. حِزَم من دخان رمادي اللون كانت تخرج من مداخن بعض المطاعم، تهبّ عليها رياح رطبه فتنشرها كقطعٍ من الغيوم، تنبعث منها رائحة اللحم المشوي والشحوم المحترقه.

- يالها من رائحة لقد أهاجت فيَّ الجوع.

- معكم حق فأنكم لم تتناولوا شيئاً منذ الصباح.

- آه صحيح لقد كدت أنسى بأننا مضربون عن الطعام, وكيف لا، لقد أنسانا الركل واللكم ذلك، أليس كذلك؟

- ضحك الجميع-

- لا بأس سيدخل هذا سجل الذكريات.

- أستبقون على إضرابكم ؟- سأل الشرطي -..وهل ثمه داعي لذلك، بعد الذي جرى؟! ساجلب لكم ماتشتهون إذن، ساجلب لكم من هذا الكباب ذو الرائحه الشهيه.

- بوركت والله إنك لشرطي شهم.

- طبعاً أنك فلاح إبن فلاح، ولكن قل لي، ألم تشترك في الهجوم علينا ؟!

- لا..لا.. حاشا لله، لم أهاجم رجلاً أعزل عاجزٌ عن الدفاع عن نفسهِ، هذه شيمنا في القريه.

- ولكن ماعساك أن تفعل حينما تصدر الأوامر لك بتنفيذ ذلك.

- صدقوني لم أكن ضمن المجموعه.

- لقد صدقناك، صدقناك.

بلغوا محطة سكك الحديد، كانت القاعه كبيره، والمداخل والممرات غاصةً بالمسافرين والمودعين، إذ لم يبق سوى وقت قصير على موعد حركة القطار. خُصصت لهم إحدى عربات الدرجه الثالثه.

كان عليهم أن يقفزوا من مؤخرة السياره، كل أثنين دفعةً واحده يجران ورائهما السلسله الحديديه محدثه صريراً عند اصطدامها بأطراف السياره أو بالأرض التي تزحف عليها، لا يلبث وان يلتقط

نهايتها الشرطي المكلف بالحراسه ويمسكها بقوّه. عدد من الأفراد كانوا يسيرون في المقدمه يدفعون بالناس أمامهم ويفتحون الطريق أمام الموقوفين الذين كانوا يسيرون كرتلٍ من الجنود، بينما أفراد آخرون كانوا يسيرون في الجانبين، وعدد آخر في المؤخره، كما و أحتل أخرون مدخل العربه، وولج بعضهم داخلها. تدافع زحام المحطه نحوهم، أعناق الصفوف الخلفيه محلقةٌ فيهم بفضول ودهشه، وأرتسمت على ملامح البعض الكآبه، منعتهم الشرطه من الأقتراب، ويبدو أن أعداداً أخرى من شرطة المدينه قد جُلبوا إلى المحطه، لضمان عدم حدوث أي حادث، كان الهمس يتعالى إلى اسماعهم:

- لابدّ أنهم سياسيون.

- أجل، نحن متظاهرين، لقد جئنا هذا اليوم من أربيل.. وظلّ يسرد تفاصيل أحداث المظاهره والمعركه في الموقف إلى عدد من المسافرين الذين تحلقوا حوله...

- يقال أن الشيء ذاته قد حدث في السليمانيه.

- وهنا ألم يحدث شيء؟

- إشاعات تقول بأن الشرطه القت القبض على بعضهم قبل البدء بها.

- ألم تعرف ماذا كانوا يريدون؟

- ألا تعرف.. ألا تتذكر مظاهرات الوثبه قبل أكثر من عام؟

- بلى.

- أنهم يريدون نفس ماطالبوا به أنذاك وأكثر.

- ولكنني سمعت من أناسٍ يقولون أنها قامت من أجل أنقاذ ثلاثة سياسيين كبار حكم عليهم بالأعدام مؤخراً.

- يجوز أن يكون هذا الأمر ضمن مطالبهم.

- أجل.. أجل قرأت شعاراً بهذا المعنى.

توزعوا على المقاعد الخشبيه للعربه، والتي أستحال لونها الأبيض إلى أصفر وتلطخت ببقع سوداء أو رماديه اللون، لقد جلس كل أثنان مقيدان بقيدٍ واحد على مقعد، وربطت السلسله التي تربطهما بحافته.

صعد المعاون (ناظم) إلى العربه وظلّ يتفحص الوجوه، ويتمتم بصوتٍ خفيض واحد.. اثنان.. ثلاثه، يعدهم واحداً واحداً، وقال مع نفسه إنهم (خمسة عشر.. العدد مضبوط) وألتفت إلى رئيس العرفاء وقال:

- خذ هذه الأوراق· والكتب وسلمها إلى مديرية الشرطه العامه في بغداد ستتولى أنت مهمة أيصالهم وقد تم أختيار سبعة من الأفراد لمرافقتك، ستجدون في المحطه هناك من ينتظركم.

وبعد أن أخذ الأفراد المكلفون بالمهمه إلى العربه، توزعوا في أرجائها ووقف أثنان في مدخل العربه وأثنان آخران أمام الباب الداخلي المؤدي إلى العربه المجاوره، وتولى البعض مساعدة الموقوفين في نقل أمتعتهم على الرفوف أو تحت المقاعد، وبعد أن تحقق المعاون من أن الأجرانات قد أتخذت بشكل دقيق، أمر الأفراد الباقين بأن يتبعوه للعوده إلى أربيل، لم يكن قد بقي من الوقت لبدء حركة القطار سوى عشرة دقائق.

صاح رئيس العرفاء:

- أين نائب العريف خدر؟

- لقد ذهب لشراء الطعام للموقوفين.

- لعنه الله لِمَ لَم يخبرني بذلك؟

- ها.. أنه هو، أنظر كيف يركض.

وصل وهو يلهث:

- معذرةً ياسيدي، كنتَ مشغولاً مع المعاون لذا لم اشأ أزعاجكما، ثم.. ثم..

- ثم ماذا؟

- آه، وأبتسم بخبث، خشيت أن لاتوافق .. تعرف أن الجوع ينهشهم.

- ها.. انا لاأوافق.. ياأبن ال.. أتراني أفاكاً عديم الضمير.

- ولكن لما أنت غاضب؟

- وكيف لا أغضب وأنت لم تأخذ الأذن بالذهاب، ألا تعرف الواجب؟! ثم، ثم كان من الممكن أن تكلف بأن تجلب لنا أيضاً.

أبتسم حسين وهو يحدق في هذا المشهد من نافذة العربه، ويستمع إلى الحوار ثم قال:

- يارئيس أنا الذي كلفته، إلا تعرف بأننا نكاد نهلك جوعاً، توقف وظلّ يتحسس براحة يده موضع الجرح فوق الضماد الملفوف على رأسه، ثم ألتفت إلى نائب العريف وقال:

- لقد أخبرتك بأن تشتري بما فيه الكفايه لنا جميعاً.

- لقد فعلت ذلك يا أخ حسين، فلكلٍ منا نفر كبابٍ كامل مع الخضروات والبصل المشروم والطرشي، وقرصِ خبز أضافي.

ثم أبتسم وقال وهو يلتفت إلى رئيس العرفاء:

- أمّا الرئيس فجلبت له نفرين فهو أكول.

أقترب منه رئيس العرفاء، وقد أفتر فمه عن إبتسامة رضا وقال له بصوتٍ خفيض:

- هل تعرفه؟

- أجل ولكن ألا تعرفه أنت؟

- كيف لي أن أعرفه، وأنا أراه اليوم.

- أنه حسين ..ابن المعاون (على مصطفى) الملقب بأبي السوط. ففغر فاه، وقد تملكته دهشةً بالغه:

- يا أبن الشيطان لِمَ لم تخبرني قبل الأن.

ثم أقترب مسرعاً من النافذه، ومدّ كفه الفخم إلى حسين مصافحاً وظلّ يهزُ يده بقوّةٍ:

- كيف لَم تخبرني يارجل فلأبيك أفضال عليّ، لقد خدمت بمعيته لمدة سنتين، فهو نموذج للرجل الصارم الذي يعرف واجبه، والحق لقد تعلمت منه الشيء الكثير. ولكن قل لي أين هو الأن، منذ مدّة طويله لم تقع عيناي عليه.

- أنه خارج المدينه.

- ألم يسمع بالخبر؟

- بلى وقد غضب عليّ عندما ابلغوه بالخبر ورفض التدخل في الأمر ولم يشأ حتى مقابلتي في الموقف.

- أن كنت تريد الصواب، فالحق معه، كيف يجوز لأبن (علي مصطفى) المشهور بأخلاصه، أن يشترك ضدَّ الحكومه، لا..لا.. يا حسين لم يكن من الواجب أن تُحرج أباك هذا الأحراج الكبير.

- أجئت تحاكمني يا رئيس العرفاء.

- لا والله لا اقصد أزعاجك، أنما أنا مندهش للأمر، متأثر غاية التأثر، وكما قلت لك كان أباك مثلنا الأعلى بأعتباره النموذج في أداء الواجب، ثم كم كان رائعاً لو أكملت دراستك، واصبحت معاوناً للشرطه مثله.

ضحك الباقون:

- ولِمَ معاون للشرطه وليس شيئاً أخر،

قال بلهجةٍ تشوبها الصرامه:

- نحن في المسلك نعتبر المعاون أعظم شأناً من الباقين، فأنه يستطيع أن يفعل الكثير، ومع ذلك فالخيار له، كل شيء أفضل مما أنتم فيه الأن.

قطع حبل الحديث الصفيرالحاد للقطار اذاناً بالحركه، وقذف مرجل القاطره أحزمةً كثيفةً من بخار رمادي اللون، بدأت العربات تهتز هزات بطينه محدثةً قرقعةً عاليه، و أصوات هش..ش..ش..تم..تم، دوَّت في الأذان. تدافع المسافرون يقفزون من مداخل العربات إلى داخلها يتخذون أماكنهم على عجل. فقفز رئيس العرفاء ونائب العريف إلى داخل العربه ايضاً وأتخذا لهما مقعداً عند الباب.

تناول حسين رزمةً الأطعمه الملفوفه داخل كيس ورقي كبير، وأنهمك في توزيعها على زملائه الموقوفين و أفراد الشرطه، أنبعثت أبخرةٍ حاره من اللفات ورائحة الكباب، والبصل المثروم، ملأت خياشيمهم، سال اللعاب وأمتلأت أفواههم بها، وظلّوا يلتهمون الأكل بنهمٍ ويمضغونها بسرعه، بينما بدء القطار بالحركه..چك..چك..چك..شي..شي..شي وحينما حملقوا من النافذه، كانت جموع المودعين يلوحون بأيديهم لأحبائهم المسافرين، ويرسلون بأياديهم قبلاً في الهواء وفي أعينهم كانت يتدفق بريق متألق، وقد تفتحت أساريرهم، وزينتها ابتسامات صافيه جذابه، وقد بدى لهم أنهم يتحركون بأتجاه معاكس لسير القطار، أزدادت سرعة القطار، وتراكضت العربات مسرعةً مخلفةً ورائها، الأضاءه الساطعه التي بدأت تعمل منذ دقائق في غرف وصالات المحطه.

لمدة من الزمن خاضوا غمار أحاديث شتى، كانت بعضها تتعلق بأحداث المظاهره، والمواقف الحرجه فيها، و ظلَّ كل واحد منهم يروى للأخر مافعله أثناءها، والبعض الأخر من الأحاديث كانت تتعلق بمعركة الموقف، وكان افراد الشرطه يرقبونهم ويستمعون إلى أحاديثهم بأستغراب، ولم يلاحظوا في وجوههم ونظراتهم ما يعكس الحقد والكراهيه تجاههم إذ كان الأمر بالنسبة اليهم واجباً روتينياً

اعتادوا عليه ولربما البعض منهم كان يشعر في قرارة نفسه بالأسى والرثاء تجاههم، ولقد أظهر البعض منهم هذا الشعور وقالوا:

- أنكم طلاب شباب وفتيان في عمر الورد كان يمكن أن يكون لكم مستقبلاً رائعاً وتصبحون فيه رجالاً محظوظين يشار اليكم بالبنان، بدلاً من أن تساقوا هكذا إلى مصيرٍ مجهول وإلى حياةٍ قاسيه، صعبه قد لاتتحملونها. ومن المؤكد أن بعضهم كان يعتقد بأن هؤلاء قد أصيبت عقولهم بأضطراب أو خلل أو قد يكونون شباباً طائشين لا يعرفون شيئاً عن مصلحتهم أو لربما الشيطان سحرهم ودفعهم إلى هذا الطريق!

أنتقل بهم الحديث إلى توقعاتهم وتصوراتهم في نتائج المحاكمه. لم يستقّروا على رأي موحد، لم يكن أياً منهم قد مثل أمام أية محكمه، ليعرف الأجرانات الروتينيه التي تتخذ فيها، كما لم يكن لهم معرفه أو خبرةً شخصيه، بأسرار المحاكم وخفاياها، والأيدي التي تحركها، ناهيك عن أسرار المحاكم العرفيه العسكريه لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القانون، إلا النزر الضئيل الذي سمعوه أو قرأوه عرضاً. ولكن أغلب الظن أن الغالبيه منهم لم يكن يعتقد بأنه سيدخل السجن ويمضي فيه عدداً من السنين لمجرد اشتراكه في مظاهره سلميه.

التفت حسين إلى أزاد قائلاً:

- أليس من المفيد أن نتفق على رأي موحد نقوله في المحكمه.

- بالطبع..بالطبع.

- أذن مالذي تراه.

- ليس أمامنا من سبيل سوى أنكار التهمه وردّ الشهود على هذا الأساس.

- وهل تظن أن ذلك يجدي معهم نفعاً وقد أعدّوا لنا جمعاً من وكلائهم شهوداً علينا.

- قد لايجدي نفعاً ولكن هذه معركه وأن كانت من نوعٍ أخر، إن محاكمهم كالأفخاخ المنصوبه بأحكام، والمهمه كيف نخرج منها بأقل أذى.

غلب النعاس بعضهم ومالت رؤوسهم إلى الأمام، وكانت تهتز هزّاتٍ رتيبه مع حركة القطار. كان البرد القارص يلّف جوّ العربه وكانت الأجساد ترتجف بشدّه، والأسنان تصطك. مما جعل البعض يتدثر بالبطانيه، أو بالمعطف الذي يحمله، بينما ظلّ البعض ساهراً او شارد الذهن، غارقاً في خيالاته وذكرياته الخاصه. أما أزاد فقد تذكر (زينب) وهي تلوح له بيدها أثناء تسفيره من الموقف، وقد

أرتسمت على محياها علائم الذعر والخوف، وقال مع نفسه: لابدّ وانها ستنقل الخبر إلى أمها وإلى بقية الأقارب، ولربما يزورهم (المضمد الصحي الشيخ حسن) عند قدومه من القريـه، ينقـل الخبر بـدوره إلى والده.. ثم تصّور والده وهو يتلقى النبأ وقد أستبّد به الحزن والكآبـه، وقطرات مـن الـدمع تنـزل مـن مآقيه، وهي تسيل بين تجاعيد وجهه، تستقر على شاربه الكث الذي خطه الشيب.

شعر هو الأخر بالحزن يحزّ نفسه، حيث ترتسم صوره والده هكذا في مخيلته، أنتفض من مكانه، سرت في جسده قشعريرةً حادّه، لفّ نفسه ثانيه بالبطانيه، وألقى نظرةً على زملائه، وقد غلبهم النوم، ترامى إلى سمعهم شخير بعض الحراس، بينما كانت أعين البعض الأخر، قد غالبتها النعاس، تنتفض رؤوسهم المائله إلى الأعلى مع كل حركه قطار، بينما البعض الأخر يلف لفافة تبغ أو يمص دخانها بهدوء. لقـد غالبه النعاس هو الأخر ومال رأسه إلى الأمام، وأستغرق في نومٍ متقطع.

لاحت بغداد من خلال الضباب الذي كان قد لفّ كـل شـيء، وكـان ضـياء الفجـر قـد بـدّد حلكـة الظلام. دوّت صفارة القطار دوياً قوياً توت..تووووت.. تش ش.. .

خرجت من مرجل القاطره حزم كبيره من بخار كثيف لم تلبث وأن غاصت في ثنايا الضباب، أرتفعت فرقعـة العجـلات، انخفـضت سـرعتها. لم تلبـث أن توقفـت، بـدأ الركـاب يتـدافعون، حـاملين حقـائبهم وأمتعتهم ينزلون بخفةٍ من العربات، وقد أزالت بهجة الوصول، أثار عناء السفر وألم من وجوههم.

نهّض الحراس من مقاعدهم، سدّوا ابواب العربه، وطلبوا من الموقوفين البقاء لحين نزول ركاب بـاقي العربات، بعد ذلك أقتيدوا إلى صالة المحطه كان في إنتظـارهم عـدد مـن سـيارات الـشرطه المخصـصه لنقل الموقوفين، مع رهط من أفراد الشرطه المـدججين بالبنـادق والمسدسات، الـذين كـانوا قـد طوّقـوا المكان بأحكام. لقد حشروا في تلك السيارات. لاحـظ الموقوفـون، أن أعـداداً غفـيرة مـن المسافرين قـد تجمعوا حولهم، ينظرون اليهم بفضول وقد أرتسمت علامات الدهشه والأستغراب في وجـوههم، بـادلوهم النظرات، أبتسم البعض منهم ولوّح أخرون بقبضات أياديهم، ردّاً لتحيات بعـضهم. أرادوا أن يظهـروا رباطة جأشهم، ولكن البعض منهم كان يحسد هؤلاء المسافرين في دخيلة نفسه، لقـد وصـلوا العاصـمه وسوف يتمتعون بمباهجها وملذاتها، وسيجدون من الدفء والطعام اللذيذ والمسرات مـا يعوضـهم عـن مشقة السفر.

سينعمون بالغبطه والأبتهاج وهم يسيرون طليقين في شوارعها ومحلاتها وحاناتها دون حارس أو قيد أما هم، فلا يعرفون إلى أين سيساقون وماذا سيكون مـصيرهم، والـشيء الـذي لا يـشكون فيـه، هـو

أنهم سيقعون في موقف بارد مرطب، ولكن في أي موقف أو أية منطقه هذا مالم يكن يعرفونه. لم يسبق لمعظمهم أن زار بغداد في السابق، ولم يكونوا على علم ودرايه بمعالمها وشوارعها ومحلاتها، سوى ما سمعوه من الناس.

وحين مرور سياراتهم في الشوارع بدت لهم بغداد مدينة جميله وبهيجه، كانوا يحملقون في الشوارع والمحلات المتراصه في جوانبها بأندهاش، كانوا يلتهمون بأعينهم كلّ ماكان يصادفهم في الطريق وقد أنشغلت أذهانهم بالصور والمناظر الجميله التي شاهدوها، سرعان ماتبددت وتلاشت وحلَ محلها ألم، وترامت في أذهانهم صور الجدران الصماء التي تحجب عنهم كلّ الصور الجميله الزاهيه للحياة، لقد أنتابهم قلق اليم كان يأكل أعصابهم بوحشيه، وطفى في نفوسهم شعورٍ بالوحشه والضياع.

بعد فترةٍ وجيزه وصلت السيارات أحدى المعسكرات وكانت غاصّه بالجنود والسيارات العسكريه، كانت قطعةً كبيره قد علّقت في مدخل المعسكر (معسكر الوشاش). وبعد الأجرانات الروتينيه أقتيدوا إلى الموقف. أصطف الموقوفون أمام باب الموقف ينظرون اليهم من خلال القضبان الحديديه بلهفةٍ وشوق، بادلوهم النظرات، ولّوحوا لهم بأياديهم، لم يجدوا في ملامحهم مايدلّ على الحزن والكآبه. أدار جنديٌ حارس المفتاح في القفل الضخم للباب فأنفتح بعد أن أطلق قرقعةً عاليه وصريراً حاداً، تقدمهم أزاد ودخل الباقون تباعاً. أستقبلهم الموقوفون أستقبالاً حاراً. كانت الأيدي تتسابق لمصافحتهم والشفاه تطبع القبلات على الوجوه، وكأنهم أخوان أعزاء أو معارف جاءوا من مكان بعيد، بعد أن طال الشوق اليهم. أفرغوا لهم المكان، وهرعوا لأحضار الطعام والشاي، وتقديم كلّ ما لديهم من مأكولات، أحاطوا بهم كالسوار في المعصم، وضربوا حولهم طوقاً محكماً وبدأوا يمطرونهم بوابل الأسئله. كانوا يتعقبون الأخبار، كما يتعقبها مراسلوا الصحف ووكالات الأنباء، كانوا متلهفين لسماع أي خبر مثير أو جديد. لقد عرفوا في دقائق بأن القادمين الجدد، موقوفون بسبب اشتراكهم في مظاهره مدينة أربيل، وكان واضحاً لديهم بأن مظاهرات صاخبه أجتاحت معظم المدن، إذ جيء بالعديد منهم لنفس السبب.لقد أزدادوا الحاحاً لسماع كل كبيرة وصغيره مما يعرفونها، ويتابعون بلهفةٍ عظيمه القصص والأخبار التي كانوا يروونها. لقد تحدثوا لهم أيضاً عن معركتهم في الموقف.

ولم يتردد البعض منهم في سرد المبالغات مادام ذلك يثير فيهم رغبةَ الأستماع. كانت وجوههم تزينها أشراقةٌ أبتسام أو فرح وكانوا يرددون:

- حسناً فعلتم.. أنكم لو الله أبطال.. هكذا ينبغي أن تكون المعركه.

كان الموقف الجديد عبارةً عن ردهة طويله، حشرت فيها مجموعةً غفيره من الناس، جيء بهم من مختلف مدن العراق، وهم ينتمون إلى طبقات وشرائح أجتماعيه مختلفه ومتباينه، فيهم العامل والطالب والمدرس والكاسب والفلاح وحتى رجل الدين. كان الزحام فيه شديداً ولم يكن هنالك اي مجال للمشي والحركه داخل الموقف.

كان جوّه خانقاً، وكثيراً ما كانت طبقة كثيفه من الدخان الذي يتصاعد بأستمرار من أفواه المدخنين، تغلف كلّ شيء، وتكاد تنخمد الأنفاس. يعتبر محظوظاً من يتسطيع أن يجد له موطيء قدم عند الباب، كي يستنشق قليلاً من الهواء النقي، أو يلقي نظرةً من خلال قضبان الباب الحديديه في وجوه الجنود الذي يحرسونهم بأنتباه أو يتمتع قليلاً بمناظر الحديقه الصغيره المقابله لهم، أو يحملق في قطع السحب البيضاء والدكناء التي تنتشر في الأفق البعيد أو تتراصف أحياناً في السماء، أو في زخات المطر التي تتساقط فيها كحبات الرمل الناعمه. لقد تعبت العيون من كثرة التحديق في الجدران الصماء للموقف وأصابت الرؤوس بالدوار، من شدّة الروائح الكريهه التي كانت تنبعث من البرميل الذي وضع في زاوية الموقف ليفرغ فيه الموقوفون بولهم، إضافةً إلى الروائح التي كانت تنبعث من الأجساد التي تراكمت عليها طبقات من الأوساخ، إذ لم يكن بوسع اي منهم أن يجد المجال للأغتسال والأستحمام.

لقد تبدّد القلق الذي كان ينهشهم، وحلّ محله شعور بالأطمئنان. إذ أزالت إشراقة وجوه نزلاء مضيفهم الجديد كل كآبه كانت مرتسمه على ملامحهم. لقد وجدوا رفقاء جدد لم تكن معهم معرفةً سابقه، ولكنهم بدوا وكأنهم متعارفون منذ أجيال. لقد جمعتهم الأمال والمطامح والألام، وشدّهم شعور طاغي بوحدة المصير، لأن درباً واحداً تجمعهم.

قال أحدهم وهو يشدّ على يدي أزاد:

- أيها الرفيق لاتبالي فأن درب الكفاح غير مفروش بالورد والرياحين.

وهتف صبي لم يتجاوز الرابعه عشره من عمره، كان هو الأخر موقوفاً:

- سنبلغ النصر مهما كان الثمن، ومهما طال الطريق، ألم تسمع بفوركي وهو يقول (أن السجون ماهي إلا محطات راحه في سفر الحياة).

أندهش أزاد لشجاعته وصلابته وهو في هذا العمر وأعجب به كثيراً وقال مع نفسه: يالصبي الرائع، لو كان كل رجال شعبنا في شجاعه وأيمان هذا الصبي بالنصر، لما تردد أحد في أن يسلك طريقه ولكانت المواقف والسجون قد تهدّمت على رؤوس بانيها منذ أمد بعيد.

-٧-

كان الوقت صباحاً، وأشعاعات الشمس الدافئه لشهر أذار، نفذت من خلال القضبان إلى داخل الموقف. نهض أزاد من نومه، وحينما نظر إلى ساعة يده العتيقه وجد عقربها قد أستقر على الثامنه، تثائب ثم فرك بأصابعه عينيه ونظر لبرهةٍ من الوقت في الحزم الذهبيه الشفافه التي تنفذ من بين القضبان وتمتد إلى مايقارب المترين داخل الموقف، أستمتع للحظات، بالرذاذ المتطاير وحركة المواد الصغيره التي تسبح بين هذه الحزم، نظر من خلال القضبان إلى الفضاء الخارجي، وجد الشمس تشع في السماء كقرصٍ ذهبي، وقد قطعت مسافةٍ غير قليله من مسيرتها الصباحيه وهي تسرع حثيثاً للغوص بين طيات قطع السحب البيضاء الهائله التي تتراكض بأتجاهها. ترامى إلى سمعه ثرثرةٍ متواصله من البرميل الذي تحجبه قطعة من الجنفاص، رأى الرجال الذين نهضوا لتوهم من النوم قد إصطفوا ليأخذوا دورهم في التبول والأغتسال. دعك بشير بأصابعه، وكان مستلقياً في فراشه بجانبه تماماً، أنهض ياأخي ولينهض الأخرون، حان وقت الفطور. لقد أعتاد الموقوفون أن يستقيظوا قبل الساعه الثامنه، ليستلموا حصتهم من الطعام، ويتهيأوا لأي حدث طارىء. فخلال الأيام التي قضوها في هذا الموقف وجدوا أن قوافل الموقوفين ومن شتى المدن العراقيه، تدخله يومياً، كما وتخرج منه أعداداً أخرى، كي يمثلوا أمام المحكمه.

تولى بشير مهمة أيقاظ بقية زملائه، وذكرهم بأنه ينبغي ان يرتدوا ملابسهم بسرعه ويتهيأوا لأن هذا اليوم موعد محاكمتهم.

بعد أن أكملوا فطورهم، تجمعوا في ركن من الموقف وبدأوا يتداولون بينهم في أمور المحاكمه وما ينبغي أن يقولوه، حضر معهم رجل مديد القامه أسمر الوجه تجاوز الثلاثين، كانت الصرامه ترتسم على ملامحه بوضوح، وقد عرفوا بأنه مسؤول الموقف، ومعه رجل أخر مستدير الوجه، تغطي عينيه نظارةٌ بيضاء سميكه، وقد قدم نفسه:

- أخوكم المحامي (عبدالحسن الهزّاع) جئت أقدم لكم أية مشوره قانونيه تطلبونها.

ثم ضحك وأنفرجت شفتاه عن صفين من الأسنان البيضاء الناعمه:

- محامي ولكني موقوف مثلكم.

تكلم الرجل الطويل في البدايه، وكانت الكلمات تخرج من فمه برتابه، وقد أضفى على وجهه صارم وقار رجل ناجح خبير، كان حديثه، يدل على إنه يمتلك خبرةً سياسيه، وإنها ليست المرّه الأولى التي يزور فيها الموقف، ولذلك فقد شرح بوضوح تام أرائه عن الأوضاع السياسيه ومايبنغي عمله في المرحله الراهنه، وأكدّ على وجوب الصمود والتضحيه:

- أيها الزملاء لربما تزورون الموقف لأول مره، أرى ذلك على وجوهكم، قد يكون الأحساس بالحبس لأول وهله مريراً، وقد يشعر المرء أحياناً بالأختناق، أن مسألة سلب حرية الأنسان وحبسه بين جدران أربعه، وعزله عن المجتمع والناس وتسليط الرعب الدائم في قلبه، ليس بالأمر الهيّن، ولكن مالعمل إذا كان هذا هو السلاح بيد أعدائنا يستخدمونه لأذلالنا وكسر معنوياتنا وجعلنا أحياء دون روح، دون هدف ودون موقف.

ليس أمامنا غير الصمود، فالصمود هو البطوله بعينها. أما كيف تصمد، فالمسأله تتعلق بأيمان الشخص بصواب مايفعله. علينا أن نضع الشعب.. المبدأ.. الأهداف أمام بصائرنا كلّما أشتدت بنا المحن.

توقف قليلاً، وظلَّ يتفرّس في وحوههم لبرهةٍ من الوقت، ثم سحب نفساً عميقاً من السيگاره التي كان قد أمسكها بين أصبعيه اللذين غطتهما طبقه صفراء.

عندما أوقفت لأول مره، شعرت بالرهبه، بالوحشه، بالأختناق ولكن بعد ايام تعودت على جوّ الموقف، لم تعد تلك الأحاسيس تنتابني كالسابق، ولذلك فأنكم سوف تتكيفون، تعتادون على الأمر وتخرجون يوماً من التوقيف أو السجن ويصبح كل ماتشاهدونه الأن أو في المستقبل صوراً باهته لذكرياتكم.

سأل نافع بلهفة:

- هل تظن أنه سيحكم علينا جميعاً وكنّا افراداً بين المئات.

- أترك القضايا القانونيه للأخ (عبدالحسن) فهذا أختصاصه أما أنا، فلم أكن سوى معلّم قضيت أكثر من خمسة سنواتٍ في الريف، ثم أنتقلت إلى مدينة (البصره) لأدّرس في مدارسها.

قال المحامي ضاحكاً:

- آه.. أنه خبير بالقضايا الفلاحيه، لقد حرضّهم ضد الشيوخ والملاكين، وغرس بينهم بذور افكاره وها هو يدفع الثمن.

ضحك الجميع

ثم اردف قائلاً موجهاً كلامه إلى نافع:

- مسألة الحكم او الأفراج تتعلق بالبينات والشهود التي هيأوها لكم، ولكن ليس أمامكم من خيار سوى الأنكار وردّ أقوال الشهود بما تمتلكونه من حجج مقنعه.

هنا تدخل مسؤول الموقف:

- زملاء ليست المسأله، مسألة قانون فقط، فحينما يريدون حبس أحداً، فما أكثر التهم والشهود، أسألوني أنا فقد رأيت الأعاجيب بل ألصقت بي أحياناً تهم أستغربت كيف أستطاع هؤلاء الأبالسه صياغتها، وأختراع الأحداث والقصص كبينات لتأكيد أتهاماتهم.

- هذا صحيح، ولكن لابّد من التكيف القانوني لكل مايخترعونه ثم لكل جريمة عقوبه محدده في قانون العقوبات وفق الماده أو الفقره المعينه، فمثلاً لا يجوز وفق القانون أن يحكم على المتظاهر بعشرة سنوات أو أكثر مثلاً، كما وحتى جريمة القتل أحكامها تختلف باختلاف ظروف الجريمه ودوافعها وبين إذا كانت متعمده أوقضاءً وقدر أو مع سبق الأصرار.

- أفهم هذا، ولكن في حدود العقوبه المنصوصه للجرم المحدد بأمكانهم أن يهينوا الدلائل والشهود، ثم لا ننسى أن الوضع في المحاكم العرفيه العسكريه مختلف. ألا ترى وتسمع يازميل بأن هذه المحاكم تسوق المئات شهرياً إلى السجون محملين بأكوام ثقيله من الحديد، وبالطبع فأن حيثيات الحكم والقرار يشير إلى الماده والفقره من ذلك القانون اللعين.

ثم كل هذا في جانب، ورئيس المحكمه (العقيد عبدالله) في جانب أخر، لقد طار صيته في كل مدن العراق.

- آ.. صحيح أنه يجانب القانون في كثير من أحكامه.

- على أية حال لا أرى ضروره في تطويل النقاش، فالقضيه تتعلق أساساً بالضمير، و إلى أيّ مدى يتشبث الحاكم بالعداله.

ثم التفت إلى الباقين وقال:

- زملاء إذا كانت لديكم أية أسئله تتعلق بأموركم الخاصه، لا ترددوا في توجيهها فلربما أنا والأخ عبدالحسن نستطيع أن نقدم المشوره لكم.

جرت بعض المناقشات والأحاديث بهذا الصدد.

لم تلبث ان جاءت اللحظه التي كانوا ينتظرونها. حضر ضابط وخلفه عدد من الجنود، ووقف أمام ـب الموقف ينادي بصوت عالٍ:

الموقوفون من أربيل.. أزاد عبدالجيد، بشير أبراهيم، حسن غالب و..و.. ظلّ يتلو باقي الأسماء.. تهيأوا، اسرعوا ألبسوا ملابسكم فاليوم موعد محاكمتكم.

بعد برهةٍ فُتح باب الموقف و أقتيدوا مشياً على الأقدام. لمحوا من مسافةٍ غير بعيده بنايةً صغيره من طابقٍ واحد، صبغت جدرانها باللون الأبيض، وأحاطت الأشجار بجوانبها. وعندما وطأت أقدامهم مدخل الحديقه الصغيره التي كانت تقع في الواجهه، داعبت وجوههم نسمات خفيفه من هواء بارد مرطب، تحمل الروائح الزكيه للأوراد والزهور التي تفتحت براعمها، و أصطفت بشكل متناسق، وأحاطت بالعشب الكثيف، الذي كان يبدو كقطعةٍ مستطيلة الشكل ذات لون أخضر غامق، تدور في وسطها بسرعةٍ كبيره الأضلع الأربعه لرشاشة الماء التي كانت تقذف بالرذاذ إلى كل الجوانب وتنتشر حباتها على الحشائش واوراق شجيرات الورد والأزهار الزاهية الألوان، كخرز صغيره، تبدو بيضاء اللون، تحت أشعاعات الشمس البراقه.

عُلِّقت في مدخل البنايه قطعةً خشبيه بنية اللون، مستطيلة الشكل، كتبت عليها بخط أنيق وكبير عبارة (المحكمه العرفيه العسكريه الأولى) وفي الفناء الصغير كان يجتمع أعدادٌ من الأنضباط العسكري، والجنود. ولمحوا ايضاً المعاون (بديع) واقفاً يحيط به عددٌ من افراد الشرطه والشهود الذين جلبهم. وعندما مرّوا بالقرب منهم، ألتفت اليهم ولاحظوا انه يؤشر بأصابعه إلى بعض منهم، ويلتفت بعد ذلك إلى المحيطين به، يتحدث معهم بصوتٍ خفيض.

كان الضابط يتقدمهم، أمّا في الخلف والجانبين، فكان يحرسهم عدد من الجنود المسلحين بالبنادق، ما أن وصلوا الباب، حتى دقَّ الجندي الحارس الأرض، وبأخمص بندقيته مرةً واحده، محدثاً صوتاً مدوياً.. طراق.

ردّ الضابط التحيه، ثم دلف إلى الداخل و ورائه الباقون.

أُقتيد الموقوفون إلى غرفة الأنتظار الصغيره للمتهمين الخاليه من الأثاث، ممّا اضطّرهم للوقوف طيلة مدّه الأنتظار. لم يمّر وقت طويل حتى أُدخلوا قفص الأتهام الخشبي الطويل. كان ثمه جنود مسلحين يحرسون داخل القاعه ويقفون في زواياها بيقظه وأنتباه.

نادى أحدهم بصوت حادّ:

محكمه.. محكمه.

لم يلبث وأن دخل القاعه من الباب الخلفي ثلاثة ضباط عسكريين، أخذوا مقاعدهم قبالة الطاوله الخشبيه ذات اللون البني، كان رئيس المحكمه برتبة عقيد، رجل مربوع القامه، قصيرها، ذو وجه مكتنز متورد، طار صيته في الأفاق، لكثرة ماكان يقذف بالناس إلى السجون. بدأ بقلب الأوراق في المحفظه الموضوعه امامه، ويتفحصها بعينيه. قُرأت اسماء الموقوفين لتثبيت الحضور، أجاب جميعهم بكلمة (نعم). ألتفت إلى مساعديه اللذين يجلسان بجانبيه، وتهامس معهما، ثم ضرب المنضده بمطرقته، تعالى منها صوت عدّه طرقات، أيذاناً بأفتتاح جلسة المحكمه، ثم أتكأ على مرفقيه المسندتين على الطاوله، مدّ عنقه إلى الأمام، أرتسمت على ملامحه علائم الصرامه وأطلق نظراتٍ حاده عبر عدستي نظاراته بأتجاه الموقوفين، وأستوى مساعديه على مقاعدهما، وخيّم سكون مطبق في أرجاء القاعه، وأرتسمت علائم الرهبه والقلق في وجوه الموقوفين، وقد تعلّقت عيونهم، وعيون من هم في القاعه برئيس المحكمه وأعضائها. أفتتح الرئيس المحكمه بأسم الملك، وتلفظ بالعبارات التقليديه الجاريه عنده يومياً، ثم طلب من المدعي العام تلاوة بيان الأتهام.

نهض المدعي العام من مكانه ووقف منتصباً أمام منضدته الخشبيه التي تقع في الزاويه اليمنى من القاعه. كان هو الأخر عسكرياً برتبة مقدّم.

وبعد أن سَعُل عدّة مرات ورطب لسانه بشفتيه، تناول ورقةً من على الطاوله، وبدأ يقرأها بصوت جهوري. كانت تلك لائحة الأتهام التي أعدّها والتي لم تستغرق قراءتها سوى بضع دقائق.

(سيدي الرئيس:

- أن المتهمين الماثلين أمامكم قاموا بتأريخ العشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٩٤٩ بالتحريض والأشتراك في مظاهره معاديه للحكومه في مدينة أربيل، ورفعوا لافتات تضمنت شعارات تمسّ بهيبة الدوله وتحرضّ على الأخلال بالأمن والنظام، كما وهتفوا بعبارات وأقوال تحرضّ ابناء الشعب على العصيان وتدعوا إلى سقوط الحكومه وتساهم في نشر مباديء هدّامه تضّر بمصلحة الشعب والوطن وهي التي تدعوا لها منظمات محظوره قانونياً تعمل بصوره سريه على نشر البلبله والفوضى في البلاد، وزرع بذور الفتنه والشقاق بين المواطنين، إضافة إلى ماذكرنا فأنهم قاموا بالأعتداء على أفراد الشرطه الساهرين على حماية الأمن، ومنعهم من اداء واجباتهم.. و.. .)

وأستمر في قراءة بقية الجمل. ثم توقف قليلاً وحملق في المتهمين بعينين تنفثان الحقد، وأردف قائلاً:

- (سيدي الرئيس.. ولكل ماتقدم فأنني أطلب بأسم القانون والعداله إيقاع أقسى العقوبات بحق هؤلاء العابثين بأمن الدوله لتكون جزاءً لما أقترفوه من أثم بحق الوطن ورادعاً لغيرهم وستجدون في البيانات المقدمه إلى محكمتكم الموقره وشهادات الشهود الذين سيدلون بقول الحق، مايكفي لأدانة هؤلاء كلٍ حسب دوره في الجريمه.)

بعد ذلك جلس في مكانه، وبدء رئيس المحكمه يتصفح ببعض الأوراق ثم قال:

- ليحضر الشاهد الأول.

تقدم الشاهد إلى المنصه المخصصه للشهود، وزرّر جاكيت بدلته الرماديه، أحنى رأسه، والصق ذراعيه بساقيه الملتصقتين ببعضهما:

- نعم سيدي.

- أسمك؟.

- بديع نزهت أمين، معاون الشعبه الخاصه للواء أربيل.

- أقترب من المنضده، أحلف اليمين، قل والله أقول الصدق.

-.. وألله أقول الصدق.

- طيب عُد إلى مكانك. أشرح للمحكمه بالتفصيل عما تعرفونه عن المتهمين ودور كل منهم في المظاهرد.

- (نعم سيدي. كان جهازنا على علم مسبق بأن مظاهرةً ستخرج خلال النصف الثاني من شهر كانون الثاني. لقد أكدّت تقارير وكلائنا ذلك، بالأضافه إلى أننا كنا قد ضبطنا بعض المنشورات السريه المعاديه، كانت تحرّض الناس على التمرد والعصيان والقيام بالمظاهرات، بحجة الغاء الأحكام العرفيه، وأسقاط الوزاره وأطلاق سراح الموقوفين والسجناء السياسيين وغير ذلك من الأمور التي أعتادت تلك المنظمات الهدّامه ذكرها في مناشيرها بأستمرار.

خلال هذا الشهر، أي الشهر الماضي، خرجت مظاهرات مماثله في بغداد وبعض المدن في الوسط والجنوب، وكانت التعليمات الوارده الينا من المراجع العليا تشدّد على أتخاذ الأجرائات الأحتياطيه المقتضيه، ومراقبة المشبوهين، لذا فقد كان جهازنا في حالة إستنفار تام. لقد قدمنا للمحكمه الموقره كل المستمسكات والبيانات الثبوتيه عن المتهمين تفصيلاً).

- طيب أذكر لنا ماتعرفه عن كل متهم وبالتسلسل، ولكن بأختصار فأن وقت المحكمه ضيق وأمامنا دعاوى أخرى.

- سيدي أن هذا المتهم- مشيراً بيده إلى أزاد عبدالمجيد- كان وكلانا يراقبونه منذ مدّه، وكان له نشاطاً تحريضياً كبيراً سيما بين الطلبه، وقد كان أحد المحرضّين الرئيسيين، ممن نشطوا منذ مدّة للأعداد لهذه المظاهره شاهده وكلاتنا وهو يسير في مقدمة المظاهره، يهتف، يدعوا المارّه للأشتراك فيها، كما أنه خطب أمام نادي الموظفين، وعند تفريق المظاهره وألقاء القبض عليه، قاوم رجال الشرطه.. و..و.. وأسهب في سرد معلومات أخرى ضدّه.

كان الموقوفون قد أتعبهم الوقوف، وسرى الخدر في أرجلهم، ومسك بعضهم بحافة القفص الخشبي،يضع ثقله عليها، يجولون ببصرهم في ارجاء القاعه يوزعون النظرات بين الصوره الكبيره للملك فيصل الثاني الموضوعه في أطار مُذّهب، والمعلقه خلف هيئة المحكمه، وبين رئيس المحكمه وأعضائها. يستمعون بأنتباه إلى شهادة المعاون بديع ويرمقونه أحياناً بنظرات غاضبه.

وكان أزاد هو الأخر يرمقه، ويفكر في ذات نفسه:

(لست أدري لماذا تحقد عليّ إلى هذا الحدّ، لم أفعل شيئاً يؤذيك، بل لم يسبق معرفتي بك، لماذا أنت شرير إلى هذا الحدّ؟ .. مالذي تكسبه من وراء هذا الحقد، وهل يساوي كل ذلك لوثة الضمير هذه؟!.. لقد لمست منك هذا منذ ساعه توقيفي. رأيتك تصرخ في وجوه أفراد شرطتك أن كانوا قد قبضوا عليّ أم لا؟.. كنت تحثهم على ذلك. يالك من شيطان، لازلت أذكر كيف بانت الفرحه الغامره على ملامحك، حين صرخت في وجهكم. نعم أنا أزاد هو ذا أنا، أفعلوا ماتشاؤون.

قطع حبل تفكيره، صوت حادّ، رنَّ كالجرس في أذنيه:

- ماذا تقول ياأزاد عبدالمجيد بالشهاده التي أستمعت إليها؟

- إنه لا يقول الصدق.

قال ذلك وتفحص بنظراته ملامح رئيس المحكمه. أراد أن يستجلي في وجهه أثر جوابه. ولكنه رآه لايكترث لجوابه، حتى إنه لم يكلف نفسه عناء النظر إليه، وكأنه يعرف مسبقاً من أن ذلك سيكون الجواب المعتاد. لقد تعوّد رؤية المتهمين في هذا القفص وهم ينفون أقوال الشهود دون تردّد حتى وأن كانت موثقه أحياناً بالبيانات.

- أستمر يا معاون بديع وأكمل شهادتك على البقيه.

- نعم سيدي.

قال ذلك بديع، بعد أن رفع نظره إلى رئيس المحكمه، وقد حرص أن يبقى في حالة الأستعداد الدائم، ثم ألتفت نحو الموقوفين وأشار بيده نحوهم:

- (نعم أن حسين غالب، كان أيضاً من أشد المندفعين في المظاهره رأيته وأنا أقف في طرف من الشارع، يصرخ ملىء حنجرته، ويهتف بسقوط الحكومه، ويطعن في المسؤولين، وينادي بشعارات تتنافى وسياسة الدوله. رأيته يتصدّى لأفراد الشرطه، ويضربهم بالعصي واللكمات. أنظر ياسيدي الرئيس، إلى اللفافه البيضاء التي تشدّ جرح رأسه. نعم انه جرحه لم يلتئم بعد، أنه دليل واضح من انه كان داخل المعركه التي خاضوها ضدّ افرادنا.

نعم رأيته، ورأيت الباقين محمود ونافع وجمال و .. وظلّ يسرد أسمائهم واحداً بعد الأخر.

أما بشير فقد كان يتراكض كالعفريت وسط الشارع يهتف ويصفق).

أثارت أقوال المعاون بديع الأخيره. ذكريات قديمه. لدى أزاد، لم يعرف كيف قفزت إلى ذهنه، ثم ألتفت نحو بشير، حملق فيه، رآه غريب الشكل، بالزي الذي تبادله معه.

أنه الزي الكردي المصنوع من شعر الماعز، وكان قرمزي اللون، يبدو ضيقاً عليه، لأنه كان أكثر أكتنازاً منه. ثم لفّ (الجمداني) -لفة الرأس- بشكل عشوائي، تدلت بعض لفائفها على رقبته وكتفه. فضحك أزاد في داخله، ظهرت علائم الضحكه الدفينه على ملامحه، ثم شعر بنوع من الفخر والأعتزاز عندما ترامت في ذهنه صورته، وهو يعدوّ بأقصى سرعته في الشارع المزدحم بالمتظاهرين. كان ذلك قبل أكثر من سنه، حينما أندلعت المظاهرات ضدّ معاهدة پورتسموث، وتحولت شوارع مدينة اربيل إلى ميادين معارك حاميه مع أفراد الشرطه أنذاك لقد هزمت الشرطه المتظاهرين في البدايه، كانوا يتراكضون بهراواتهم خلفهم، استطاعوا أن ينتزعوا منهم بعض اللافتات. كان بشير يمرق كالسهم، وأنقضّ كالنسر على احد أفراد الشرطه، وأنتزع من بين يديه اللافته البيضاء التي لوثها الوحل. لقد كان الفصل شتاءً والشهر كانون الثاني كما في هذه السنه. ركض مع البقيه مسرعاً، حتى السراي، ثم رجع معهم وهو يحمل اللافته ملفوفه في عموديها الخشبيين، وهو يهتف ويصرخ، لم يلبث أن وجد من يحمل معه اللافته من جديد بعد أن أنتصر المتظاهرون، وظلّ يسير شامخ الرأس.

توقفت الصوره في ذهنه، كان المعاون بديع، مستمراً في الأدلاء بشهاداته وذكرالتفاصيل الدقيقه عن المتهمين، علت صيحات الغضب والأستنكار من قفص المتهمين، أنه لا يقول الصدق.. أنه يخترع

القصص ويلفق التهم.. أنه.. أنه..، ضرب رئيس المحكمه بمطرقته، وسط الطاوله عدة ضربات، طالباً السكوت.

بينما فكر أزاد مع نفسه وهو يحملق في المعاون بديع:

يالك من أفّاك، كنت اظن بأنك تكنّ لي فقط هذا الحقد الأسود، وها أجدك الأن، اصبحت الحقد بذاته، وكأن جميعنا قد أخذنا بخناقك يوماً ما. ماذا تظن نفسك، رئيساً للحكومه أم وزيراً للداخليه. أنك لست سوى معاون حقير، أجير رخيص، وإلا ماذا يهمك من سقوط الحكومه. إذ كلما أردت الأيقاع بأحدنا قلت:

سيدي الحاكم رأيته يهتف بسقوط الحكومه. كم تمنيت لو كان بمقدوري حشو فمك بالرماد. ضحك في داخله فجأه وقال مع نفسه. وكما يقولون شرّ البلية مايضحك. لقد تذكر في هذه اللحظه صورة الشرطي الذي كان يصرخ في وجهه.. ياأبن الكلب.. يا ابن العاهره.. حينما قذف الرماد الممزوج بمسحوق الفلفل في عينيه.. يا ترى لماذا لم يذكر المعاون بديع ذلك في شهادته، أيجوز أنه لم يراني، توقف قليلاً وقال في نفسه: (ولكنه قال اشياءً كثيره عني وعن الأخرين دون أن يرى ذلك بعينيه. أيا ابن.. لقد ترك ذلك للشرطي كي يقوله بنفسه. أليس من الجائز أن يكون واحداً من هؤلاء الذين رأيتهم في مدخل بناية المحكمه هو ذلك الشرطي؟!.. أنا لا أعرفه بالضبط وليس بوسعي تشخيصه، ولو جلس في جانبي بأحدى المقاهي لرحبت به ولأشتريت له استكاناً من الشاي الساخن. ثم أنني لا أكرهه، ولم أفعل ذلك بدافع الحقد، وقد أشعر بالأسى والحزن أن أصيبت أحدى عيناه بالعمى جراء حفنة الرماد التي قذفتها في وجهه. ولكني دافعت عن نفسي كما كان هو مكرهاً حينما قُذف به في الشارع ليؤدي واجبه في قمع المظاهره. أنا ايضاً غير مُلام، لقد رأيته يهاجمني، ولو لم أتنحى عنه قليلاً لضرب بهراوته جمجمتي بدلاً من كتفي اليمين ولسال الدم منه كزميلَيّ رشاد و حسين.. آه لقد أنقذتني حفنة الرماد من هراوته. توقف ثانية عن التفكير، ثم عاود الحديث مع نفسه:

لماذا ينبغي أن أفكر في كل هذا، ولماذا ينبغي عليّ أن أتأسف لأنني قذفته بالرماد، أو ليس هم يطلقون الرصاص على الناس، أم نسيت مافعلوا بنا ونحن اسرى عُزّل بين أيديهم. انها معركه. ولكن وللأسف انها غير متكافئه بيننا.

دوّى صوت رئيس المحكمه:

الشاهد التالي..

- اسمك وعملك.

- عمر عبدالجيد موظف جمارك سيدي.

- قل والله اقول الصدق.

- والله اقول الصدق.

- اذكر ما تعرفه عن أزاد عبدالجيد وبقية المتهمين عن كيفية اشتراكهم في المظاهره؟

- سيدي كنت منهمكاً في لعب الدومينو مع صديقٍ لي في نادي الموظفين وكانت الساعه في جوالي العاشرة صباحاً كان يوم جمعه، كما تعلمون أن الموظفين في المدن الصغيره لا يجدون مكاناً يقضون فيه الوقت سوى النادي. ترامت إلى سمعنا جلبةٌ وضوضاء وأصوات هتافات عاليه، خرجت مع الباقين إلى الحديقه الخلفيه، فوجدت جمهرةً كبيرةً من الناس يرددون الهتافات ضدّ الحكومه ويرفعون لافتات، فيها عبارات تحريضيه.

- ماذا كانت تلك العبارات.

- كانت بعيده لم أتبينها تماماً.

- لابأس.. لابأس، فاللافتات موجوده لدينا.

أشار رئيس المحكمه إلى مجموعه من اللافتات المتسخه الملفوفه حول أعمدتها الخشبيه موضوعه في ركن من القاعه.

- من شاهدت من هؤلاء.

قال ذلك رئيس المحكمه وقد أشار بيده إلى قفص المتهمين.

- أولهم أزاد عبدالجيد، شاهدته يخطب في المظاهره.

- هل لك أن تشخصه لنا؟ مَن مِن هؤلاء هو؟

جال ببصره في وجوه الموقوفين، ثم توقف قليلاً، وأحتار في التشخيص. أنه لا يعرف أزاد ولم يلتق به قطّ.

وبالرغم من أن المعاون كان قد وصفه له بدقه، إلا أنه لم يتذكر في هذه اللحظه وجهه، رغم انه يعرف بأن الخطيب كان يلبس (الرانكو چوغه) قرمزي اللون، عندما لمحه وراء سياج حديقة النادي.

ألتفت نحو المعاون بديع مستفهماً منه بنظراته، مَن مِن هؤلاء هو أزاد. أجابه بالنظرات وحركة حاجبيه، إلا أنه لم يفهم تماماً مايعنيه المعاون.

- لماذا توقفت.. ألم تقل بأنك رأيته وهو يخطب؟

- نعم سيدي.

- ماذا كان يلبس عندما شاهدته.

- زي كردي (رانكو چوغه) قرمزي اللون.

- أذن لماذا لا تتكلم؟

- سيدي لقد تذكرت أنه هو.. هو وأشار بأصابعه إلى بشير الثالث في الصف. ضحك بشير وضحك الباقون، وضحك معهم الجنود الحراس، دون أن يعرفوا السبب، بينما تضايق المعاون وظلَّ يقرقع بأصابعه ويرمق الشاهد بنظرات حادّة غاضبه، فيها العتاب والتقريع، وكان يقول في دخيلة نفسه:

- (يالك من غبي احمق ، لم ينفع معك كل ذلك التلقين).

تعالى صوت:

- أنا لست أزاد عبدالجيد ياسعادة رئيس الحكمه، أرأيت كيف يلفق الشهاده؟!

أقحم المعاون نفسه بالجواب دون أن يسأله أحد:

- سيدي الألتباس ناجم عن تبديل القيافه، لقد لبس كل من أزاد وبشير ملابس الأخر، نعم هذا الذي أربك الشاهد. ثم أشار بأصبعه إلى أزاد وكان يرتدي جاكيتاً أزرق اللون وبنطال رمادي.

- نعم.. نعم لقد تذكرت أنه هو الواقف في أول الصف لقد رأيته بعيني يخطب. أما الأخر رأيته أيضاً يصرخ و يهتف.

- سيدي الرئيس أعترض على هذا الأسلوب. ألا تلاحظ سعادتكم من أن الشاهد يُلَقّن ويُرشد الينا بصراحه وأمامكم؟! لقد رأيت بأم عيني عند دخولنا القاعه أن السيد بديع يؤشر بأصابعه ألينا ويدلّ الشهود علينا واحداً بعد الأخر. ثم أتساءل كيف يتسنى للشاهد تشخيصنا وهو الذي كان واقفاً على مسافةً بعيده وخلف سياج حديقة النادي وبين هذا الحشد الغفيرمن الناس، ثم أنه يقول من أن أزاد كان يلبس (رانكو چوغه) القرمزي اللون، وها أنا ارتدي بدله وجاكيت وبنطلون، وحتى إذا كنت مرتدياً رانكو چوغه القرمزي اللون، فأن غالبية الناس في مدينتنا يلبسون هذا الزي بألوانه الصفراء والخضراء والزرقاء والقرمزي أيضاً.

نُودي على الشهود الأخرين، كان معظمهم من رجال الشرطه ووكلاء الشعبه الخاصه، وقع معظمهم في مفارقات مضحكه عند مناقشتهم من قبل المتهمين، بالرغم من أن رئيس المحكمه لم يكن يأذن لهم بالكلام إلا لماماً، ولم يفسح المجال الكافي للدفاع عن أنفسهم وكثيراً ماكان يكتفي بالسؤال من المتهم:

- هل انت مذنب؟

فيجيبه المتهم:

- كلا لست مذنباً.

كانت أقوال الشهود ترّن في أذنّي أزاد، وتُحدث صدىً مؤذياً في أعماق نفسه، كان يشعر بأن حراباً حادّه تغرز في أحشائه تسبب له ألاماً ممزقه. شعر بالغضب ثم بالحقد نحوهم، و تمنى في هذه اللحظه لو أستطاع أن يثقب لسانهم ويدخل فيها خيوطاً غليظه، هو يدخل فيه حبلٍ متين، ليشدهم ويجرّهم به أذلاء، عقاباً لفعلتهم، مثلما فعل الأشوريون بالأسرى اليهود. وقال في نفسه: (لقد نصبوا لنا فخاخهم بأتقان ويبدو أن لاسبيل لنا للنجاة منها) ثم ظلّ يفكر.. إذا كان الأمر بهذه الصوره فالنهايه ستكون معروفه، أذن لماذا الأنكار، لماذا لا ندافع عن عمل قمنا به عن قناعه وإيمان، لماذا لا نحوّل الحاكمه إلى ساحه أُخرى للتحدي، لماذا لا نفضحهم، ونُظهر عوراتهم وقذاراتهم للملأ، لماذا لانقول لهم، نعم، لقد تظاهرنا وهتفنا، ونقذف في وجوههم ثانية كل شعاراتنا وكل عباره رددناها في المظاهره، نلقيها عليهم كقنابل محرقه، تشوّه وجوههم، وتصّم أذانهم. لماذا لانكون شجعاناً نقف في وجوههم كما فعلنا في الشارع، وكما فعلنا في الموقف. المعركه لم تنتهي بعد. ولكن سرعان ما قفز إلى ذهنه قول المحامي الموقوف (حسن هزاع).. لاسبيل امامكم غير الأنكار وقد لا تكون الدلائل كافيه لأدانة جميعكم، فيطلق سراح بعضكم او تخفف أحكامكم. من يدري لعّله هو المصيب. أنه أدرى بالقانون وسير المرافعات وأصولها في المحاكم. نحن لسنا سوى تلاميذ في اول الطريق لاشك أنه اكثر درايةً وخبرةً منّا. لقد قال مسؤول الموقف ايضاً مايشبه قوله، يارفاق نريدكم أن تكونوا بين الناس، بدلاًمن أن يقذف بكم بين جدران اربعه، لا تتنفسون إلا الهواء الفاسد. نريدكم أن تواصلوا نضالكم ببساله، فالمعركه مستمره بيننا وبينهم. قد تكون المعارك المقبله أشد عنفاً وقساوه.

آه .. تبدو الفكره معقوله، أنه سياسي قديم وذو تجربه ودرايه ايضاً، لا يُلقي الكلام على مواهنه. ثمّ مالفائده من الكلام الذي نقذفه في وجوههم. رئيس المحكمه.. الأعضاء.. الشهود، هؤلاء وهذا النفر المعدود في قاعة المحكمه. لقد تبلّدوا، أصبحوا حمقى، اغبياء، جميعهم يعرفون هذا الكلام، ولكن لم

يتأثروا به إلا سلباً. أصبح النظام في نظرهم ورغم كل عيوبه وشروره، هو الحقيقه المطلقه، هو الشيء الذي لا ينبغي مسّه، لذلك تراهم يدافعون عنه بكل ما يمتلكون من قوّه. أتريد إثارة حفيظتهم أكثر، ليصبحوا اكثر شراسةً وضراوه. لا..لا.. ليس من الحكمه ياأزاد أن ترمي بالحجه والدليل في يد الخصم كي يحاربوننا بها. انهم هم الذين يتمنون أن نّقر بذلك، فذلك أسهل وأهون لهم أنهم خصومنا الأن وأن لم يكن بيننا وبينهم أية عداوة سابقه. ولكن لن أنساكم بعد الأن، لن أنسى وجوهكم الملطخه بالعار يا أفّاكين.

قطع حبل تفكيره، صوت رئيس المحكمه وهو يعلن عن أستراحةٍ لغرض المداوله. ثم تركوا القاعه إلى الغرفه الخلفيه، وبعْد مدّه لم تتجاوز الربع ساعه، عادوا للجلوس على كراسيهم. دقّ رئيس المحكمه المنضده بمطرقته، و أعلن عن صدور الحكم بحق المتهمين:

- (عقدت المحكمه العرفيه العسكريه الأولى في بغداد والمأذونه بأسم صاحب الجلاله المفدّى الملك فيصل الثاني المعظم، جلستها بتأريخ العشرين من شهر أذار سنة ١٩٤٩ لمحاكمة المتهمين بتهمة التظاهر والأخلال بالأمن والنظام العام في مدينة أربيل والمحالين ألينا بكتاب الأدعاء العام المرقم () في العاشر من أذار المعطوف على كتاب مديرية الشرطه العامه المرقم(١٧٠٥) في الخامس والعشرين من شهر شباط من نفس هذه السنه وبعد الأستماع إلى لائحة الأتهام وشهادات الشهود والأطلاع على البيانات والمستمسكات الثبوتيه المقدمه إلى المحكمه، قررت الحكم على المتهمين الوارده أسمائهم أدناه بالعقوبات المذكوره أمام أسم كل واحد منهم وفق الفقرات... من قانون العقوبات وصدر القرار بأتفاق الأراء كالتالي:

لقد حكم على حسين ورشاد بالسجن لمدة ثلاث سنوات وحكم على أزاد وبشير ومحمود ونافع وجمال وسمكو وجبار لمدة سنتين والبقيه لمدة سنه واحده.

كانت هيئة المحكمه على وشك الأنصراف حينما تعالى صوت في القاعه:

- وأنا يا سيدي؟
- ما أسمك؟
- صدّيق مصطفى كشاف في البلديه سيدي.
- ألم يرد اسمك في القرار؟
- كلا سيدي.

- حملق فيه بأستغراب، ثم ألتفت إلى عضوي المحكمه، قلّبوا بعض الأوراق تشاوروا بهمس، ثم حدّق ثانيةً في المتهم، وظلّ ينقر على راحة يده بالقلم. كان المتهم يرتعش وجلاً، وقد أرتسم الشحوب على وجهه الأحمر ويبست شفتاه، وظلّ ينظر بعينين زائغتين إلى رئيس المحكمه، منتظراً قراره.

- أذهب. أنت أفراج.

لم يصدق أذنيه ماسمعه، وظلَّ واقفاً ينظر ببلاهه.

- لماذا تنظر إليّ هكذا ألم تسمع.. أفراج.

أنتفض من مكانه، وأرتسمت في الحال أبتسامه فرح على وجهه وصاح بفرح صبياني وبصوتٍ مرتعش:

- تحيا العداله.. تحيا العداله.

مدّ قبضة يده اليمنى إلى الأعلى وظلّ يهزها، عندما هتف. نظر زملاؤه إليه واجمين. لقد نسي من شدّة فرحه الأحمال الثقيله من السنين التي أُلقيت على كواهل زملائه في التو. وحينما أُخرجوا إلى خارج مبنى المحكمه بصق في وجهه نافع. كان صديقاً له، مراقباً في البلديه. وصاح فيه الأخرون صيحات غضب وأستهجان وقذفوه بشتائم معيبه. أصفّر وجهه، وارتعش جسده بعنف وقال بصوتٍ مرتجف:

- أعذروني.. اعذروني لقد هتفت دون إرادتي.. فلديّ زوجه واطفال صغار ليس لديهم من يطعمهم غيري.

-٨-

ما أن وقفت سيارة السجن التي كانت أشبه بقفصٍ حديدي، حتى نزلوا منها تباعاً، يحملون على أكتافهم أفرشتهم وحاجياتهم، ثم ألقوا بها أمام ألباب الحديدي الضخم، وقد تركزت أبصارهم على الحراس الذين كانوا يتجمعون هناك، أولئك الذين كانوا يرمقونهم أيضاً بنظرات لم يتبينوا منها سوى الفضول في البدايه، حيث تهافتوا على رئيس العرفاء والأفراد الذين أتوا بهم، موجهين لهم الأسئله والأستفسارات.. من هم ومن أي مدينه.. وكم مدة أحكامهم؟.. لم تلبث وأن تغيرت نظراتهم الفضوليه وأرتسمت إمارات اللامبالاة على ملامحهم. لقد كان هذا المشهد شيئاً طبيعياً أعتادوا عليه منذ زمن، لم يعد يثير في أعماقهم أية انفعالات نفسيه، أذ قلّما يمّر يوم دون أن يدخل من هذا الباب الكبير أعداداً من المحكومين الجُدد، إن كانوا محكومين من قبل الحاكم العرفيه العسكريه أو محاكم المدينه. لقد حفظوا أنواع التهم عن ظهر قلب وباتوا يعرفون من نوع التهمه عدد السنوات التي يحملونها على اكتافهم كي يقضوا بها في هذا السجن اللعين. بعد مراسيم التسليم والأستلام الروتينيه، غادرت السياره، ودخلوا هم إلى ساحة السجن الكبيره.

كان أزاد يتقدمهم وقد حملوا أمتعتهم وحوائجهم وحقائبهم بصعوبةٍ بالغه، والتي كانت تتدحرج من على أكتافهم أو تحت أذرعهم هاويةً إلى الأرض، مما كان يضطرهم لألتقاطها مجدداً. لمح مشهدهم بعض السجناء والمنهمكين في تنظيف الساحه، فهرعوا اليهم وكانوا خير عون لهم في نقلها إلى الفسحه الواقعه أمام غرفة مأمور السجن.

دخل رئيس العرفاء غرفة مأمور السجن، وبعد أن أدّى التحيه العسكريه قال:

- سيدي لقد جلبت الموقوفين الجدد، وهاهم ينتظرون أمام الباب. ثم ناوله مظروفاً يحتوي على بضعة أوراق. فضَّ الظرف وألقى نظرةً سريعة على الأوراق، ثم قرأ بصوتٍ خفيض أسماءهم، ورفع رأسه بعد ذلك وقال:

- ليدخلوا جميعاً.

وقبل أن يهمُّ رئيس العرفاء بالخروج أردف قائلاً:

- مهلاً سأخرج أنا أليهم.

تفحصً وجوههم مليّاً، وكانوا واقفين في صفٍ طويل وخلفهم حقائبهم وحاجياتهم، تعلقت أبـصارهم به. بدى وهو في بدلته العسكريه رشيق القوام، يحمل على ياقة سترته مـن الجـانبين ثلاثـة نجوم بيـضاء لّماعه، قرأ أسماءهم، وأجاب جميعهم بكلمة (نعم) ثم توجه أليهم قائلاً:

- أسمعوا بودي أن أحذركم مسبقاً، كي لاتتنزلقوا كالأخرين في تيار الفوضى وخرق أنظمة الـسجن. كما يفعله الأخرون ممن ستلتقون بهم بعد قليل، أرى في وجوهكم السذاجة، فأنتم شباب قليلي التجربه، وقرارات الحكم تشير بأنكم محكومين بسبب التظاهر ليس إلاّ، وقد يكـون بعـضكم بريئـاً او مغـرّراً بـه، أجعلوا من مدّة السجن فترة مراجعة للذات. السجين الذي يلتزم بالتعليمات وأنظمـة الـسجون سـيَلقى الرعايه من عندنا والاّ...

ثم حَكَّ ذقنه براحة يده وترجرجت أبتسامةً ذات معنى على شفتيه الرقيقتين وأردف قائلاً:

- سيجد نفسه في نقرة السلمان.

ثم ألتفت إلى رئيس العرفاء وقال له:

- أذهب بهم إلى المخزن.

وهناك تَسلم كل واحد منهم قميصاً وسروالاً من الجنفاص الرمادي اللون حسب مقاسات جـسمهم، ثم أقتيدوا إلى الحلاق الذي كان يقف وراء كرسي خشبي عتيق، يعبث بالماكنه بأصابعه، وفي أقـل مـن نصف ساعه، حلق رؤوسهم وأزال الشعر منها تماماً، نظروا إلى بعضهم الـبعض مليـاً، وتـضاحكوا، لم تلبث وأن أرتسمتْ علامـات الكآبـه القاسـيه علـى ملامحهـم. وفي هـذه الأثنـاء حـضر أحـد الـسجناء السياسيين على عجل وأتجه نحوهم بوجه باسم مشرق مليئ بالتفاءل والامل ومدّ يده إلى أحدهم وقال:

- أنا الرفيق موسى مـسؤول العلاقات مع إدارة السجن.

معذرةً لقد علمت بقدمكم في التـو، وهرعـت في الحـال لأسـتقبالكم. كيـف الحـال يارفـاق.. أهـلاً وسهلاً. وظلَّ يصافحهم واحداً بعد الأخر ويعانقهم. بعد ذلك حضر عدد أخر من السجناء الـسياسيين، وأسرعوا في حمل حقائبهم وحاجياتهم، بينما تابعوا المسير وراءهم، يتحدثون مـع مـرافقهم، وقـد بـدى الأنشراح واضحاً في وجوههم.

كان الـسجناء الـسياسيون، يذرعـون أرض الـساحه الـضيقه، المستطيلة الـشكل الواقعـه أمـام ردهـة واسعه وطويله، فُتح بابها الـضخم ذات القضبان الحديديه، وكانت الشمس ترسـل بأشعاعاتها الدافئه نحو الساحه، وجلس البعض الأخر القرفصاء يتحدثون مع بعضهم، أحاديـثٌ غـير مـسموعه. كـان بعـضهم

يرتدي ملابس (السجن) والبعض الأخر البيجاما، أو الدشداشه، وعددٌ منهم كان قد تأنق ولبس قميص مكوي مع البنطال، وحينما وصلوا الساحه تلك، دارت الوجوه نحوهم، وتقدم نحوهم الكثيرون، كانت الأيدي تتشابك مصافحة لهم، والشفاه تطبق على وجناتهم. كان اللقاء حاراً وودياً، كما يحصل بين حبيبين أو صديقين التقيا بعد أن باعد بينهما الزمن الطويل، أو كمن يستقبلون أبطالاً عادوا من سوح المعارك ظافرين. وفي لمح البصر أحتشد كل السجناء في الردهه، وقد علت وجوههم إمارات الصرامه، لم تلبث وأن أنطلق من حناجرهم دوي هائل أهتزت له أركان السجن كلّها. ينشدون وأياديهم تهتز هزّاتٍ عنيفة رتيبه، مع كل مقطع يخرج من أفواههم:

السجن ليس لنا نحن الأباة   السجن للمجرمين الطغاة

وبعد ذلك أنشدوا نشيداً أخر باللغة الكرديه:

أزادی خوای گەلین ئێمە   سوۆرەی پۆلاو نویژین ئێمە

لقد كان هذا النوع من الأستقبال شيئاً معتاداً عند مجيء كل نزيل جديد، حتى أصبح طقساً من الطقوس الجاريه لديهم. وبهد أنتهاء مراسيم الأستقبال هذه جلسوا على الفرش المبسوطه على الأرض، وأحاط بهم السجناء من كل جانب يمطرونهم بوابلٍ من الأسئله والأستفسارات، عن الأوضاع في خارج السجن , عن المظاهرات، عن اجراءات المحكمه، عن عدد السنين التي يحملونها على أكتافهم في رحلتهم الحاليه.

لمحوا من بينهم عدد من الأصدقاء القدامى من مدينتهم، تبادلوا كلمات الودّ والشوق معهم، شعروا فّي تلك اللحظات، بأحساسات فرح عميق، بالأمل يشع في أعماقهم، بالأطمئنان، والبهجه تملأ كل جوارحهم، وأزالت قلق اليأس الذي كان يأكل أعصابهم، لقد شحنتهم الروح الجماعيه، ودفقات الحماس المنبثقه من حناجر السجناء السياسيين، بفيض جديد من الشجاعه والأيمان بالمستقبل. الجو الحماسي المبهج الذي قوبلوا به، أزاح عنهم كل ذلك التعب والأرهاق وتوتر الأعصاب، التي جابهتهم منذ الصباح، وأثناء إجراءات الحاكمه القاسيه المله، و مشاهدها، و مواقف الشهود وشهاداتهم وأقوالهم التي كانت تحزّ في نفوسهم الألم والمراره.

- رفاق أنهم متعبون، والجوع ينهشهم، أفسحوا لهم مجال الراحه وتناول الطعام.

أنفّض السجناء من حولهم في الحال، دنى منهم الرفيق موسى بأبتسامتهِ المعهوده:

- تفضلوا رفاق.. إلى المائده.

في ركنٍ غير بعيد، كانت قطعة نايلون مستطيلة الشكل، صفراء اللون قد فرشت على الأرض، ووضعت فوقها عدة أواني من الألمنيوم والزجاج، مليئه بأصنافٍ مختلفه من الطعام.. رز، مرق، لحم، كباب، خضروات و أقراص الخبز.

أحاطوا بالسفره من الجانبين، وظلّوا يلتهمون الطعام بينهم، بينما كان موسى يرقبهم وهم يفرغون الأواني واحداً بعد الأخر.

- معذرةً يارفاق، لقد أعددنا لكم ذلك على عجل، عسى أن يكون قد أعجبكم.

- أنه طعام لذيذ.. لطعام شهي، أكلنا مليء بطوننا.

- شكراً لكم يا رفيق.

أنطلقت من أفواه معظمهم تلك ألعبارات.

- بالعافيه، سنحضر لكم الشاي في الحال، ولكن أعذرونا ستشربونه بالأقداح ليس بوسعنا أستعمال الأستكان، فكما ترون أن عددنا كبير، وعملية توزيع الشاي بالأستكان، متعبه و مضيعه للوقت، القدح الواحد يسع ثلاث أستكانات.. ستتعودون على ذلك بلا شك.

سكت قليلاً وهو يتفرس في وجوههم، ثم أردف قائلاً وعلى ثغره أبتسامته المعهوده:

- من المسؤول فيكم يارفاق؟

ألتفت السجناء الجدد نحو بعضهم، وتبادلوا النظرات.

- لم نختار أي مسؤول بيننا، ولكن لماذا؟

قال ذلك أزاد بأستغراب.

- معذرةً، أقصد من هو أكثر مسؤولية في الخارج. فالرفيق (مسؤول السجن) يود مقابلته لأغراض تتعلق بأمور ا

ألتنظيم.

- قال حسين، وهو يشير إلى أزاد بأصبعه، أنه أقدم منا مسؤوليةً فلقد كان قائد المظاهره.

- حسناً يا رفيق أزاد، لو ترافقني كي تقابله.

نهض أزاد من مكانه، وسار مع الرفيق موسى، ثم بدءا يصعدان الدرجات الكونكريتيه، للطابق الثاني من الردهه، وحينما وصلا إلى نهاية الدرج كاد رأسيهما يصطدمان بسقف البنايه، مما أضطرهما إلى أحناء قامتيهما ثم سارا في الفسحه الضيقه الطويله الواقعه بين صفوف الأفرشه

المرصوفه الملتصقه مع بعضها. توقفا في نهاية الردهه، وبالرغم من أن ضوء النهار خارج الردهه كان باهراً، ولكن ضوءً شاحباً، كان يضيء الطابق الثاني، مما أضطرهم لأشعال المصابيح الكهربائيه، المعلقه على طرفيّ الجدار.

- الرفيق أبو سلام.

قدّم السجين موسى لأزاد شخصاً طويل القامه، ذو وجهٍ طويل أسمر، أملط، لاحظ بعض الندوب المتناثره فيه، وقال مع نفسه، يبدو أنها آثار الجدري.

- اهلاً وسهلاً يارفيق أزاد.. كيف حال الرفاق الآخرين، لقد أبلغني الرفيق موسى من أنهم بخير أيضاً.

- انهم جميعاً بخير.

- حسناً يارفيق أزاد، أردت توضيح بعض الأمور، المتعلقه بتنظيم الحياة اليوميه لنا في السجن، كي تكونوا على بينةٍ منها، ومن ثم اطلب تقريراً عن الرفاق الآخرين، ومواقفهم طيلة مدة التوقيف والمحاكمه.

- ليست لي معلومات دقيقه عن أرتباطاتهم التنظيميه في الخارج، فالذي جمعنا لم يكن أكثر من المساهمه في المظاهره. أما مواقفهم أثناء المده التي رافقوني بها إلى يوم النطق بالحكم علينا، فكانت مدعاة للفخر والأعتزاز، إذ وقفوا بصلابةٍ وشجاعه نادرتين في كل مراحل التحقيق والمحاكمه، ولأجل أن تكّونوا فكرةً واضحه عنهم، أرى من الضروري حضورهم ولكي يكونوا على بينةٍ من التوجيهات. هذا أفضل منْ أن أتولى أنا تبليغها لهم.

ألتفت مسؤول السجن إلى موسى قائلاً:

- فكرته وجيهه، أنا ايضاً أميل إلى حضور باقي الرفاق، سنتحدث بالتفصيل عما يجب بحثه، ولربما يوجهون أسئلةً وأستفساراتٍ، تتطلب الأجابه.

- رأي صائب.. هل أذهب لأستدعائهم؟

- أجل..أجل، هذا ماأراد.

نهضّ موسى في الحال، وعاد بعد برهةً قليله، ومعه الأخرون من زملاء أزاد.

نهضَ المسؤول لأستقبالهم. وظلَّ يسدّد اليهم بعينيه الصغيرتين الغائرتين في محجريهما نظراتٍ حادّه، فاحصه، ثم مدَّ يده اليمنى، وصافحهم واحداً بعد الأخر، بينما كانت إبتسامةً عريضه، قد أرتسمت على شفتيه الدقيقتين،.. أهلاً.. أهلاً..أهلاً وسهلاً.

ثم جلس، وجلس الباقون، وأحاطوه كالحلقه، وهم يشخصون بأبصارهم نحوه.

- مرةً أخرى أرحب بكم يارفاق.

ظلَّ يستجمع في ذهنه الكلمات والعبارات، التي يوّد قولها لهم. وفي الواقع فأن هذا الأمر لم يكن عسيراً عليه. لقد أعتاد منذ الأشهر الثلاثه التي وطأت قدماه أرض - السجن- وتحمل بعدها بأيام مسؤولية التنظيم، بأعتباره كان أقدم المحكومين مسؤوليةً في الخارج و ممن تميز موقفه بالصلابه في التحقيق، من أن يستقبل جموع المحكومين الجدد الذين كانوا يفدون بأستمرار، يتحدث معهم، ويلقي بتوجيهاته التظيميه والسياسيه عليهم، حتى أكتسب مراناً جيداً في هذا المضمار.

- رفاق.. لم أكن أتمنى أن التقي بكم في هذا المكان، فمكاننا الطبيعي نحن الطلائع الواعيه هو بين شعبنا، نشاركه آلامه و أفراحه، نناضل من أجل مستقبل نيّر مشّرف لنا ولأجيالنا ألاحقه.. من أجل أن ترفرف رايات الحريه، والأستقلال الوطني في ربوع وطننا و على قمم جباله الشمّاء وروابي سهوله الفسيحه، ولكن ما يبهج قلبي ويبعث السرور في نفسي، من أنكم جئتم إلى هنا مرفوعي الرأس، وكنتم فعلاً مع شعبكم وقضيته العادله، التي لا أشك في أنتصاراها عاجلاً أم أجلاً. أن الحكام الذين أرتبطت مصالحهم بالأستعمار، لم يتركوا وسيلةً إلا وأستعملوها ضدّنا. لقد أبتدعوا شتى الوسائل في محاربتنا، من فصلنا من وظائفنا وأعمالنا وكلياتنا ومدارسنا إلى تشريد وحرمان من أبسط الحقوق إلى السجون والمعتقلات والتعذيب. ينبغي أن تعلموا أيها الرفاق من أنهم يفعلون كل هذا ضدّنا، ليلقوا بالرعب والفزع في قلوبنا، ولينالوا من عزائمنا، كي نركع في النهايه لهم مستسلمين تاركين الساحه لهم يفعلون بشعبنا مايشاؤون و ليكسبوا الأموال على حساب حرمانه وشقائه. أذن فالمهمه الأن ونحن بين جدران أربع، هي أن لا نجعل أحلامهم تتحقق.. أن نشحذ هممنا، ونستمر في التحلي بالروح الثوريه، نرفع من معنوياتنا، ولا نجعل من الكسل وخمول السجن، يتحولان إلى طبقة سميكه من الصدأ تغلف أجسامنا ونفوسنا، فتصليب الذات، وتعويده على المصاعب، وتحمل الألام والمصائب، من الأمور الهامه والأساسيه للمناضل الذي لايرتضي لنفسه التخلف عن نضال شعبه، ولا

أظن من أنكم تجهلون هذه الحقائق، ولذلك فأنني سوف لن أطيل الكلام في هذا المجال، سوى أنني لايسعني إلا التأكيد مرةً أخرى على المحافضه على روحكم الثوريه التي دفعتكم في حومة النضال.

وفي هذه الأثناء جاء أحد السجناء يحمل صينيه، وضعت فوقها أقداح الشاي بعدد الجالسين، تتصاعد منها خيوط من البخار بينما توقف هو عن الكلام، وأشعل سيكارةً بعود ثقاب، وأخذ منها نفساً عميقاً، بينما قال أزاد، وهو يلتفت إلى حامل الصينيه.

- لقد شربنا قبل قليل.

- لا بأس.. لابأس، فأنكم متعبون، والشاي ينعشكم.

ثم أردف المسؤول قائلاً:

- ولأجل المحافظه على الروح الثوريه، كان من الضروري أن يقيم السجناء تنظيمهم داخل السجن، وبالطبع فأن هذا التنظيم لم يكن له علاقه بقيادة نضال الجماهير وتعبئتها، إلا أنه يقويّ الروابط الرفاقيه، ويفرز في نفوسنا الروح الجماعيه، ويجعلنا كتلةً صلده أمام محاولات الأعداء للنيل من عزائمنا. أن السجين عندما يبقى وحيداً لفترةً طويله، بعيداً، مغلوباً على أمره بين جدرانٍ اربع، سيكون عرضةً للهواجس، والأفكار السوداء، وقد يتسرب اليأس وخيبة الأمل إلى نفسه، وقد ينهار في النهايه ويصبح نفايةً تضّر ولا تنفع، لذلك أن الروح الجماعيه هي التي تنفث العزيمه والشجاعه والصلابه في النفوس، ولقد أدرك خصومنا هذه الحقيقه جيداً، وفي هذا يكمن سرّ فزعهم وخوفهم من تنظيمنا هذا. لقد حاولوا مافي وسعهم من إمكانيات لتفكيك روابطنا هذه. تارةً بالتهديد والوعيد، وتارةً بأغراء البعض، وتارةً أخرى بنقل البارزين إلى المعتقلات النائيه، كنقرة السلمان وغيرها. وبالمقابل فنحن متمسكون تمسكاً مبدئياً بالتنظيم وبالروح الجماعيه، مهما زادت الضغوط وكثرت المحاولات لتشتيت شملنا. قد يصيب اليأس البعض منا وقد تخور عزائمهم ويجنون، وتغزو أفكارهم أوهام البرجوازيه الصغيره من الأنانيه وحب الذات أو التردد والخوف والذعر أحياناً من هجمات الأعداء، أو قد يستسلم البعض و يبوح بأسرار للعدّو ويخون، فليس أمامنا من سبيل سوى بتر هؤلاء من جسدنا والقائهم خارج تنظيمنا، لأن بقائهم في صفوفنا فيه الضرر البالغ لقضيتنا و يؤثر سلبياً في نفوس الباقين.

توقف برهةً وأشار بيده إلى الجناح المقابل في الطابق الأعلى من القاعه:

- وهكذا أعتدنا أن نرمي أمثال هؤلاء إلى ذلك المستنقع. لدينا لجنة التنظيم الرئيسيه، والتي مهمتها الأشراف على تنظيم حياة الرفاق وإدارة شؤونهم وحلّ مشاكلهم اليومية، ورسم السياسه وواجب أتباعها تجاه إدارة السجن، وهي مكونه من الرفاق المؤهلين والمتقدمين في النضال. وهناك لجان فرعيه أخرى، كالجنه الثقافيه، التي مهمتها أصدار النشره الثقافيه، وأعداد المحاضرات لألقائها في الأجتماعات أو الندوات الثقافيه، وهناك لجنه تشرف على الأمور الأقتصاديه و إستلام الأرزاق من إدارة السجن، والأشراف على المطبخ. كما أن الواجبات موزعه على الرفاق بصورة دوريه، والأعمال اليوميه من الكنس وتنظيف القاعه إلى أعداد الشاي، تقوم بها فرق عمل يوميه. وعلى أية حال، سوف ترون واقع الحال بأعينكم وستتعودون على نمط الحياة هذا بعد فترةٍ وجيزه.

ثم قال ضاحكاً:

- سوف لن يصلكم دور العمل إلا بعد اسبوع أو أكثر، لقد أعتدنا أن نعطي الرفاق الجدد فرصةً للراحه والتعارف مع الرفاق الأخرين، والتعود على حياة السجن.

قال موسى مؤيداً:

- أنهم ضيوفنا لأسبوع وبعده... .

- كلا.. فنحن مستعدون للعمل أعتباراً من يوم غد.

بعد ذلك، تحدث أزاد، حديثاً مقتضباً، عبّر فيه عن أمتنانه وشكره، للعواطف الجياشه والأستقبال الحار الذي لقيه ورفاقه منهم، وأثنى على الأراء والتوجيهات القيّمه التي سمعوها من الرفيق المسؤول وأكدّ حرصه وحرص رفاقه وزملائه، للتمسك بالتنظيم، وتدعيم العلاقات الرفاقيه، والبقاء أوفياء لقضية الشعب العادله مهما كلفهم ذلك من التضحيات.

ثم سأل الأخرون، اسألةً مختلفه، تتعلق بتخصيص أماكن لنومهم، وحقائبهم وحاجياتهم، وكيفية أستلام الطعام وغير ذلك من الأمور التي تهمهم.

- سيدلكم الرفيق موسى على الرفيق المشرف على الأمور الأداريه، وسيخصص لكل رفيق مكانه المعين، أما بالنسبه للطعام، فستوزعون على الحلقات الأخرى، بعد ذلك نهض الضيوف، وأنصرفوا، يتقدمهم موسى، لم يمض إلا وقت قصير، حتى عرف كل واحد منهم المكان الذي يفرش فيه فراشه على الأرض ملتصقاً بزملائه السابقين له، وقد وضعوا حقائبهم التي تحوي حاجياتهم الضروريه في نهاية أفرشتهم، أما الحاجيات الأضافيه، فقد سُلّمَت إلى المخزن، الذي لم يكن سوى ركن صغير ضمن القاعه، خُصص لهذا الغرض و تكومت فيه حقائب وحاجيات السجناء.

كان صوت جهوري حاد يمتزج بطرقات قويه لعصاً، تدق الباب الحديـدي الـضخم، للقاعـه الكـبيره، دقاتٍ رتيبة متواصله:

- أنهضوا يارفاق أنهضوا.. لقد حان الوقت.

نهض السجناء من أفرشتهم مسرعين وهم يلقون بالبطانيات جانباً، بينما كان الـبعض يتثائـب في موضعه، ويفرك جفنيه، ويحرك ذراعيه، كمن يريد أن يطرد النعاس من عينيه، وفي لمح البصر، خرجـوا من الردهه، أندفعوا نحو الساحه الترابيه المواجهه لها وبدأو يـصطفون جنبـاً إلى جنـب، كجنـود جـاءوا للتدريب.

كان (أزاد عبدالمجيد) لايزال مستلقياً في فراشه، بالرغم من أن أصوات الضوضاء والـصخب وذلـك الصوت الجهوري الذي صك سمعه، و أيقظه من نومه، إلا أنه كان يشعر بثقل، يضغط عليه، يشلّه عـن الحركه والنهوض، لم يدري فيما اذا كان السبب هو قلّة نومه في الليله الماضيه جراء الأرق الـذي أصـابه أم هو الكسل الذي بدء يحس به، بعد أن قضى هذه المده قابعاً بين جدران المواقف والسجن، قليل الحركه والنشاط لاينتظره واجب، أو دراسه مُلزِمه،فسيطرت عليه سـطوة النـوم، وشـدته كالمغنـاطيس، ليظّـل متمدداً في فراشه، مستمتعاً بأحلامه التي تبعده عن ضجر وكآبة النفس الحبيسه.

حسَ بدعكة قويه في كتفه:

- لماذا لاتنهض يارفيق؟!.. هل أنت مريض؟!

وحينما ألقى بحافة البطانيـه الـتي تغطـي رأسـه، وفـتح عينيـه. وجـده كالمعتـاد بقامتـه القـصيره المربوعه، ورأسه المدورالقليل الشعر، المحلوق بعنايه، ووجهه الأسمر الغير مكتنز والضارب في حمرة قانيه، رأى عيناه الصغيرتان تطلقان نحوه نظرات حاده ثاقبـه، وكأنمـا تقـول لـه بلهجـه جـاده وصـارمه.. لمـاذا لاتنهض أيها الزائر الجديد، لقد أعفيناك لمدة أسبوع من هذه المهمه، ألم تشبع من الراحه، أنهض فهـذا مفيد، لأزالة الصدأ عن جسدك، أمامك اليوم بطوله لتغرق في بحر الكسل المقرف.

- كلا لست مريضاً، إنما أشعر بتعب وأنحلال.

- ولكن لا نعفي أحداً إلا بموافقة الطبيب المختص.. يمكنك أن تراجعه.

- كلا لا داعي لذلك.

- أذن أنهض.. أسرع الحق بالأخرين، فالرياضه الصباحيه الدواء الناجع لحالتك.

تركه (مشرف الرياضه) ودار على الأعداد الباقيه، ممن كانوا يغطون في نومهم، ثم تركهم وأندفع من الباب، بقفزاتٍ سريعه، رغم أن السلاسل الحديديه كانت ترتبط بقيدٍ حديدي في رجليه، إلا أنه كان قد ربطها بحزام جلدي، أحاط ببطنه، وشدّها بأحكام، بحيث لا تعيقه عن الحركه.

نهض (أزاد) من فراشه، نزع ملابسه، ولم يبق عليه، سوى ملابسه الداخليه، وخرج يتثاقل، جال ببصره في أرجاء الساحه المستطيله، التي يرتفع في جهتها الغربيه، جدار طويل عالٍ، لايصل البصر إلى نهايته إلا بعد ان يعمد المرء الى رفع رأسه إلى الأعلى، وفي الجهه الشماليه الجنوبيه، كان الجدار بنفس العلو ولكنه كان، قصيراً، كالضلع الأصفر المستطيل، رفع بصره إلى نهاية الجدار، وجد الحارس القابع في برجه المبني بالطابوق، ينظر بعينيه المتعبتين اللتين أرهقهما السهاد الطويل، إلى الجموع المتراصه في الساحه.. كان الفجر على وشك أن تزينه الأشعاعات الذهبيه لشمس نيسان، الذي حلّ يومه الأول، تطلّع إلى السماء، كانت صافيه، زرقاء، لا أثر للسحب في الفسحه التي تغطي السجن، لم يكن بأمكانه رؤية الأفق، فالجدران العاليه، كانت تحدّ من مدى بصره، لم يستمتع بمنظر الشفق الجميل في الأفق البعيد، تراصف مع البقيه، كان بجسده معهم، عيناه كانتا معلقتين بمشرف الرياضه، ينتظر إيعازاته بالبدء بالتمارين الرياضيه. ولكنه لم يعلم لماذا قفزت خيالاته، وحلقت فوق أسوار السجن، كطائر السنونو، ليذهب بعيداً وبعيداً، لتحط على أغصان أشجار الرمان والتفاح في حدائق قريته القابعه على سفح جبل، لم تذب بعدُ ثلوج شعابه الطويله والعميقه، البراعم أصبحت ووروداً زاهيه الألوان، وتحولت بعضها إلى ثمرٍ صغيرلم ينضج بعد، التلال الترابيه والصخريه، أكتست بطبقةٍ من عشبٍ أخضر، الزنابق والياسمين، والورود الحمراء، والبنفسج، تنتشر في كل مكان، تبعث بأريجها وعطورها إلى كل الجوانب (آه ما أجمل فصل الربيع في قريتي) تذكر الصباحات الباكره التي كان ينهض فيها عندما كان صبياً، يتسلل إلى الحديقه الصغيره المجاوره لبيتهم الطيني، ويخترق السياج الشوكي المحيط بها. ليقطف باقه من الورد الأشرفي المعّطر، أنه الأن لا يستطيع وصف أحاسيسه، أو مدى الفرحه الغامره التي كانت تدخل قلبه الصغير، عندما كان يظفر بها، يشم رائحتها العطره، كان كالسارق الذي وقع على كنز.. يقفز من السياج كالسنجاب وفي يده باقة الورد، ثم يركض ويقف على حافة الجدول، القريب من بركة (قوّتهله) بين أشجار الجنار والجوز، التي تتمايل أغصانها على هبّات النسيم

الصباحيه، وتمتزج خشخشة أوراقها الخضراء، بخرير مياه الجداول، الزاحفه من عيون الجبال المحيطه بالقريه وتغريدة البلابل والطيور التي تغني بفرح لا يضاهيه فرح بقدوم الربيع، فصل أنبعاث الحياة، والبهجه والحب.. أنه كان هو الأخر يبحث عن الحب، وأذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا أذن كان يحمل باقة الورد العطرة في يده، وفي هذا الصباح الباكر؟.. ينتظر من؟! كان ينتظر (زيرين) محبوبته الصغيره الفاتنه، ذات العيون الخضراء والوجه الأبيض المدور الملائكي الذي يشع نوراً، تحيط به هالةٌ من شعر شبيه بشعاع الشمس.. ينتظرها هنا كل صباح، عندما تمّر في هذا المكان، تسوق عدداً من صغار الماعز والأغنام، للرعي، يقف أمامها كالصنم، يحملق في جمالها ومفاتنها، يسبح في الشعاع الدافق من عينيها، يغرق ولو برهةً قصيره من الوقت، في بحر عميق من الأحاسيس الدافئه، العذبه، الغريبه، التي لا يستطيع أن يصفها لأنها كانت كالسحر.. يقّدم لها باقة الورد تلك، بينما قلبه يكاد يقفز من موضعه، و دقاته كانت، كدقات الطبل الصاخبه في حفلات الأعراس في قريته، تضحك هي بغنج، بينما يعتريه الخجل، وتصطبغ وجنتاه بحمرةٍ قانيه، يتراجع للوراء، ثم يذهب مسرعاً دون أن ينطق بحرفٍ واحد معها، ليعود إلى البيت ويدس نفسه في فراشه من جديد.. لقد كان أول حبّ يقع فيه، ولكنه كان حباً لم يعهده لا قبلاً ولا بعد ذلك، فقد كان شيئاً أشبه بالسحر عاش في أجوانه مدةً قصيره من الزمن، لم يلمسها، ولم يكلمها إلا عبارات قليله ولكنها خجوله.. لم يفعل معها شيئاً، غير تقديم باقات الورد الأشرفي اليها كل صباح،.. لكن، ثم كل ذلك فقد كان حباً ترك ذكراه في قلبه، وصورتها ظلّت محببه في نفسه، لم تبرح مخيلته حتى في أصعب أوقاته.

دوى صوت مشرف الرياضه، فجفل من مكانه، وأنقطع حبل ذكرياته. رفاق تهيأ.. أسترح.. أستعد.. عادةً سر.. يس..يم يس، يم... هرول.

كانت الأقدام تدق دقاتها الرتيبه المتواصله على الأرض الترابيه المتصلبه، يختلط وقعها بصرير السلاسل الحديديه التي كانت تتدلى من الأحزمه الجلديه الملتصقه حول الرجال المحكومين بالأشغال الشاقه والمشدوده بحلقتين مدورتين كانتا تقيدان رجليّ السجين.. صفّان طويلان من الرجال يذرعان صباح كل يوم، الأرض الموزايه للجدران العاليه، راكضين لمرات ومرات. أندفع معهم بتثاقل، كان لايزال يحسّ بنفس التعب والأعياء عندما نهض من فراشه. لم يكن يحب الرياضه ابداً، كم من المرات تخلفّ عن درس الرياضه عندما كان طالباً صغيراً، قفزت إلى ذهنه صور تلك الأيام، حينما كان يتراكض مع طلاب صفه في ساحة المدرسه الترابيه بلباسه الأبيض القصير وفانيلته البيضاء. يأخذه التعب قبل غيره،

يحسُّ بأنفاسه تنقطع، وبألم ممضّ ينتشر في الشعبات الهوائيه لرئتيه، يتخلف عن أقرانه، لم يلبث وأن يتهاوى على الأرض، ويظلّ مغمياً عليه لبرهةٍ من الوقت. ولكنه لم يعد الأن ذلك الصبي الصغير، نظر إلى ساعديه ثم إلى ساقيه العاريتين، وتحسس براحة يده صدره أيضاً.. طبقه كثيفه من شعر أسود فاحم تغطي أجزاء كبيره من جسده، لقد تجاوز الثامنه عشره من عمره ولكن مظهره يدل على أنه تجاوز الخامسه والعشرين، إذن لامجال لتكرار محاولة التهرب من الرياضه. لقد أصبحت ضروريه، كالغذاء اليومي لجسده، وإلا لقتله الخمول والكسل، سنتان كاملتان يقضيها بين هذه الجدران.. أكمل دورته الثانيه فالثالثه فالرابعه، شعر بالنشاط يدبّ في جسده، تلاشى الأعياء الذي كان يحسّه قبلاً، ألتفت إلى رفاقه الأخرين. شعر في تلك اللحظه بأنه في ساحه سباق، صمّم في داخله بأن يكون هو الفائز، تضاعف حماسه وأزداد نشاطه، رأى بينهم من هم أكبر منه سناً، خط الشيب رؤوس البعض منهم، ولربما لبعضهم اولاد كبار، ها أنهم يلهثون منذ الأن، لهم الحق في ذلك، أحمالهم ثقيله، آ، أنا أحسن حظاً منهم، ولكن من الذي يقول من أنهم سيقضون هذه الأيام الطويله هنا ؟!. ألتفت إلى زملائه الذين جاءوا إلى هنا معه، كان بعضهم يبتسم، والأخر يضحك، خمّن من أن سبب ضحكهم هو أحساسهم من أنهم رجعوا طلاباً صغار، ولربما قفز إلى ذهنهم مثله، صور الطفوله والصبا في أيام الدراسه.. ولكن مهلاً مابال الأخرين، أنور الحداد، يونس العطار و.. آ لربما وجدوا في الأمر غرابه.

حينما أعطى مشرف الرياضه إيعازه بالتوقف عن الركض، كانت حبات العرق قد تحولت إلى جداول صغيره تجري في خطوط متعرجه من تحت الصدغين والرقبه والأبطين، لجميع الراكضين، إلا أن نسمات الهواء الربيعيه التي كانت تهبّ بين الحين والأخر، تبعث برودةً ملذّه وأنتعاشاً مثيراً في أجسادهم، كانوا يتسابقون في نفخ صدورهم بأكبر كميه من هذا الهواء الصباحي المنعش، على صوت المشرف وهو يردد شهيق.. زفير..شهيق.. زفير.

ثم أصدر المشرف إيعازه بالبدء بالتمارين الرياضيه السويديه، وبعدها ابتدء المارش العسكري، وأخذ السجناء يدورون في أطراف الساحه، بخُطى سريعه، ومنتظمه، ويهزون أيديهم إلى الأمام والخلف، كالجنود في ساحة العرض، ثم تعالت أصواتهم وأمتزجت، وأصبحت دويّاً هائلاً، تردّد صداها جدران الغرف والقاعات الكثيرد للسجن، تخترق سكون الصباح الباكر وهدونه، يحمله الهواء إلى الشارع العام في باب المعظم فتصيب بأستغراب وفضول الباعه المتجولين، والسواق، والحراس، والعمال الذين كانوا

يتراكضون نحو أعمالهم. ينظر حراس الأسوار بفضول أيضاً إلى مشهدهم الذي إعتادوه، بينما كان مأمور السجن يقف بعيداً في الساحه المقابله بقضم شفتيه غيضاً.

كان هذا الدويّ، هو النشيد الصباحي الذي كان السجناء ينشدونه، بعد الرياضه:

السجن ليس لنا نحن الأباة　　　السجن للمجرمين الطغاة

ولكننا سنصمد.. نصمد　　　وأنا لنا مستقبلاً سيخلد.. سيخلد

ثم كانوا يتبعونه بنشيد (ئازادی خوای کەلین تێمە شوورەی پۆلاّ ویەندین تێمە) باللغه الكرديه.

لم يكن أزاد قد حفظ كلمات النشيد بعد، ولكنه ردّد معهم بعض المقاطع التي تمكن من حفظها بفعل التكرار، ولكن أحساساً غريباً مشوياً بالقلق كان ينتابه، ينبأه من أن هذا التحدي.. قد يوقعهم في مأزق يكلفهم الشيء الكثير من العذاب.. ولكنه كان يعود ليسأل نفسه (ولكن لم القلق؟ أنهم أكثر خبرةً ودرايةً و لابّد أنهم قد حسبوا لكل شيء حسابه الخاص).

كانت تلك الصور لاتزال تدور في رأسه، عندما كان ثورياً يافعاً مندفعاً يرى في أقتحام المخاطر لذةّ، يرى نفسه في أحلام يقظته، خطيباً بليغاً، مليئاً بالحماس، وسط هتاف وتصفيق الحشود الكبيره من الجماهير، أو مقاتلاً جريئاً وجسوراً يتسلق شعاب الجبال، مع الأخرين يتحدى الأعداء، يستعرض في ذهنه صور وحياة معظم القاده الثوريين الكبار في العالم، ممن تعرّف عليهم خلال قراءاته الكثيره لسير حياتهم، هؤلاء الذين فعلوا الشيء المتميز والغير معتاد لشعوبهم، وكم كان يتمنى لو أستطاع أن يقتدي بهم ويفعل مافعلوه، كان أحساس ما ينبأه بأنه سيكون شيئاً ما في يوم من الأيام، لأن ما يعتمل في داخله، ويتصارع، يتعدى الهموم اليوميه لطالب، ينصّب أهتمامه في حفظ الدروس المدرسيه وأستيعابها، أنه يفكر..ويفكر و بشيء أكبر وأعظم، (قد أصل إليه، أو قد أسقط في منتصف الطريق بشكل من الأشكال، من يدري؟!)..

ولكنه لازال قليل التجربه والدرايه بهذا الطريق المحفوف بالمخاطر، وبالرغم من أن الصور الأسطوريه لمن كانوا في مركز الصداره والقياده في الحركه الثوريه، بدأت تهتز في مخيلته، بعد أن رأى بعضهم خلال الأيام الماضيه القليله في هذا السجن، أو سمع ماسمع عنهم، من قصص وحكايات كانت تروى عن السن القادمين، الناجين، من غرف وسراديب دائرة التحقيقات الجنائيه، ممن أثقلت المحاكم كواهلهم بأحمال من السنين الشاقه، لكن لا زال أسيرذلك الأعتقاد من أن هؤلاء القاده، يحملون في رؤوسهم عقولاً متميزه، وأنهم قادرين من أن يَخرجوا و يُخرجوا الأخرين من هذه المحنه. ألتفت على

ثقل كفٍ يربت على كتفه، رأى الضحكه العاليـه تُـزين وجهـه الطويـل، وعينـاه الواسـعتان تتفحصان ملامحه.

- هل أنهكك التعب يارفيق أزاد؟

أجابه بأبتسامه:

- أنا؟ أبداً.. ابداً، لم أصبح هرماً مثلك بعد يا (دلزار) كي الهث من التعب هكذا.

- أتعلم، اليوم هو يوم المقابله؟

- أجل أعرف ذلك.

- وهل تنتظر أحداً يزورك؟

- لست أدري تماماً.

أتجها نحو المغسله، وأنتظر برهةً من الوقت، إلى أن جاء دورهما في الأغتسال. كانت غرفـة ضيقه ثبتت فيها عدد من الحنفيات، كان السجناء يغسلون فيها ملابسهم ويستحمون فيها أيضاً.

قال دلزار: أما أنا فلا أحد سيزورني في هذا الشهر فقد جائت زوجتي مع أخي في الشهر الماضي، وضحك ثانيةً وقال:

- إذا لم تجد احداً في زيارتك، نقضي فترة المواجهه معاً، نقضيها في التمشي، فأنـا مشتاق لحديث طويل معك، أيرضيك هذا؟

- بالتأكيد، ولكن علينا الأسراع، فرفاق السُفره ينتظروننا دون شك.

في الساعه العاشره كان موعد اللقاء مع الأهل والأحبّه. أصطف السجناء في السـاحه، وكـأنهم في ساحة عـرض، وقـد حـرص الجميـع مـن أن يظهـروا في أجمـل صـوره.. حلقـوا ذقـونهم، رشـوا وجـوههم بالكولونيا، والـذي لم يكـن يمتلكهـا يـستعيرها مـن زميلـه، مـشطوا شـعور رؤوسـهم بعنايـه، أرتـدوا القمصان النظيفه، أحذيتهم كانت تلمع، فمنذ يومين وهم يتهيأون لهذا اليوم، وفي رؤوسـهم تـدور آلاف الخـواطر والـذكريات، ولربمـا هيـأوا مـسبقاً الجمـل والعبـارات الرقيقـه والجياشـه ليقولونهـا لـذويهم، وليزودوهم بدفقات الصبر والطمأنينه على مصائرهم وليخففوا عـنهم الـصور الكالحـه، المملـؤة بعـذاب النفس، الذي أعتادوا عليه بين جدران السجن، يخفوا في طيات إبتساماتهم، القلق الدفين الـذي يعتمـل في نفوسهم، تحسباً لأحداث مجهوله، وصدمات قاسيه مليئه بالألام قد تـصيبهم في الأيـام اللاحقـه.. ان عالم السجون، عالم رهيب مليء بالأسرار والمفاجئـات. كانـت إدارة الـسجن قـد وضعت نظامـاً دقيقاً

للمقابلات الشهريه، وهو حصيلة خبرة وتجارب السنين الطويله، ونتاج القلق الدائم على مصائر السجناء أمنين في اقبيتهم ، لا يراود أذهانهم فكرة أجتياز الأسوار العاليه، ومئات الحواجز والصعاب التي وضعت بعنايه أمام من تدور في رأسه فكرة الأنطلاق، والتحرر من هذه المدينه الصغيره، التي يتعالى فيها صرير السلاسل والقيود، وتضج بالحركه الدائمه منذ أول خيوط الفجر وحتى المساء.

ولكي يجتازوا الحاجز الموضوع أمامهم و ينطلقوا إلى الساحه الكبيره الواسعه لابّد وأن يتولى احد السجانين، ختم معاصمهم بختم السجن المخصص للمقابلات، ويتولى أخرون تفتيشهم بعنايه، حتى قصاصة ورق صغيره قد يُعثر عليها في جيب أحدهم، تتعرض لفحص وقراءه دقيقه، وبالمقابل فأن الناس الذي أتوا للمقابله والذين تجمعوا امام الباب الحديدي الكبيرمنذ الصباح الباكر، تُفتش بدقه الأمتعه والحاجيات التي أتوا بها من ملابس أو قمصان وبيجامات، حتى القدور وسلال الفواكه وعلب الحلويات، ومن ثم يدخلون إلى الساحه التي تتم فيها مقابلتهم للسجناء.

أن خشيتهم من منشور سري، أو مطبوع محظور، لهو أعظم وأكبر من تسّريب سكين أو آله جارحه للسجن، فلمقابلة السجناء السياسيين، تعليمات خاصه وأكثر تشدداً من التعليمات المطبقه لمواجهة السجناء العاديين!

العوائل التي أنتشرت على شكل مجموعات في أرجاء الساحه، فرشت على الأرض مفرشاً صغيراً، جلسوا عليها، وقد صفوا الحاجيات التي أتو بها أمامهم، ما أن يدخل السجناء الباحه حتى ينهض الجميع وعيونهم تحملق بقلق وشوق إلى طابور السجناء، الذين يندفعون نحوهم، اباء، أمهات، أخوات، أخوان، أقارب، أطفال كل عائله تبحث عن حبيبها المأسور، وحينما يلتقون به، يبدأ العناق الطويل، وتتدفق الدموع من المآقي، نشيج النساء وبكائهن، وآهاتهمن تحرق القلوب، من السجناء من يستطيع لجم عواطفه، وكبت صوت البكاء في أعماقه والتظاهر بأبتسامه مترجرجه أو ضحكه مصطنعه، يصحبها كلمات التشجيع التي أعدها مسبقاً، ومنهم من لايستطيع فعل ذلك، فتتفجر دموعه من مآقيه دون أرادته.. مدة المقابله ساعتان و خلالها ينبغي أن يصرف الجميع، كل العواطف والأحاسيس والأشواق والكلام، الذي أختزنوه، وهم يدركون من أن شهراً كاملاً لايستطيعون فيه الظفر حتى بأبتسامة قصيره منهم، ولربما بعضهم لايستطيع المجيء لأشهر، اولئك الذين يقطنون أقاصي الشمال أو الجنوب ممن لايمتلكون نفقات السفر والمقابله!.. ولذلك الكل يريد ويتسابق في أن يفرغ من جعبته كلّ ما لديه من الكلمات التي تعبرعن أحاسيس الشوق ومكنونات القلب، موجات الحديث،

وصراخ الأطفال، ونشيج النساء تتحول إلى صخب وضوضاء تملأ أرجاء الساحه. والسجانون بهراواتهم الغليضه يجوبون أرجاء الساحه، ويحرسون مداخلها بيقظه وحذر، بينما وضعت أعدادٌ إضافيه منهم على حافات الأسوار العاليه للسجن، وقد تدلّت بنادقهم من أكتافهم، يحملقون في الساحه بفضول، ثم لايلبث حتى ويواصلون الرواح، جيئة وذهاباً.

تفحص أزاد بنظراته أرجاء الساحه، وهو يحملق في الوجوه طويلاً، وبدأ يذرع الأرض، جيئةً وذهاباً، لعّل عيناه تقع على والده أو عليْ أحد يهمه مصيره ولكنه لم يجد أحداً، جاء خصيصاً لمقابلته، شعر دون أرادته بألم يحزّ في نفسه، هذه أول تجربه يخوضها في هذا المضمار، أول مقابله يحضرها، لم يكن يشعر بأحاسيس الغربه قبل ومن المؤكد، إنه كان يخمَّن في قرارة نفسه منذ الصباح أو ربما قبل يوم أيضاً من أن أحداً لن ياتي لزيارته البته هذه المره.. فوالده الساكن في قرية نائيه في الشمال، يشك من إنه قد علم بالخبر، وأمرأة أبيه، لايظن حتى مستقبلاً أن تكلف نفسها وتقطع هذه المسافات الشاسعه، لمقابلته.. زينب هذه الفتاة التي أغرورقت عيونها بالدموع عندما لمحته من بعيد، وهو يحشر في سيارة الموقف وينقل إلى بغداد، لايزال يتذكر منظرها الذي أفزعه، كيف تستطيع أن تأتي لوحدها من الذي يدلّها؟ أخوها الطالب في دار المعلمين، يدرس في مدينة أخرى، بعيده عن مدينتهم، ومن المحتمل أنه هو الأخر لا يعرف بالخبر..أخوته؟! انهم صغار.. (عندما يكبرون هل ستبقى أحاسيس الريبه والخوف التي زرعتها امهم في قلوبهم؟!).. من يدري؟ تذكر في هذه اللحظه، ذلك الموقف، وذلك الكلام الذي سمعه منها وهي تلقن أبنها البكر! .. (أنه ليس بأخيكم!).

ظلَّ يذرع أرض الساحه، يحملق في الوجوه، وأحساسات غامضه تؤلمه.. (أما كان من الأفضل لو بقيت في الردهه ولم أخرج مادمت أعلم من أن أحداً سوف لن يأتي لزيارتي؟!). قطع حبل تفكيره صوت يناديه:

- رفيق أزاد ألا تجلس معنا؟

حينما ألتفت وجد (حسين الرسام) ذلك الشاب الأسمر الطويل، النحيف الجسم ينظر إليه و أبتسامة مشرقه من وجهه النحيف الأسمر، وقد جلس القرفصاء أمام فتاةٍ سمراءٍ نحيله. توجه نحوهما، وصافح الفتاه، التي أشرقت وجهها إبتسامة عذبه، ونظرات مفعمه بالمودّه تدفقت من عينيها السوداوين الواسعتين.. أهلاً وسهلاً يارفيق.

تدخل حسين في الكلام.. رفيق أزاد.. أقدم لك بهيجه خطيبتي، لولا سجني لكنا متزوجين منذ أشهر. جلس عندهما قليلاً قشرت الفتاة برتقالةً وأعطتها له، بعد دقائق نهض من مكانه ورأى من الأصلح لو يتركهما ماداما خطيبين. بعد ذلك دُعي للجلوس، مع عوائل بعض زملائه من أبناء مدينته، وأستمع إلى تفاصيل الأحداث الجاريه بعد أعتقاله، و صدى المظاهره بين الناس، وعرف ايضاً من أن مدير المدرسه، قد أصدر أمر فصلهم، هو وبعض من زملائه الطلبه، في اليوم التالي من توقيفهم، ودون إنتظار ما تتمخض عنه المحاكمه، دوّت أصوات السجانين هنا وهناك، تعلن أنتهاء المقابله، نهض الجميع، كانت مشاهد الوداع، مؤثره على النفس، ألتقى أزاد بدلزار الذي أوضح له بأنه الأخر قد أنشغل بالحديث مع بعض المعارف، وقد حمّلهم بعض توصياته وطلباته إلى أخيه المعلم وزوجته.

ضحك أزاد وقال:

- حسناً أذن، كنت أظن إنك تعاتبني، لأننا لم ننفذ خطة التمشي معاً وسرد ذكريات الماضي!

- لا..لا أطمأن سوف لن أعاتبك فأيام السجن طويله، تكفي لنعيد ونكرر ذكرياتنا مئات المرات!

حينما عادوا إلى ردهتهم، كانت الساعه قد تجاوزت الثانيه عشره ظهراً، وتكومت القدور والأواني والسلال المليئه بالأطعمه والفواكه في الداخل، سلمت جميعها إلى المخزن، تؤكل بعضها وتوزع على السفرات لوجبتي الظهر والمساء، وتبقى البقيه الممكن حفظها وخزنها , للأيام التاليه، أما الملابس والبيجامات والحاجيات فهي الأخرى تسلم إلى المخزن، لتوزع على الجميع حسب الحاجه والضروره.. هكذا كانت العاده، وكان النظام المتبع عندهم، أنها (أشتراكية السجن) التي كان البعض يتذمر من تطبيقها في البدايه، ويجد صعوبه في أن يلبس الأخرون القميص أو البيجاما التي جلبتها له عائلته، ولكن الحياة الجماعيه المتواصله، التي كانت ضروريه في السجن كضرورة الهواء للرئتين، كفيله في أن تصهر النفوس، وتجبرها على تعلم عادات لم تكن مألوفه لديها.

في الساعه الواحده ظهراً جلس مع رفقاء سفرته الخمسه، يتناولون غدائهم الشهّي، في الواحده والنصف، كانت أصوات صخب وجلبه خارج الردهه ,كانوا مجموعة جديده قذفتها المحاكم إلى السجن. كانت أرجل بعضهم تقيدها السلاسل والقيود، هؤلاء الذين حُكموا بالأشغال الشاقه، وكُتب عليهم أن يحملوا أثقال الحديد طوال السنوات التي يقضونها في السجن، إذ بلغت محكوميات البعض منهم عشرون سنه. ما أن وطأت أقدامهم مدخل الردهه، حتى ونهض الجميع ودوى صوت النشيد كالمعتاد،

نشيد الأمميه ثم (السجن ليس لنا.. السجن للمجرمين الطغاة) ثم أعقبه، هتافات وصخب، يسقط.. يسقط.. يعيش.. يعيش. ثم قوبلوا بالأعناق والقبلات، وهُيأت لهم سفرةٌ عامرة بصنوف الأطعمه، كان حظهم حسناً، إذ صادف مجيئهم يوم المقابله، وأن كان هذا الأمر قد سبب لهم بعض المتاعب، فقبل موعد المقابله بربع ساعه أوصلتهم سيارات السجن المقفوله إلى الباب السجن الخارجي، وبعد إنتهاء أجرائات أستلامهم وتسلم أوراق محكومياتهم، ووضع القيود والسلاسل في أرجل بعضهم، وتسليمهم ملابس السجن الرسميه، حُجزوا في أحدى أركان السجن ريثما تنتهي المقابله.

كان هذا اليوم، يوماً مثيراً، مليناً بالأخبار والحكايات الجديده.. منها ماجلبها اليهم الزوار، ومنها يرويها لهم الضيوف الجدد، وهي تكفي لليوم وللأيام المقبله، أن يُشغلوا بها.

مرّت الأيام ببطء شديد، لم تعد الأحاسيس المثيره كأولى الأيام، تخلف لدى ازاد حالةٌ من التوتر واليقظه، بدأ يعتاد على الحياة الروتينيه المملة، وتمخض في أعماقه ذلك الأحساس المؤلم بالقلق، الناجم عن الشعور الدائم بالأنعزال عن العالم الخارجي، والأحساس المثير بأنه سجين حقاً، كالطير المأسور يرى الفضاء الواسع الرحب الذي يتطلع اليه من وراء فتحات قضبان ذلك القفص اللعين، لقد أصبح العالم الخارجي لديه مجرد ذكريات، وصور ومشاهد باهته تترامى أحياناً في مخيلته، أو أحلاماً تغزوه في منامه ويقظته، إنه يفكر ويتأمل، ويعيد صور الماضي ألف مره في ذاكرته، يتلذذ بالمفرح والبهيج منها، ويتألم ويشعر بالمراره، للقاتم والكئيب منها، ولكنه وكلما يمر يوم يزداد فطنه وذكاء، يحلل تجارب الماضي بعين بصيره، يحاول أستخلاص التجارب والخبره على قدر فهمه لها، يدقق فيما يجري حوله و مايسمعه ويشاهده من صور وأحداث، يدفعه الفضول وحبّ المعرفه، من أن يلاحق جميع المشاكل السياسيه والقضايا التي كانت تشغل فكره. يجلس مع القادمين الجدد من المواقف، والمحاكم، وسراديب التحقيقات، يستمع إلى قصصهم وحكاياتهم بأذان مرهفه، يجمع المعلومات، والأخبار عن كل فرد يعيش معه في هذا السجن، فلكل واحد منهم قصّة معينه. تجري الأيام على وتيرة واحده، في الصباح الباكر يهرع الجميع إلى الرياضه، فالمارش والنشيد التقليدي، ثم الفطور في مجموعات، ثم الأنشغال بالمطالعه، أو باداء الواجبات العامه المخصصه لكل واحد، من كنس وتنظيف، وأعداد الأكل وغسل الصحون، وأحياناً أستقبال المحكومين الجدد بالنشيد والهتاف، أو توديع جماعه نقلوا إلى أحدى السجون النائيه، أو حضور حلقات التثقيف السياسي. وهكذا تتكرر الأيام. في الأشهر الأربعه الماضيه، أستطاع أن يتعرف على جميع السجناء الأخرين الذين يقاسمونه العيش بين جدران الردهه الطويله والعريضه ذات الطابقين، المسماة بالفرن، فعدا المشاركه اليوميه في كل مايتصل بمعيشتهم اليوميه، فأن أحساس المصير المشترك، كان يتعمق في نفوسهم، وتتعزز مشاعر الزماله، وروابط الفكر، والنضال من أجل الأهداف التي أمنوا بها يوماً بعد أخر. العيون القلقه تتفحص هذه الوجوه التي تتقابل ليل نهار، وتقرأ فيها كل خلجات النفس الدفينه، التي ترتسم عليها، لاترى فيها اي أثر لكبت عواطف وأحساسات لا يريدون البوح بها، ليست هنالك من مصالح متناقضه، تجعلهم يختلفون عليها، لقد دفعتهم قضيه واحده إلى هذا المصير، وماعليهم إلا أن يغرزوا في نفوسهم الأيمان والصبر والثقه

بالمستقبل. لقد حوكموا وأنتهى، ولابّد لكل واحد منهم أن ينتظر، قضاء الأيام، و إلى أن تنتهي مدة محكوميته يكيف حياته وفق معايير هذا العالم الفقير، وحينما يخرج سيقرر أنذاك إن كان في مقدوره، أستئناف المسيره، ومواصلة طريق التحّدي أم لا؟ ويبدوا أن البعض منهم قد حسم هذا الأمر منذ الأن ولم يعد يفكر بهذا الطريق، فقد أنهار في أولى أيام التحقيق وأستسلم وباح بكل ماكان يعرفه من أسرار النضال، ومع ذلك فالحاكم لم ترحمه وقذفت به إلى هذا المصير، كالأخرين الذين وقفوا وقفة التحدي. البعض من هؤلاء وضعهم التنظيم السجني في خانة الخونه والمنهارين لذا فأنهم لم يجدوا لهم مكاناً بين السجناء السياسيين، وأنعزلوا في قسم معّين، يعيشون على أنفراد، أو يتفق أثنان أو ثلاثةً منهم، لتدبير الأمور المعاشيه اليوميه. والبعض الأخر، تسهل له الأداره الأمر وتخصص له مكاناً في أحدى ردهات السجناء العادين، ولكن هناك من يسمح لهم العيش داخل التنظيم، والعيش مع البقيه على قدم المساواة، ممن كانت مواقفهم ضعيفه، أو كانت أعترافاتهم محدوده، لم تلحق الضرر البالغ أو جاءت مؤيده لأعترافات وردت عليهم، ولكن لايسمح لهم حضور الأجتماعات التنظيميه، والأطلاع على الشؤون الخفيّه، المتعلقه بالداخل والخارج.

كان بالأمكان ملاحظة الكآبه المرتسمه على وجوههم، وحالات الشرود الذهني والتفكير العميق، الذين كانا يعكسان حالة القلق والتوتر النفسي لديهم، والشعور بعقدة الذنب، والقلق تجاه نظرات البعض المستهجنه نحوهم، أو التعليقات المرّه التي كانت تطرق أسماعهم.

كانت الأمسيات من الأوقات المتعه لديهم، حيث كانوا ينهضون من قيلولة الظهر وبعد الأغتسال، يتوزعون على شكل حلقات ويجلسون القرفصاء بموازاة الحائط ويحمل بعضهم صواني معدنيه تحوي أقداح الشاي الساخنه فيحتسوها بلذه، ويشعل المدخن سيكارته، ثم يسحب دخانها بينهم و يقذفه بقوة من بين شفتيه. نادراً ما يُعرض السجين عن التدخين، حتى أولئك الذين ممن لم يدخنوا قط، بعد فترة يجد السيكاره بين أصابعه يتصاعد منها الدخان. أزاد هو الأخر تعّود التدخين وكان يستلم حصته اليوميه، عشرة سكاير صباح كل يوم. السكاير هي الأخرى كانت مقننه، وتوزع من قبل المسؤول المعني، والكميات التي تصل من المقابلات تسّلم مباشرة للمخزن وعند الحاجه تشترى الكميات المطلوبه بواسطة المتعهد، وتخزن، لتوزع عند الضرورة. وبعد الأنتهاء من شرب الشاي يبدء المشي والدوران في أرجاء الساحه، كل أثنين أو ثلاثه، معاً، يذرعون أرض الساحه لساعة أو ساعتين يثرثرون في مواضيعٍ شتى، في ذكريات وأحداث حياتهم الشخصيه، مناقشاتٍ فكريةً ونظريه، تعبيق

على موضوع كتاب قرأوه، أو على أحداث السياسه اليوميه. وبعد العشاء أيضاً، كان التمشي هو العاده المفضله لدى الأكثريه، وكانوا يزاولونها بأنتظام. ومع المواضيع الجادّه، كانت هناك أحاديث شيقه، ونكات طريفه، تنتزع البسمه والضحكه المجلجله من الأفواه، ...ذات مرّة سأل (حمه بكر) وهو مغني ذو صوت عذب، زميله (محمد صالح) وهو رجل بدين منتفخ الوجه، كان قد حكم عليه لأشتراكه في مظاهره بمدينة السليمانيه:

- قل لي ياحمه صالح، أنت قصاب أليس كذلك؟

أجابه ضاحكاً:- لماذا؟ ألاتعرف ذلك؟

- نعم أعرفك جيداً ولكنني أردت أن أسالك سؤالاً معيناً هل تجاوبني بصراحه؟

- بالطبع ولم لا.

- كم من السنين حكمت عليك المحكمه العسكريه؟

- سنتان بالتمام والكمال ألم تكن تعرف ذلك؟

- بلى، ولكنني أريد أن أستدرجك إلى سؤال أخر أكثر أهميه.

- وما هو؟!

- قل لي ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟.. أعني عندما يملك الشعب زمام أمره؟.

توقف الرجل برهة، وظلَّ يفكّر، فقد كان السؤال مفاجئةً له.

ثم قال والأبتسامه على وجهه:

-آ..: سأكون قصّاباً حراً.

ظلّ صاحبه يضحك حتى أمتلأت مآقيه بالدمع، وألتفت أليه مجموعه من السجناء كانت تقف بالقرب منهم، ثم قال:

- أ لأجل أن تكون قصّاباً حراً تقضي سنتين في السجن؟.. يالك من غبي، ..لماذا؟!.. ألم تكن قصاباً حراً قبل سجنك.

فكّر حمه صالح قليلاً. وأطلق هو الأخر ضحكةً قويه وقال هازئاً:

- وأنت ماذا تريد أن تكون؟! هل تكون مغنياً حراً أم ماذا؟! ألم تكن تنعق كالحمار في الحفلات، وهل أستطاع أحد أن يغلق فمك؟! أمن اجل هذا تقضي سنةً كامله في السجن؟!

ضحك الجميع وهتفوا..أحسنت، لقد ردّ له الصاع صاعين.

- ولكن مهلاً، المغني غير القصاب،.. سأرضى بنصيبي من أن أكون مغنياً حراً، سوف أغني لوطني، وأتغزل به، كيفما أشاء ودون خوف أو وجل، وسيصفق الناس لي طويلاً، ويرددون معي أغنياتي، ويداهمني الشعور من أنني كبير.. كبير في عيون الناس أفهمتم؟..

حُشر أحدهم في الحوار وقال:

- سيتعلم محمد صالح القراءه والكتابه، وسيعرف أشياء وأشياء كثيره في السجن، فسنعلمه ما أستطعنا معرفته، عندما يتحرر الوطن، يحتاج إليه قصاباً، ويحتاج إليه وهو ذلك الأنسان الأخر الذي ولد من جديد.

صفق الأخرون.. براڤو.. براڤو، نهايه رائعه لهذا الحوار.

هكذا كانت الأمور تجري خلال الأشهر الأربعه الماضيه. ولكن في هذا اليوم حدث مالم يكن في الحسبان. لم يكن النهار قد أنتصف بعد، ولكن قرص شمس آب، ظلّ يقذف بحممه اللاهبه في الساحه الصغيره، وكان معظم السجناء قد حشروا أنفسهم في الردهه، هرباً من الحر، منهم من يطالع في كتاب أو يقرأ في أحدى الصّحف اليوميه التي تصلهم بأستمرار، وبعضهم مشغول بلعبة الشطرنج، والبعض الأخر منهمكين في نقاشات، الأجتماعات الدوريه، التي تنعقد يومياً حسب المواعيد التي يحددها مسؤول الحلقه، وأخرون منهمكون في أداء الواجبات الموكوله اليهم. أعضاء اللجنه المشرفه على المطبخ، ذهبوا قبل ساعة لأستلام الأرزاق، ومراقبة أمور المطبخ، فالسجناء السياسيون، يتولون بأنفسهم الأشراف على أمور الطبخ وأعداد الطعام، فبالأضافه إلى الطباخين ومساعديهم من الذين وفرتهم إدارة السجن من السجناء العاديين، فأن بعضاً منهم، ممن يجيد فن الطبخ قد يتبرع للقيام بهذه المهمه، سيما للأكلات الخاصه، التي يرغبون بها أو للحفلات التي يقيمونها لبعض المناسبات الوطنيه والخاصه. ترامى إلى سمعهم أصوات جلبه وضوضاء من الخارج، ثم وقع أقدام لم يلبث و أن ظهر حارس ضخم الجثه، يطرق باب الردهه بعصاه، ويصرخ بأعلى صوته أخرجوا.. أخرجوا.. الصابون .. تعالوا أستلموا الصابون! أنتفض السجناء من أماكنهم، وسيطر عليهم الوجوم لأول وهله، لقد عرفوا بأحساسهم، من أن الأمر قد لايتعلق بأستلام الصابون، إذ لم يسبق وأن نادى السجانون عليهم لهذا الأمر. الصابون، كبقية الأرزاق تُستلم من قبل اللجنه المختصه أو من قبل ممثليهم، ومن ثم يسلم إلى المخزن كالعاده ويستلم كل سجين حاجته عند الأغتسال أو عند غسل ملابسه. لم يكُف الحارس عن الصراخ وعن قرع الباب إلا بعد أن خرج الجميع إلى الساحه. لقد ذهبوا حينما وجدوا صفين من الحراس

يقفون بموازاة الحائط وفي أيديهم الدونكيات والعصي الغليظه، وكان منظرهم يدل بوضوح من أنهم أستقدموا لتنفيذ مهمه عاجله. وعلى الأبراج وأسوار السجن العاليه، وعلى السطوح، كانت هنالك أعداد غفيره أخرى منهم، وفي أيديهم البنادق، وقد لفّوا على خصرهم شرائط الرصاص، يحملقون في الساحه، بنظرات حادّة، صارمه، يبدوا أنهم يعرفون تماماً المهمه التي أوكلت أليهم. وسط الساحه كان يقف المأمور (فوزي) ببدلته الرسميه منتفخ الأوداج، دافعاً كرشه المنفوخ إلى الأمام بخيلاء، تتدفق من عينيه الصغيرتين، نظرات صارمه، حاده فيها العجرفه والعنجهيه، كان واضحاً من أنه جاء لتنفيذ أمر هام. قال بصوته الجهوري، كمن يصدر أمراً:

- ليصطف جميعكم في صفين متوازيين في هذه الجهه.

تردد السجناء باديء الأمر في الأذعان لهذا الأمر، وتعلقت أبصارهم لبرهة من الوقت بصفوف الحراس، الذين كانوا في أتم الأستعداد ثم حملقوا في عيني المأمور اللتين تقدحان الشرر، وتطلعوا بأبصارهم إلى حراس الأسوار العاليه، كل شيء يدل من أنهم مقبلون على معركه أعدّت لها إدارة السجن بعنايه، وأتخذت لها كل الترتيبات اللازمه. تعالى الهمس بينهم، كان السؤال الذي يرتسم على الوجوه، وتتناقله الأفواه، هو مالذي يجب أن نفعله؟!

- مالذي تنتظرونه.. هيا؟

تزاحف السجناء نحو الحائط بخطىً ثقيله، وأصطفوا في صفين طويلين أمام المأمور و قد أرتسمت على وجوههم إمارات أندهاشٍ كبير. أخرج ورقةً طويلةً من الأضباره التي كان يحملها، وظلّ يقرأ بسرعه قائمةً طويلةً من الأسماء، وما أن بلغ النهايه قال بوجه عابس:

- كلّ من ورد أسمه في القائمه، يهيء أمتعته حالاً ودون أبطاء.. هيا أمامكم خمسة عشر دقيقه فقط.

سادت فتره وجوم مالبث وأن أنطلقت الأصوات من الحناجر، وتعالى الصخب والضجيج:

- لماذا هكذا؟! .. وإلى أين ستذهبون بنا؟

- لاداعي للثرثره فأنتم منقولون.

- ولكن لماذا هكذا؟.. أما كان بأمكانكم أخبارنا قبل أسبوع، أو أعطائنا مهلة أيام لكي نخبر ذوينا بالأمر؟

- قلت لكم هيّا.. أسرعوا والا أصدرت أيعازي إلى.. وقد أشار بأصبعه مزهواً إلى صفيّ الحراس الذين كانوا في أتم الأستعداد.

صرخ أحدهم:

- ولكن إلى أين؟.. ألا تقولون لنا إلى أين؟

- عندما تنهب السيارات بكم الأرض وتغوصون في أعماق الصحراء، أنذاك ستعرفون إلى أين؟

ألتفت المأمور إلى رئيس عرفاء السجن، ذلك الرجل البدين الذي شاع صيته في السجن، كنموذج لسّجانٍ سُلبَ منه الضمير، وغمز له بطرف عينيه، لم يلبث وأن أوعز هو الآخر إلى عدد من السّجانين، الذين أنطلقوا من الصّف، يهرولون بأتجاه السجناء، ويهزون العصا الغليظه في أيديهم ويصرخون كمن بهم مَسّ من الجنون:

هيا..هيا..بسرعه.. بسرعه.

وأنطلقت أعداداً أخرى، وقفوا كالسور أمام مدخل الردهه، بينما دخل قسم أخر منهم، قبل السجناء المنقولين، ووقفوا يراقبون عملية حزم الأمتعه والحقائب الشخصيه. ولم يمر أكثر من ربع ساعه حتى وأقتيدوا، وكان عددهم يربوا على العشرين، حاملين أمتعتهم على أكتافهم وبأيديهم. ودعوا زملائهم بصمت وعلى وجوههم الصارمه إمارات القلق الدفين. بينما رفع السجناء الباقون قبضات أيديهم في الهواء، يهزونها بعنف، وأنطلق هدير عارم من الحناجر، يهّز أركان السجن هزاً، كانت الوسيله الوحيده التي يستطيعون التعبير من خلالها عن المشاعر والأحاسيس التي تغلي كمرجل القاطره في نفوسهم، في هذه اللحظات. وهكذا دوّى النشيد المحبب لنفوسهم (السجن ليس لنا نحن الأباة.. السجن للمجرمين الطغاة).

وكانت القبضات، تهتز بشكل لا إرادي وسريع، وهي تضرب الهواء بعنف عندما كانوا يرددون هذا المقطع ويكررونه: ولكننا سنصمد.. سنصمد، وأن لنا مستقبلاً سيخلد..يخلد).

زمجر رئيس العرفاء (شمخي) وقد جحظت عيناه من الغضب:

- ماهذا الهراء؟.. أصمتوا لم نعد قادرين على تحمل هذا الزعيق ولكن المأمور (فوزي) أشار إليه بالهدوء، وقد غمغم مع نفسه بضع كلمات، ولكنها كانت مسموعه للجميع.

- اهدأ ياشمخي، .. أهدأ لدقائق فقط، وسيرون كيف سنخيط شفاههم كي لا تنطلق منها بعد الأن حتى كلمةً واحده، تخدش أسماعنا.. مهلة دقائق ريثما تتحرك السيارات خارج السجن وسيرون..

ظنَ السجناء أن الأمر قد أنتهى، أرادوا الأنتشار والعوده إلى الردهه أو إلى واجباتهم، سيما وأن موعد الغداء قد قرب، ولكن ما ان تحرّك البعض من مكانه. حتى أصدر المأمور (فوزي) زعيقه:

- إلى اين؟ .. وهل تظنون أن الأمر قد أنتهى هكذا.. وببساطه؟.. حرس تجمع.. أسترح.. أستاعد.

عاد السجناء إلى أماكنهم وقد أصطفوا في صفين متوازيين من جديد، ووقف (أزاد) في الصف الأول، يحملق في جسد المأمور المربوع، وقد وضع يده اليمنى في جيب بنطاله الخاكي، وهو يذرع أرض الساحه الواقعه أمامهم جيئاً وذهاباً، ويرفع رأسه من على رقبته الغليظه القصيره بخيلاء ويحدج السجناء بنظرات، كانت تنطلق من عينيه اللتين تلتمعان ببريق غريب، يختلط فيها الحقد بالكبرياء، وفجأة أرتسمت على شفتيه الغليظتين الرماديتين إبتسامةٍ ماكره، مليئه بالخبث، لم تلبث وأن أنطفأت بعد لحظات، وتقلصت عضلات وجهه، وضاقت حدقتا عينيه وبرزت الندوب التي كانت تملأ وجهه، وظهرت خطوط متوازيه على جبينه المقطب وقال بصوت مرتفع:

- حسناً. لقد رأيتم بأم أعينكم، زملائكم الذين أنتزعناهم من بين صفوفكم.. كانوا إلى يوم أمس يحرّضونكم، ويخططون لكم أشياء لم تكن تروق لنا ابداً، كنتم تعتقدون بأننا غافلون عما تفعلونه، وأننا سوف نصمت إلى الأخير على حالة الفوضى التي نشرتموها في السجن.. أنني اسألكم وأستحلفكم بحق السماء، وأجيبوني بصراحةٍ ودون مواربه هل سمعتم بروضة أطفال، كانت تجري فيها أمورٌ كما هي الحال في هذا السجن؟ أنكم تفعلون مايروق لكم، غير مبالين بأنظمة السجن وتعليماته، غير مكترثين بأوامر إدارة السجن وسجانيه.. ماذا هل أنتم حكومه؟ .. هل أصابت عقلكم لوثه؟.. إذا كانت الحكومه لاتسمح لكم بالعمل السياسي المشروع وأنتم طلقاء، إذا كانت تحظر على الناس مبادئكم وأفكاركم، و تنقض كالنسور على أعشاشكم المكشوفه، وتخترق أسوار أوكاركم ومخابئكم المقامه تحت الأرض بعنايه ودقة، فكيف تعقلون من إنها تغض الطرف على ماتفعلونه هنا، وأنتم مأسورون لاحول ولاقود لكم.

سكت قليلاً.. وجال ببصره نحو الحراس، كمن يستطلع أستعدادهم، ثم وجهّ نظرات حاده إليهم، يتفحص وجوههم بدقه كمن يريد الغوص في دخائل أنفسهم ويتحقق من تأثيرات كلامه على ملامحهم التي بدت هادئه، متزنه، بتهديد واضح، ثم أردف قائلاً:

- حسناً سأكون معكم صريحاً، أننا لن نقبل بعد اليوم، أن تجري الأمور كما كانت، عليكم أن تفهموا من إنكم سجناء لدينا، ينبغي أن تطيعوا أوامرنا وتعليماتنا بدقه.. لارياضه، ولانشيد، ولاهتاف، ولا تجمعات أو صخب وفوضى ولا تنظيم داخل السجن.. أننا لم ننقل هؤلاء إلا لمعرفتنا الدقيقه ولوثوقنا من إنهم كانوا وراء ذلك.. أغلبهم محكومين بالأشغال الشاقه، ومجرمون خطرون على النظام، والمعلومات التي وردتنا مع أوراق محكومياتهم، تظهر بوضوح من أنهم كانوا خطرين حتى في الخارج، كانوا رأس البلاء والمشاكل والفوضى، لن نسمح بطبيعة الحال أن يجلبوا معهم تلك الأفعال إلى هنا.. لم يبق مسؤول كبير في الدوله ولم يستفسر عن حالة الفوضى هذه!.. صراخكم وزعيقكم اليومي يملأ بغداد. وإن دوائر الدوله الحساسه، على بعد أمتار قليله من هذا السجن،.. لقد أصبحوا غير قادرين على إداء مهامهم.

كان الوجوم قد سيطر على السجناء وهم يستمعون إلى كلام ألمامور. لقد بدى الأمر واضحاً الأن، لم تعد المسأله أذن مسألة نقل عدد من زملائهم إلى سجن اخر، بسبب أكتظاظ هذا السجن، وعدم أتساع المكان للأعداد المتزايده التي كانت تقذف فيه من معظم الأيام، تلك الحجه التي كانوا يرددونها عند نقل مجموعات منهم إلى السجون الأخرى، سيما سجني نقرة السلمان والكوت. لقد أفصح المأمور علناً من أن الهدف من هذا النقل، هو تجميع ذوي الأحكام الثقيله في السجون النائيه وأبقاء ذوي الأحكام الخفيفه فقط في الفرن، ومن ثم فرض الأداره التي يرتأونها عليهم. كان (أزاد) كالأخرين، يقف حائراً، ينظر بعينين قلقتين إلى المأمور. وهو يسمع مايتفوه به، وينتظر من الأخرين التوجيه بشأن الموقف الذي ينبغي أن يواجهوا به المأمور الذي أفصح دون لبس أو مواربه عما يجيش في صدره، وعما جاء من أجله هذا اليوم.. أنه لايريد تنظيماً، ولاحياة جماعيه، ولانشيد، .. أنه يريدهم كبقية السجناء العاديين، يعيش الفرد لوحده، يستلم أرزاقه اليوميه، واقفاً في صفٍ طويل ينتظر دوره.. مالعمل؟.. هذا السؤال. كان يتردد صداه الصاخب في أعماقه، وأعماق الأخرين. شعر بالغضب يتصاعد إلى رأسه، كتيار نهرٍ فائض، أوقف ذهنه عن التفكير للحظات لم يلبث وأن قفز إلى ذهنه في الحال، مشهد المعركه في موقف أربيل، وكيف جابهوا الشرطه المدججه بالسلاح، بالقناني الفارغه والأحذيه، وعلب السكاير والأواني والقدور وقبضات الأيدي.. لقد كان تحدياً عظيماً، أعاد لنا الزهو والكبرياء رغم أننا لم نحقق النتيجه التي كنا نريدها.. آه ليس شرطاً ان يكسب المرء كل المعارك التي يخوضها، ولكن المهم أن يواجه الموقف بشجاعه، ولكنه ماذا يفعل الأن؟.. في الموقف كان هو المسؤول

عنهم، هو الذي كان صاحب القرار الأخير. ثم إنهم خاضوا المعركه بعد تبادل الرأي ونقاش طويل بينهم.. أما الأن فالأمر يختلف، لقد فوجئوا بالموقف، لم يعد لديهم أية فرصه لتبادل الرأي والأتفاق على موقف محدد، جال أزاد ببصره في الواقفين بالصَّف الأمامي، ثم ألتفت إلى زملائه في الصف الخلفي وتفحَّص ملامحهم. كان الذهول قد أكتسى وجوههم بوضوح، وعيونهم كانت تتحرك في محاجرها، وهي تبث نظرات قلقه حائره ممزوجه بالخوف، لم يرى أي تلميح أو أشاره من أحد، ثم تذكر في الحال من إنه لم يجد من بينهم أعضاء التنظيم سوى واحد فقط وهو (عمر عارف).. إذن فالسجناء الأن دون رأس يفكر ويصدر القرار، ويتصرف تصرفاً ثورياً في هذه اللحظات الحرجه، ألتفت إلى(عمر عارف) بشكل لا إرادي، سدد إليه نظرات مليئه بالعتاب، سأله بنظرات عينيه، وبحركات سريعه من يديه، ثم بهمسات خافته (..مالذي ترونه في مجابهة الموقف يارفيق، هل نذعن لما يقوله؟!.. ومالذي يبقى لنا بعد ذلك من كرامه؟!.. قل شيئاً؟) ولكنه رآه، يهز رأسه المفلطح، ويمد كفيه المنبسطتين بعلامة إستفهام مماثله ويهمس (لست ادري!) وكأن الفزع قد إطار صوابه. سيّما وأنه جوبه بنظرات أستفهام أخرى من الأخرين.. (أذن لأبادر أنا، لأتقدم من هذا اللعين، وأقذفه بالحمم التي تغلي في أعماقي، وأثير الحماس في نفوس زملائي، لنفعل مافعلناه في الموقف، وليكن مايكون!).. (لكن من الذي يقول من انهم سيستجيبون لندائي؟ .. من اكون أنا بينهم؟!.. لو كنت مسؤولاً لفكرت بهذا الموقف قبل حدوثه؟) أراد أن يخطو بقدميه نحو الأمام، ولكنه تردد لم يعرف في لحظته، فيما إذا كان هذا التردد، هو الخوف من العيون الجاحظه، والأوجه الملتهبه للحراس، أم الخوف من المسؤوليه ونتائج فعلته! وماحسم الموقف هو صوت صراخ عالٍ يقول:

- رفاق ماهذا؟ . لم هذا الصمت؟.. أ بلغ الجبن بنا حداً نقبل به المهانه إلى هذا الحد.. ألا يتكلم أحد، ألا نقول شيئاً، سيجعلوننا نعيش كالبهائم بل وأتعس في هذا السجن؟!.

كان صوته كالرعد. بث قشعريرة الحماس في نفوسهم، ووسعت حدقات أعينهم، وأفرغ الوجود من الخوف، وتدفقت فيها دفقات الدم القاني، أزالت الشحوب منها، جرى الكلام من أفواههم، كسيلٍ جارف، وأتحدت الأصوات لتكون هديراً قوياً، إلتفتت الوجود نحو بعضها، إلتقت العيون ولمعت ببريقٍ جسور، تعالى الصخب والضجيج، إلى الحد الذي ألقى الرعب في أعماق المأمور فوزي، الذي ظلَّ ينظر اليهم بنظراتٍ مذعوره، ..لا لن نقبل بهذه المهانه.. إن ماتريدون فرضه علينا، من أجراءات لم تكن إلا من اساليب القرون الغابره. تراجع المأمور إلى الخلف بضعة خطوات، أخرج من جيب بنطاله منديلٌ

أبيض ظلَّ يمسح حبات العرق التي بدأت تسيل من أخاديد جبهته المقطبه، والتي أستقرت في ندبات وجهه، ثم يمد يده ليمسح خلف رقبته وصدغيه، وهو يتظاهر من أنه يستمع إلى أحتياجاتهم وشكواهم، ويلقي عليهم بين الحين والأخر نظرات مذعوره. ثم نادى بصوت مرتجف:

- رئيس عرفاء شمخي.

- نعم سيدي.

- أذهب إلى الساحه الخارجيه، لتتأكد من أن السجناء المنقولين قد سّفروا، أخبر آمر القوه الأحتياطيه بدخول السجن..هيا.. هيا.

أنطلق العريف شمخي مهرولاً وهو يضرب بأقدامه الثقيله الأرض الكونكريتيه، وقد دفع بطنه إلى الأمام، ووضع عصاه تحت إبطه، دون أن يتلفت، ثم حملق المأمور في وجوه الحراس الذين أصطفوا على طول السطح المشرف على الساحه، يترقبون مايجري، وأيديهم على زناد بنادقهم، وينتظرون بأعصابٍ مشدوده ماتصدر إليهم من أوامر. أشار إليهم المأمور إشارةً خاصه بأصابعه، ثم زعق، وهو يصدر صوتاً جهورياً:

- حرس، تهيأ..

حالاً، تعالت أصوات طقطقة كعوب الأحذيه بقرقعة أعقاب البنادق، التي دقت الأرض الصلبه دفعةً واحده، ترا..ترا..ق.

عاد رئيس العرفاء شمخي وهو يلهث، وقد إنتفخ وجهه وأحمر وقال بصوت متقطع:

- سيدي.. لقد سّفروا.. القوه ستدخل حالاً.

عاد الهدوء إلى وجه المأمور وأرتسمت على شفتيه إبتسامةً ماكره، وأشار بيده إلى ذلك السجين الذي، ايقظ الباقين من ذهولهم بصيحة احتجاجه. وطلب أن يتقدم منه. كان شاباً طويل القامه، ذو صدر عريض، تقدم نحوه بخطىً ثابته وشجاعه، وما أن اقترب من المأمور، حتى سدد إليه نظرات التحدي الحادّه وقال له دون أن يرتجف له صوت:

- أسمع أيها المأمور، نحن لسنا عبيداً هنا، تتصرفون بنا كما تشاؤون لقد ولّى زمن إمتلاك العبيد، وعليكم أن تفهموا هذا نحن سياسيون.. وطنيون، نحمل في عقولنا مُثلاً وقيماً وها ترى كيف أننا ضحينا من أجلها، وأصبحنا نتحمل مهانتكم على مضض.. صحيح أنكم تنقضون على أعشاشنا واوكارنا، وتقذفون بالمئات منّا إلى السجون ولكنكم لن تستطيعو ابداً، قلع تلك الجذور التي

أمتدت إلى أعماق الأرض، إنكم لا تستطيعون صيد أسماك البحار العميقه الواسعه واللامتناهيه، بيوضها تولدّ في كل موسم ألاف وألاف الأسماك الصغيره التي تملأ البحار من جديد.. أفعلوا ماشئتم، ولقد فعل غيركم ولازالوا يفعلون في زوايا عديده من العالم، خيّم عليها الظلام، ولكن ماذا كانت النتيجه؟!.. ها أن هتلر وموسوليني قد سحقتهما أقدام الشعوب. وألقي بنظامهم الذي فرض الظلام، وبث الرعب في قلوب الملايين، في مزبلة التاريخ، كنفايةٍ، تنفر من رائحتها الكريهه النفوس.

كانت الكلمات تتدفق من بين شفتيه، كطلقات حادّه، تثقب صدره. إندفع السجناء الأخرون، وقد بثت كلمات زميلهم الحماسه في نفوسهم، إحتدم النقاش الحاد بينهم وبين المأمور، الذي كان يتظاهر بالهدوء ونظرات عينه الماكره تتفحص الوجوه لتشخص العناصر البارزه والجسوره. دخلت القوّه الجديده ساحة السجن، وأحاطت بالسجناء كأحاطة السوار بالمعصم. كانت الشمس اللاهبه، تقذف بالحمم فوق الرؤوس، الجو المتوتر جعل السجناء لا يحسّون حتى بالعرق الذي يتصبب من أجسادهم، ويسيل كجداول صغيره في وجوههم. لقد أضاف دخول القوة الجديده إلى الساحه توتراً جديداً، وقلقاً أعظم في قلوب السجناء، كان ذلك أذاناً، بحدوث شيء مفزع يتوقعونه، ثم أن مناورات المأمور قد أتضحت مقاصدها!.

ولكنه إزاء تلك الكلمات وجد نفسه تنهار من الداخل، إذ كانت كالقذائف تشعل الحرائق في أعماقه، ولم يسعفه لا ذكائه ولا فطنته من أن يخرج أية كلمه من بين شفتيه الغليظتين اللتين كانتا ترتجفان بوضوح، للردّ على تلك الكلمات ولكنه خرج كالمجنون، وأشار إليه بيده:

- خذوه.. حطموا أضلاعه، علّموه النظام لقد تجاوز هذا اللعين الحدود!

لم تكد الكلمات تخرج من فيه حتى أنقض عليه الحراس ككلابٍ مسعوره، ينهالون عليه بهراواتهم من كل جانب، وبكل ضراوةٍ وقسوه، ويرفسونه برؤوس أحذيتهم، كما تُرفَس الكره في الساحه، تصدّى لهم في البدايه، ووجه إلى وجوههم قبضات يده القويه، التي تركت، بقعاً داكنه، وخطوطاً زرقاء وحمراء على وجناتهم وأسفل عيونهم، ويقذف البصاق في وجوههم.. سفله.. أنذال.. جبناء يصرخ هكذا باعلى صوته، وقد جحظت عيناه من الغضب، لقد مرّ العديدون أمامه، ولكن لم تلبث وأن أحاطت به أعداداً غفيرةً أخرى، ولم يكن بوسعه حتى أن يتبين وجوههم.. كانت اللكمات، وضربات العصي وأخمص البنادق، وأعقاب الأحذيه، تنهال عليه من كلّ صوب تطحن جسده من كل جانب، كما تطحن أحجار الرحى حبات القمح.. تدفقت الدماء بغزاره من جبهته الواسعه، وفي أماكن عديده من رأسه،

يبدء يسيل بين شعيراته الشقراء المتناثره، إذ لم يكن كثيف الشعر، ويأخذ في الأنحدار، كخطوط حمراء قانيه، على طرفي الوجه، وأسفل الصدغين ليصبغ قميصه، وسروال بيجامته، ببقع من لونٍ أحمر. جلس القرفصاء، وتكور على نفسه، غطى رأسه بكفيه، و أطبق مرفقاه على طرفيّ وجهه، مغطياً صوان أذنيه، أراد ان يقي الأماكن الحساسه من جسده بهذه الطريقه، كان صامتاً، لاتخرج من فمه حتى أنةً، أو صرخةً أو أسترحام، ولم تجعله ضربات الهروات التي كانت تسحق يديه وأصابعه، من أن يرفعهما فوق رأسه، ثم أنه كان يشعر ويحسّ من أن كل ضربه، تدق فقره من فقرات ظهره، أو أية بقعه من أطراف جسده، كأن حربةً حاده تغرز فيها، لقد كانت الضربات موجعه لحدّ لا يطاق، ولكنه سرعان ما حسّ بالخدر يسري فيه، لم يعد يحسّ بذلك الألم الممضّ، ولكن أصوات الأرتطام وضربات العصي، كانت تحدث دوياً وطنيناً هائلاً في أذنيه.

أمسك بعضهم بشعيرات رأسه، ورفعوه إلى الأعلى وجعلوه يقف منتصباً أمامهم، وقد تلطخ وجهه كاملاً بالدم، وعيناه الجحاظتان تحيط بهما حلقتان زرقاوان، وأستحال بياض العين إلى أحمر قاتم، ثم ربطوا يداه من الخلف بقيد حديدي وأمسكوا به من الكتفين بحيث لايستطيع حراكاً. طلبوا منه أن يَشْتُم نفسه، ظلّ ينظر أليهم بعينين بدتا كبحيرتين من الدم، لم ير إلا ظلالاً وأشباحاً، ولم يستطيعوا أن يقرأو فيهما أي شيء، ظلَّ صامتاً، وصدره يشخر، ولكنه لم يدر في تلك اللحظه كيف قفزت إلى ذهنه كالبرق، صورة مشوشه غير مرئيه بوضوح، تنهض من ذاكرته، حيث مر فيها منذ ثلاثة سنوات، حين كان يتراكض في كاورباغي بمدينة النفط (كركوك)، مع زملائه العمال، في ذلك الأضراب الذي تحول إلى مذبحه، قُتل العديدون أمام بصره، ولكنه هو لم يمت، فقد نفذت الأطلاقه ساقه اليمنى، وتحطم بعضاً من عظامها، كانت أول مرة يجد فيها الدم يسيل منه بغزاره، لقد حُمل على الأكتاف، وظلّوا يدورون به وسط الضجيج والصراخ إلى أن غاب عن الوعي ووجد نفسه بعد ذلك راقداً في المستشفى، ومن هناك بدء رحلته إلى عالم السجون. أيقظه صوت صراخ حاد، مزق طبلة أذنيه:

- ألن تَشتُم نفسك؟.. إذن أشتُم عقيدتك، فكرك الخبيث كالسرطان.. هيا، سنغفر لك أنذاك، سنرحم بك.. ها.. ماذا قلت؟! لم يخرج من فمه أي كلام، كان متعباً، مرهقاً، مثقلاً بالجراح، كل عرق من عروق جسده، وكل خليَه من خلايا جسده المسحوق، تصرخ من الألم، كاد أن يهوى على الأرض، ولكنه كان ممسكاً به بقوه، ما كان بوسعه أن يفعل شيئاً، سوى أنه قذف في وجوههم بصقة حمراء قاتمه، ولكنه لم يدري ماذا حصل بعد ذلك، فلقد أنهالت على وجهه اللكمات القاسيه، وسحقت أطراف

العصى ماتبقى من جسده، وخرجت مع سيل الدم بضعة أسنان مهشمه، من فمه، ولكم بعضهم صدره وبطنه بضراوه، ففقد الوعي، وتدلى رأسه المضرج بالدم على صدره، كان منظره مخيفا لا يجرؤ أحد للنظر إليه، تركوه أنذاك وسقط على الأرض، وارتطم بها كالجثه التي فارقتها الحياة، وأمسك برجليه أثنان من الحراس، وظلا يسحبانه على الأرض الكونكريتيه، كما تسحب أكياس الرمل والتراب، لبناء سّد ترابي.

لقد تصاعد الغضب من جميعهم وهم يرون مايفعله السجانون بزميلهم (يوسف) فأندفعوا، وسط ضجيج وصراخ مدوي، وأندفع معهم أزاد وتبعه زملائه واشتبكوا في معركة حامية وطيس مع الحراس، ولكن ماكان بوسعهم أنقاذ (يوسف) من الضرب، فقد كان السجانون محاطين به، كسّد محكم، تراجع المأمور إلى ركنٍ بعيد من الساحه، وأمر جميع القوه بالتدخل، وكان بين الحين والأخر يؤشر بيده إلى شخص معين، في ثوان تحيط به شلة من الحراس، ينهالون عليه ركلاً وضرباً بالعصي، ثم يسحبونه إلى الساحه الخارجيه، حيث تقع غرف الأدارد. لقد أصطادوا منهم في دقائق عشره، قيدت أياديهم إلى الوراء، والقي بهم جميعاً في غرف أنفراديه. لم تقف عملية الهجوم على السجناء، إلا بعد أن صرخ المأمور مزهواً وهو يرفع كفه الصخم علامة التوقف.

- كفى.. كفى.. حرس تجمع.. عودوا إلى أماكنكم.. أسترح أستاعد.

تراكض السجانون إلى أماكنهم السابقه وهم يلهثون من التعب، وقد بدى في جباه بعضهم آثار اللكمات، وبقعاً حمراء تنتشر في وجوههم، وعلى قمصانهم المصنوعه من الخاكي. بينما وقف المأمور منتفخ الأوداج، يطلق نظراته الحاده إلى حشد السجناء الذين تجمهروا دون نظام وقد خيَّم عليهم الوجوم، لم يلبث وأن ظهرت على وجهه أبتسامه صفراء باهته وقال بكبرياء:

- حسناً.. حسناً أريد أن ابدأ معكم من جديد، ها أنكم ترون، كيف العقاب لمن يتجاوز الحدود، ولايمتثل لتعليمات وأنظمة السجن، وواضح إنه ليس بوسعكم ان تفعلوا شيئاً، أفقدتم عقولكم حتى تُعَرّضوا أجسادكم، لهكذا عذاب، وأنفسكم للمهانه؟! بوسعنا أن نفعل أكثر من هذا.. أنتم حديثوا العهد بالسجن وبأنظمته، وتجهلون مالنا من صلاحيات.. أنتم شباب في مقتبل العمر، فيكم الطالب والموظف غالبيتكم متعلمون ومثقفون، لا أريد أن أعاملكم بقسود، ربما أفكر في أعطائكم فرصةً كي تكّفروا عن خطاياكم وذنوبكم، كي تعودوا إلى الناس أحراراً، لربما كان هذا السبب الذي دفعني إلى أيقاف هجوم الحراس، ولجم غضبهم، أنتم وكما يظهر لا تدركون من أن نظرةً غضبى من سّجان تكفي

بأن تُلقي الرعب والفزع في نفس السجين العادي، هؤلاء فيهم من الأشرار من شَرب دم ضحيته، وغرز نَصلَ سكينه في قلب خصمه، دون أن يَرف له جَفن، ومع هذا فأنه يرتجف هلعاً كالطفل أمام صراخ سّجان، لأنهم يعرفون من أننا لانرحم أحداً يخرق النظام. ولكنني أعرف من أنكم شبابٌ غُر، تندفعون وراء عواطفكم، تعيشون في الخيال، تنطحون رؤوسكم بجدرانٍ صلبه، ولاتعرفون من أنها لاتؤدي إلا إلى تهشيم رؤوسكم.. حسناً قد تظنون من أنني قاسي القلب، وقد لا أستسيغ هذا في ذاتي، ولكن مالعمل؟!.. أنني أؤودي واجبي.. أنفذ أوامر رؤساني، فأنا الأخر محاسب، على أطاعة النظام و الأوامر. أنتم ايضاً.. لو لم نجابهكم هكذا، قد لايخطر ببالكم حتى الألتفات إلى أقوالنا.. أتفهمون؟!.

سكت برهةً، وهو يهز عصا بنية اللون في يده، ثم ظلَّ برهةً يخطو خطواتٍ ثقيله وقد أحنى رأسه، يدقق النظر في لمعان حذائه البني المائل للأحمرار، بينما خيّم على السجناء صمتٌ رهيب، ينظرون بكآبةٍ إليه، وصدورهم تجيش بالغيض ولكن ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟!.. الأستمرار في التحدي وأمام الحشد الكبير من الحراس المسلحين قد يعّرضهم إلى خطرٍ أكبر ومهانةٍ لايستطيعون ردّها.. سرى همسٌ خفيف بينهم، لابّد من التراجع ولو كان ذلك لأمد، هكذا جرى الأتفاق.

عاد المأمور إلى الحديث:

- حسناً لابد لي من قول كل شيء، سيما وأن بعضاً منكم قد أثار أموراً لابد من الردّ عليها.. أنتم بنظر القانون مذنبون، وأنني وإن كنت أجهل مواد وبنود قانون العقوبات، ولكنني واثق من أنكم مذنبون، ولابد وأن فعلتم شيئاً، وأرتكبتم جرماً يُعاقِب عليه القانون، وإلا لما جيء بكم إلى هنا، ومع ذلك هذا لايعنيني أن كنتم مجرمين أو أبرياء، فالمحكمه، وهي السلطه القضائيه التي عليها تحقيق العدل، أنتم بنظرنا مذنبون، وما دمتم هنا فليس أمامنا إلا أن نعاملكم كبقية السجناء، القانون عندما يمسك بالمجرم لايهمه أن كان ذلك الشخص مثقفاً أم لا!.. لربما جريمة المثقف والمتعلم أشّد لأنه يفترض أنه يتجنب مزالق الجريمه، وأريدكم أن تفهموا من أن السجن ليس رياضاً للاطفال ولا متنزهاً للمرضى، أنه مكان للتأديب، ولا تأديب بدون عقاب هكذا أنا افهم الأمر، وقد ترون أنتم شيئاً أخر، لكن هذا لايهمني أبداً، توقف قليلاً، ثم أطلق ضحكةً مجلجله، داويه، وأنفرجت شفتاه عن أسنانٍ سوداء قاتمه، وقفز اللعاب من بين شدقيه، ثم واصل كلامه:

- قال بعضكم هُراء.. أننا وطنيون.. سياسيون.. تحمل عقولنا مباديء وأفكار.. وأنا أقول لكم بصراحه، بأننا لن نسمح لكم بأن تحولوا السجن إلى مقر جمعيه أو حزب سياسي لامكان هنا للثرثرة

السياسيه، وليس بوسع الجدران الصماء الأستماع إلى هرانكم. ثم أننا لا نعتبركم سياسيين، حتى تطالبوننا بالحقوق المترتبه لكم عن ذلك، ليس أنا الذي يقول ذلك، بل القانون فأنتم وفق الماده التي حكمتكم مشاغبون، فوضويون، تخلقون البلبله والفوضى في المجتمع، أنتم محكومين عاديون،.. ها.. سياسيون؟! لا..لا.. أن للسياسه رجال، رجال متزنون ذوي عقول كبيره، و كل منهم واسع بالحياة وبأمورها.. أنتم صبيان صغار، وهل يعقل أن نصدق كلّ من هبًّ ودبّ، من أنه سياسي؟!..

لو كان الأمر هكذا، معنى ذلك ان طوفان نوح قد عاد مجدداً وما علينا إلا أن نهرع إلى مراكبنا كي ننجوا بأنفسنا من الغرق.. حسناً سأترككم الأن، وأرجوا من أنكم قد أخذتم درساً من هذا اللقاء، وأذا كنتم تريدون أن تقضوا فترة محكومياتكم بطمأنينه فما عليكم إلا الرضوخ لنظام السجن.. هذا مانريده منكم ليس إلا.

وضع يده اليمنى ثانيةً في جيب بنطاله وأمسك باليسرى العصى القصير البنيّ اللون، وأستدعى العريف شمخي بأشارةٍ من أصبعه، وهمس في أذنه قليلاً، ثم أستدار بعد أن رمق السجناء بنظرةٍ أخيره، وسار بخطوات متسارعه وهو يهزّ العصا، ويضرب به أحياناً حافة بنطاله، ودون أن يلتفت إلى العريف شمخي قال له:

- ينفذ بكل دقه ماقلته لك، وبعد ذلك تُخلى الساحه من الحراس، أفهمت؟

- أجل.. أجل سيدي.

بعدها توجه رئيس العرفاء شمخي ووراءه ثلةً من الحراس، نحو ردهة السجناء، وتدافع وراءهم السجناء، وظلّوا ينبشون في أفرشة وأمتعة السجناء، علّهم يعثرون على بعض المطبوعات والمنشورات الممنوعه التي ظنوا أنها تملأ مخادعهم، أو هكذا قالت التقارير المرفوعه عنهم.

لم يعثروا على شيء سوى على أعداد من الجريده المستنسخه باليد والتي تصدرها اللجنه الثقافيه في السجن، وعلى بعض الكتب الثقافيه العامه والروايات، بينها رواية الأم لمكسيم غوركي.. ثم صادروا كافة الأمتعه والحاجيات التي أعتبروا وجودها مخالفةً لأنظمة السجن، بما في ذلك البيجامات، والأفرشه وأجهزة الراديو، والسكاكين، وأدوات الطبخ، أكتظت الردهه بحشدٍ من السجناء، وتعالى الصخب والضجيج، وأندفع البعض يستفسرون عما يفعله السجانون، أجابهم (شمخي) بغطرسه:

- أنني أنفذ الأوامر، ستكون حالكم كحال السجناء العاديين، ستلبسون ملابس السجين الرسميه بدلاً من البيجامات، ولكل سجين يُخصَص بطانيتين كغطاء وأخرى تستعمل كمفرش، و وساده،

لاحاجة بكم إلى أدوات الطبخ، سوف تقفون في الصف مع السجناء يحمل كل شخص وعانه، ليغرف له الطباخ حصته من الطعام، وبأمكانكم الأستماع إلى الأذاعه عبر السماعات المنتشره في أرجاء السجن.. وهكذا يكون الأمر من الأن أفهمتم؟!.

آ.. بقي لي أن أذكركم، من أن أي شكل من الأجتماعات ممنوع ثم لا رياضه ولانشيد، لاضجيج ولا صخب، ولا ممثل ينوب عن الجميع، بأمكان أي سجين أن يراجع الأداره، ويقّدم طلباً تحريرياً بأي شيء يريد عرضه، وأذكركم أيضاً بأنه ينبغي وحالما يترامى إلى أسماعكم صوت الناقوس، أن تهرعوا لحضور المسطر في الساحه، ثلاث مرات في اليوم، تصطفون بنظام، وتجلسون القرفصاء ليأتي المفوض الخفر، لعّدكم، وقراءة أسمائكم، لأثبات الوجود وتأشير ذلك في سجل الخفاره اليومي.

جيء بالسجناء العاديين من الردهات الأخرى على الفور، لنقل هذه الحاجيات إلى الأدارد، وسُلّمت فيما بعد إلى مخزن السجن، وسُجلت في سجل أمانات السجناء بحضور ممثليهم.

وعندما تركهم رئيس العرفاء، أنطلقت من فمه ضحكةً هازئه وألتفت أليهم قائلاً:

- هذه هي الدنيا، لقد تغيّر الحال، ولم نعد نقبل بضيوف يتصرفون كالأمراء.. هذا سجن وليس بفندق، أفهمتم؟!

أسبوعاً كاملاً مضى والكآبه الصامته ترتسم على الوجود، وآلامٍ ممضّه كآلام السكاكين الجارحه حين تغوص في الجسد، تنبعث من أعماق النفوس، ليس فقط بسبب ماتعّرضوا له في تلك الهجمه الشرسه من ضربٍ قاسي، خلّف تلك البقع والكدمات الداكنه على الوجوه، والحلقات الدائريه الزرقاء الغامقه، والحمراء القاتمه، حول العيون، وليس فقط بسبب المهانه، والأذلال، اللذين تعرضوا لهما، ولكن بسبب الحاله التي هم عليها، فالقلق ينهش أعصاب بعضهم، والأرق أطار النوم من عيونهم، وجعل الكثيرين منهم يذرعون أرض الساحه الضيقه، مساءاً، وليلاً على ضوء القمر الشاحب، وتمتد أحياناً حتى الفجر.. هذا الخوف الذي أنتشر بينهم، كاد يصل حدّ الرعب عند البعض الأخر، وبدأ يّهز و يقتل الروح المعنويه، ودفن الشجاعه والجرأه، تلك الصفتين اللتين كانوا يتصفون بهما قبل الهجمه،.. وكان يمكن ملاحظتهما في نظرات الزهو والكبرياء التي كانت تتدفق من حدقات عيونهم، و في إبتسامات التفاؤل بالغد المشرق، التي كانت تزّين وجوههم.

كان أزاد أكثر قلقاً من الأخرين، وهو يشاهد شبح الرعب يمتص الرحيق من الوجود، وتطفيء ومضات النور المتألقه التي كانت تشع من العيون، ينتشر الظلام الحالك المليء باليأس والقنوط في

أعماق النفوس، ويدفع بالبعض إلى الأنهيار الكامل.. لقد دفع هذا البعض، إلى حمل أمتعته وفراشه، ويأسه وأنعزل عن زملائه، ذهب قسمٌ منهم ليعيش في الطابق العلوي من الفرن، المقابل لهم، ذلك المأوى المخصص لمن كان لايجد ملجأً له، والبعض الأخر قدموا طلبات الأسترحام إلى إدارة السجن يطلبون أيجاد مأوىً لهم بين السجناء العاديين، بعد أن حلفوا أغلظ الأيمان على أنهم لن يعودوا إلى عالم السياسه أبداً، وأنهم يتمنون في أن يقضوا بقية سني محكومياتهم بأمانٍ وطمأنينه.. ولكن ماكان يشيع بوارق الأمل في قلبه، هو ذلك الأصرار الذي كان يراه في الكثيرين ، بعلاج حالة القلق والحيرة، التي كانت تأكل أعصابهم بضراوه، والثرثره الطويله، والنقاش العاصف الذي كان يدور في جلساتهم ولقاءاتهم، ومسيراتهم وهم يذرعون الساحه، للأجابه عن هذا السؤال الكبير الذي كان يرتسم بأحرفٍ بارزه، أمام أعينهم.. مالعمل؟! هل يعيدون التنظيم ثانيةً، لتبعث الروح الجماعيه شعاع الأمل المشرق في نفوسهم، وتعود إبتسامةُ الزهو والكبرياء ترتسم على الشفاه من جديد أم أن حالة التبعثر والتشرد واليأس المميت ستبقى تلفهّم، لتدفنهم وهم أحياء؟!

هذا النقاش دفع أزاد أن يفكر، ويفكر طويلاً في أيجاد مخرج، فيما يجب أن يفعله (لم أسلك هذا الطريق، كي ينتهي بي المطاف هكذا.. كي أدفن نفسي في هذا الجحر اللعين دون هدف، ليس لي ما أعود إليه، فالمدرسه خسرتها، وقد عُلّق أمر فصلي في لوحة الأعلانات، في اليوم الذي تلا توقيفي، ولم ينتظر ذلك اللعين حتى محاكمتي.. ياللشيطان.. وبصق بعصبيةٍ ظاهره على الأرض.. أكنت تكرهني إلى هذا الحد، ألم يكن بوسعك أن تتريث قليلاً لتتأكد أن كنت سأخرج من التوقيف أم لا؟ .. أكنت متلهفاً إلى هذا الحد كي توقع أمر فصلي، ثم تسير منتفخ الأوداج في ساحة المدرسه، ترمق الطلبه من وراء نظارتك السميكه، بنظرات التحدي والترهيب، لتقول في نفسك لهم.. هذا عقاب من يشترك في المظاهرات، ويدّس أنفه في السياسه.. حشره.. حشره.. لقد كنت طوال حياتك حشره، جلاد في لبوس مدير مدرسه كم وشيت بنا لأتفه الأسباب) أستيقظ من هذه الخيالات عندما أمسك أحدهم بكتفه من الخلف ..

- أراك غارقاً في تفكير عميق يارفيق أزاد!

ألتفت إليه وقال بأندهاش!

- أنت يارفيق (عمر)؟ لقد كنت عازماً أن التقي بك!

- وهل كنت تفكر يازميلي بهذا اللقاء؟ ألسنا نلتقي في اليوم ألف مرّة، أليست وجوهنا تلتصق ببعضها ليل ونهار؟

أجاب أزاد وهو يتفحص عينيه الصغيرتين الغائرتين في محجريهما:

- كنت أوّد أن أكون صريحاً معك بعض الشيء، فأننا لم نصل في نقاشاتنا وطيلة الأيام الماضيه إلى قرارٍ حاسم، أنت ترى حالة الياس والقلق المخيمه على الكل، حالة الأنكسار والهزيمه، التي تهددنا بالموت؟.. ألم تفكر في هذه الوضعيه، ألم تجد حلاً تهدي إليه الأخرين؟!

- ومن أكون أنا؟.. هل أنا ساحر، أمتلك العصى السحريه، لأقول له كن، فيكون؟.. أنا واحد مثلكم، أرى الأمور كما ترونها، ثم أبتسم بسخريةٍ وقال: أنتظر الحل من السماء؟

قال أزاد بأندهاشٍ بالغ، وهو يتفحص صلعة رأسه:

- كيف تقول هذا يارفيق (عمر) وأنت الرأس الأن؟.. كيف تريد أن تقود وأنت لا تريد تكليف نفسك حتى على مجرد التفكير في أيجاد طريق للخروج من هذه المحنه؟!

- من الذي قال لك بأنني الرأس هنا.. وكيف عرفت من أنني أطمح أن أكون قائداً لكم؟!.. والله أن أردت الصراحه، فأنني لم أعد قادراً حتى على حمل طابوقه، أفهمت؟!.

قال ذلك عمر بأنفعالٍ واضح.

- ولكن ألم تكن عضواً في لجنة التنظيم؟.. ألا ترى أن أعضاء اللجنه جميعاً قد نُقلوا، ولم يبقى سواك؟.. ماذا هل تريد أن تتهرب من مسؤولياتك، وتترك رفاقك دون رأس في ظرفٍ كهذا؟!.. لماذا لا تقل ذلك بصراحه؟!.

توقف أزاد عن الكلام، وظلّ برهةً من الوقت يحملق فيه، منتظراً أي ردّ، ثم ولما لم يجد أي جواب أستطرد قائلاً:

- لم أنت صامت لا تجيب؟!.. قل لي إذن كيف كنت عنصراً قيادياً و عضواً في لجنة مدينتك، أقمت الدنيا وأقعدتها، بخطبك وكلامك المنمق في الايام الزاهيه لوثبة كانون ، شئت أم أبيت، فأنت متقدم على الجميع في مسؤولياتك في الخارج، وقد درجت العاده، في أن يتولى المسؤوليه القياديه، من يشغل موقفاً أعلى في المسؤوليه من الأخرين.. وفي كل معركه، عندما يقتل قائدها فمساعدوه أو من يأتون بعده في المسؤوليه، يتولون أمر قيادة المعركه بجرأه وأقدام، يتقدمون ويستبسلون، ويعتبرون ذلك واجباً طبيعياً، أمامهم أليس كذلك؟!

شعر زميله بأحراجٍ كبير، وقد لاحظ أزاد ذلك في علائم الأرتباك المرتسمه على وجهه ونظرات الخجل التي كانت تنبعث من حدقتي عينيه الصفراوين، لم يلبث وأن خرج من صمته وقال بصوتٍ مرتجف:

- يارفيقي.. يازميلي لم هذا الألحاح؟!.. قلت لك بصراحه من أنني غير قادر على تحمل المسؤوليه، وأنني لا أخالفك الرأي قطعاً من أنه يجب أن نفعل شيئاً، أنني أتألم مثلك وأنسحق من داخلي حين أجد الحال هكذا، ولكن لست أدري مالذي يجب أن نفعله؟!.. ليس الأمر هيّناً كما تتصور، هؤلاء الأوغاد حينما هاجمونا بهذه الضراوه، و فعلوا مافعلوا لم يكن ذلك من بنات أفكارهم، هؤلاء الأغبياء، وأن كانوا قساة القلوب فأنهم جُبناء، لأن مافعلوه، هي فعلة الجبناء ليس إلا. ولكن القضيه أعمق مما نتصور، لقد كانت خطةً مدبره أُعدت في دوائرهم العليا، كانت أوامر نفذوها بهمجيه، أرادوا من ورائها تحقيق هدف، وقد وصلوا إليه؟.. ألاترى ذلك أنت أيضاً؟

- نعم لا أخالفك في هذا.

- إذن هذا يعني بأننا سوف لن نستطيع العوده إلى ماكنّا عليه، أنهم لن يسمحوا لنا بذلك، وقد قال المأمور بنفسه ذلك، دورن مواربه. إن الأصرار على التحدي سوف يعرضّنا إلى الهلاك المحتم، وأنت تعرف أن هؤلاء لن يتورعوا عن الأتيان بأي عمل شنيع لتنفيذ أهواء أسيادهم. أفهمتني؟!

أجابه أزاد بعصبيه:

- ماذا يعني هذا الكلام يارفيق عمر؟!.. أتريد أن ترفع الرايه البيضاء وتستسلم؟! أتريد أن نبقى أذلاء ومهانين هكذا؟.. أين هي إذن الروح الثوريه التي كنا نتشدق بها، لقد كنّا نردد في كل مجال، من أن طريق النضال ليس مفروشاً بالورود و الرياحين، و كنا نعرف هذه الحقيقه، من أن الطريق الذي نسلكه مملوء بالأشواك التي قد تدمي أقدامنا،.. أتعرف أنا وزملائي في الليله السابقه للمظاهره تناولنا حصتنا من الطعام والفواكه، لوجبة الغداء لليوم التالي، لأن معظمنا كان على قناعةٍ من أنه قد لايعود إلى القسم الداخلي، كنا نعرف مسبقاً من أننا سنسير على تلك االاشواك التي قد تدمي أقدامنا.

أحسّ أزاد بتيار الغضب يمتلكه، وحدقتا عينيه السوداوين تتوسعان أكثر، وتتحركان حركات لا إراديه في محجريهما، وصرخ في وجهه:

- أسمع لاتجعلني أن أقذفك بأي نعت قد يجرحك، وإذا كنت لا تستطيع أن تكون رباناً للسفينه، لا تكن سبباً في غرقها، ولكن ما أعجب له كيف أقتنعت ذات يوم من إنك تستطيع أن تساهم في تغيير العالم، وأنت بهذا الضعف؟!.. أكنت تعتقد ذلك لعبة كرة قدم؟!. جذب صراخه، زميلين أخرين، كانا يتناقشان هما الأخران، وتوقفا عندما وصلا إليهما، يستوضحان عمّا يدور بينهما، ولكنهما جوبها بالصمت، لم يلبث وأن أنفجر (عمر) هو الأخر غاضباً:

- أترى نفسك لم تقذفني بالنعت الذي يجرحني بعدُ؟!.. ماذا تريد أن تقول أكثر من هذا؟! لقد قلت لك ما أراه أنا.. ولازلت أقول من أن أي مجابهه تعّرضنا إلى نتائج وخيمه لا تُحمد عقباها، وأنت حرّ فيما إذا كنت تعتبر ذلك ضعفاً مني.

سكت قليلاً وألتفت إلى الزميلين الجديدين وقال:

- أنني أريد أن أضيف مافاتني قوله.. أن الوضع في الخارج سيء أنتم ترون، كيف ينتهي الأمر بشكل مأساة، لايمّر يومٍ حتى وتُلحق السلطات الضربه تلو الضربه بالحركه الثوريه وتقتحم مخابئها، وتصادر المطابع والوثائق السريه، تعدم، تضرب، تسجن، ألا ترون هذه القوافل التي كانت تحط الرحال هنا، أو في المحطات الأخرى، وصرير السلاسل تصك الأسماع، لقد أستطاعوا بحق أن ينتقموا من الشعب لوثبته في كانون، وها أنهم لم يمهلوه أكثر من سنه، لقد تحول المدّ الثوري إلى الجزر، وليس بمقدور أحد في الخارج أن يهرع لخدمتنا.

- مالأمر يارفيق أزاد؟.. قال (خليل) بأندهاش، وقد شاركه في علامة التعجب المرتسمه على وجهيهما زميله (دلزار).

- طلبت منه أن يقوم بدوره، ها هو يخلق الأعذار، وكأننا نجهل مايعرفه هو؟.. أنا أعرف مايحدث حولي تماماً، والجميع يعرفون ذلك، والذي لايمكنه أن يرى بوضوح مايدور حوله، لايمكنه إلا أن يكون أحمقاً قصير النظر، ولكن ماتعرفه يجب أن تُدخله في مختبر الذهن للتحليل وتسلّط عليه الشُعاع المتقد للدماغ، كي تستخلص فكراً نيّراً جديداً، وتجربةً جديدةً ممتزجةً بخبرة الواقع، يكوّنان شمساً جديده، تنير الدروب المظلمه والمسالك الغير مطروقه.. هكذا ياصاحبي.. هكذا أنا أرى الأمر، فأنا لم أقل لك أن نقوم بأعمال حمقاء.. نضرب رؤوسنا بالحائط كي تنكسر!.. قلت فقط علينا أن نفكّر.. ونفكّر كيف نحول الهزيمه إلى نصر؟!.. كيف نصمد ونستعيد رباطة جأشنا، وعزيمتنا، كيف لانجعل من أنكسارنا في

معركه هزيمةٍ دائمه؟!.. كيف نعيد مكانتنـا، كبريائنـا وزهورنـا، فـالموت أشـرف ألـف مـرّه مـن الـذل والمهانه.. هذا ماقلته وهذا ما أريده، أتفهمون؟!.

- والله مايقوله هو الحق بعينه، و كنّا أنا وخليل نبحث نفس هـذا الموضـوع، أن مـايجري لنـا هـذه الأيام، يحزّ الألم في النفس، علينا أن نفعل شيئاً، السكوت شيء مهين حقاً.. ماذا سيفعلون أكثـر مـن مافعلوه؟!.. فليقيـدونا بالـسلاسل كـالأخرين وليقـذفوا بنـا الـسجن في القـابع في أعمـاق الـصحراء، سنكون عند ذاك مع رفاقنا عسى أن نتعلم منهم الكثير.

نظر أزاد إلى قامة دلزار العاليه، وإلى وجهه النحيل وإلى حاجبيه الكثين يحيطان بعينيه الواسعتين اللتين تبرقان كنجمةٍ لامعه، وحركة أصابعه التي تميّز بهـا عنـد الكـلام، وقـال في نفـسه.. إنـك لـست بشاعرٍ فقط، أنما لا تزال ذلك الجندي الذي حارب في اليونان، ونـزل في قـبرص في صـف الحلفـاء، أثنـاء الحرب الثانيه أنك لازلت تحمل روح الجنديه الحقه.. لقد أحسّ أن كلماته، تعزز الثقـه في نفـسه، وتملأهـا بشجاعه أكبر، ثم ألتفت إلى (خليـل) وتفحص ملامحـه، لـيرى ردّ الفعـل علـى قـسمات وجهـه الأسمـر الممتلىء تحاشى النظر في عينيه اليسرى إلى كانت جاحظه، مكـوّره، زرقـاء داكنـه، بـل ركـز نظـره في عينه اليمنى السليمه، التي كانت واسعةً وجميله، ولربما لم يرد في قرارة نفسه تـذكيره بهـذا القـبح الـذي يشوه طلعته، وأستمع إلى حديثه الجاد، وبغضبه على كلام (دلزار):

- لقد قلت لدلزار قبل قليل في أن نشكل وفداً يقابل مدير السجن ويطرح عليه مطالبنا.

- ولكنني قلت أن ذلك لن يجدي نفعاً، الأضراب عن الطعـام هـو الموقـف الأكثـر جديـه، فأمـا أن يذعنوا لمطالبنا، أو أن يقذفوا بنا إلى سجنٍ ناءٍ.. هكذا أرى الأمر أنا.

قال ذلك دلزار وهو يهّز بأصبعه.

- ومن الذي يقول بأن الجميع سيوافقونك على الأضراب؟!.

قال ذلك عمر وقد أرتسم على شفتيه إبتسامة مترجرجه. أردف يقول ثانيةً:

- زيلوا علائم الذعر من الوجوه أولاً، ثم فكروا في ذلك.

قال أزاد وهو يفكر:

- قد يكون الأضراب السلاح الأخير الذي نشهره بوجههم ولكن.. وهنا تنهّد بعمق، لايـزال الوقـت غير ملائم لذلك، وقد يكون الرفيق عمر محقاً في قوله لبعض الشيء.. فكـرة تكـوين وفـد تـستهويني،

وأرى لو حمل هذا الوفد عريضةً بمطالبنا، وليس من ضيرٍ لو هددناهم فيها بالأضراب عن الطعام.. ولكن المسأله كيف نختار أعضاء هذا الوفد؟!.. ومن هم الذين يُبدون الأستعداد لهذه المهمه؟!

- قد يحتاج هذا الأمر إلى تفكير ودراسه. قال خليل.

- وأنا أقول نفس الشيء، ولكن ينبغي أن نبحث الفكره مع الجميع، ونتدارس الأمور من كل جوانبها معهم، لعّل هناك من يجد رأياً آخر. قال ذلك أزاد معقبا.

- قد يكون عقد أجتماع نعقده بيننا ويحضره من ترونه مناسباً، شيئاً مفيداً، نستطيع أثناءه أن نبحث، ليس فقط مسألة تشكيل الوفد، وماتحمله من مطاليب بل حتى كافة الأمور الأخرى التي تتعلق بتنظيم حياتنا اليوميه.

قال ذلك خليل وأيده دلزار وأعقب على كلامه أزاد:

- أنا أوافق على هذا الرأي، ولكن عقد هذا الأجتماع يحتاج إلى تمهيد وتحرّك بين الزملاء جميعاً، وأقول لو نفعل ذلك منذ الأن.

- شيء حسن.

- أ.. أنها فكرةٌ معقوله.

- ماذا تقول يارفيق عمر؟! قال ذلك أزاد منتصراً.

- فكرةٌ حسنه.

- إذن تحرك معنا، وأحمل قسطاً من المسؤوليه، مثلنا تماماً ليس أكثر. ولا أريد أن أُكرهك على تحمل المسؤوليه كاملةً مادمت غير راغباً فيها.

قال ذلك أزاد، وإبتسامه رضا تشع من وجهه، وحملق في وجوه زملاءه، فوجد علائم الأنشراح تنتشر في وجوههم أيضاً، عند ذلك أيقن، من أنهم يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لو أتحدت كلمتهم.

- ١١ -

كانت الساعه تشير إلى الخامسه مساءاً، حينما أنعقد الأجتماع في الطابق الثاني من الفرن والذي هيأ له كل من أزاد ودلزار وخليل، خلال لقاءاتهم المستمره خلال الأسبوع الماضي شرحوا فيها وجهات نظرهم تجاه ماحدث، وعن الظروف التي أستجدت. كان الأجتماع مصغراً، لم يحضره إلا أولئك الذين كانوا قد تحملوا المسؤوليات في الخارج، والأخرون الذين أظهروا نشاطاً خلال الأيام الماضيه بين باقي السجناء، وظهرت فيهم علائم الجرأه والأندماج لوقف التدهور في صفوفهم. جلسوا على المفارش في صفين متقابلين، وفي جهة الشمال جلس أزاد وفي جانبيه كل من دلزار وخليل.

ساد الصمت لبرهةٍ من الوقت، تطلع أزاد إلى وجه أحد الرفاق وغمز له وأقترب منه على الفور، فهمس عند ذاك في أذنه:

- هل وضعتم أحداً ليرقب الباب؟

- أجل يارفيقي، فأن أثنين من الرفاق يحرسان الباب، وأثنين أخرين مكلفان بمراقبة تحركات الحراس، وأبلاغنا على الفور عن كل حركةٍ مريبه قد تحدث.

- والأخرون؟

- أنهم أنتشروا في الطابق الأرضي وتوزعوا على شكل مجموعات صغيره فيهم من يقرأ في كتاب أو صحيفه، وفيهم من أشغل نفسه بالشطرنج أو الحديث، بينما البقيه، يتمشون في الساحه.. كل شيء يجري بالتمام وفق الخطه يارفيق.

- حسن.. حسن.. قال ذلك أزاد، وأرتسمت على ملامحه علائم الرضا.. تعرفون السبب الذي دعانا إلى هذا الأجتماع، ولربما تعرفون تفصيل مانود قوله، لأنني أنا ورفاق أخرين.. وهو يشير إلى خليل ودلزار وأخرين بأصبعه.. تحدثنا عما نفكر فيه وأستمعنا إلى وجهات نظر معظم الرفاق، ولا أريد ان نكرر ماقلناه، كما أن الوضع المستجد لايسمح لنا بأطالة الأجتماع، فخير الكلام ماقل ودل، وعليه فأن منهج الأجتماع، سيتضمن نقطتين أساسيتين لاغير، أولهما:

مالذي ينبغي أن نفعله لمجابهة هذه الهجمه الشرسه التي تعّرضنا لها، كيف نوقفهم عند حدّهم ونستعيد أمتيازاتنا كسجناء سياسيين؟ وثانيهما: أعادة التنظيم السجني وأنتخاب لجنه تنظيميه

جديده تتولى قيادة التنظيم وأدارة الأمـور اليوميـه، لحياتناالسجنيه ضمن التنظيم الجماعي، إذ إن جميع رفاق اللجنه السابقه قد نقلوا ولم يبق منهم سوى الرفيق عمر.. ولابّد لي أن أؤكد لكم من أن هذه النقطه، تعتبر حيويه وأساسيه، لحل جميع المشكلات والمعضلات التي نعانيها الأن، وكما تعلمون لا يمكن أن نعزز الروح الجماعيه بيننا ولايمكن أن يكون لنا تنظيم، ولايمكننا مواجهة الأعـداء، دون رأس يفكر ويخطط ويوجه. وأنتم أحرار فيمن تنتخبونه.. حسنٌ ولنبدأ بالنقطه الأولى.. كان أزاد قد أنتخب مع زميليه دلزار وخليل كهيئة رئاسة الأجتماع، سيتولون إدارة المناقشات.

نهض أحدهم بعد أستئذان، كان طويل القامه، أشيب الرأس وبدأ يقول:

- رفاق أنني أرى لو نبحث أولاً، عـن الأسـباب والعوامـل الـتي أدّت إلى هـذه الهجمـه المفاجئـه، ونتعمق في كافة الظروف المحيطه بنا، أن كان ذلك في الـداخل أو الخـارج، لكـي نـصل إلى أسـتنتاجات منطقيه ومعقوله، ولنحدد مالذي نريده بالفعل منهم، أي من المطاليب الـتي تبـدو معقولـه وواقعيـه بالنسبه للظرف الحالي وأيّ منها، تبدو صعبة المنال.

- ومالذي تراه يارفيق؟ قال ذلك أزاد.

- سبق وأن تحدثنا عن هذا الأمر معاً يارفيق أزاد. ولازلت عند هذا الرأي الذي قلتـه وهـو أننـا ساهمنا ببعض تصرفاتنا الغير مدروسه، من أن ندفع بإدارة السجن إلى الهجوم علينـا، تـصّرفنا بـدون رويّه ولم نحسب حساباً ما للظروف الصعبه التي نمر بها. سكت قليلاً ثم قال بأنفعالٌ:

- أتسائل، هل كان ضرورياً أن نفعل مافعلناه؟!.. أن نملأ الـسجن بالـصراخ مائـة مـرّة في اليـوم، وكلما وطأت قدماً سجين جديد ارض السجن..نتصرف وكأننا نقيم في جزيرةٍ مستقلةٍ نائيه نطّبـق فيهـا مبادئنا السياسيه والأجتماعيه، أكنتم تسمون ذلك شجاعه؟!.

نهضّ أخر وقاطع كلامه منفعلاً:

- ماهذا الكلام يارفيق؟!.. أتعتبر النشيد صراخاً وإشارةً لهـؤلاء الأوغـاد أو تعتـبر ذلـك الـسبب الحقيقي لهجومهم علينا؟.. والله ماعدت أفهم هذا الكلام لم يبق سوى أن نلقـي جريـرة الأعـداء علـى عاتقنا!.. قل لي- وهـو يـشير بأصـبعه إليـه- لمـاذا إذن جئنـا إلى هنـا لـو كنـا نفكـر فقـط بمراعـاة أمزجتهم، ومداراة شعورهم كي لا ينجرح.. مالـذي بقـي ولم يفعلـوه، أنـي أرى أن المسأله، مـاهي إلا مسألة صراع وتحدي، أن وجودنا ماهو إلا أمتداد لما فعلناه في الخارج، ففي الخارج لو لم نخض نضالاً، لو لم نخرج في مظاهره، نهتف بسقوطهم، ونرفع مئات الشعارات فيها، وعلـى مـرأى وسمـع ألـوف النـاس،

وهكذا لو لم نفعل كل ذلك لما ألقي القبض علينا، وزج بنا في هذا الجحر اللعين الذي يسمونه سجناً.. أذن فكروا في الغاء النضال أو أتركوا ساحته، حتى ننجوا من عقاب الأعداء.. وهنا نستكين لما يفعلوه بنا، حتى نصبح مسخاً، ونرتجف لنظرةٍ غضبى تصدر من سجّان وعند ذاك لن نجد من يفكر بنا، أو يحتسب لنا حساباً.

سكت قليلاً، وظلّ يحملق في وجوه الجالسين، بنظراتٍ فاحصةٍ غاضبه، وقد تقلصت حدقتا عينيه الواسعتين السوداوين، وظلّ يلعق بلسانه شفتيه اليابستين ويرطبهما به. كان شاباً نحيلاً، لم يتجاوز الخامسه والعشرين من عمره قصير القامه، يُزَين وجهه النحيل، شاربُ أسود دقيق، كان من مدينة النجف، يدرس في كلية التجاره والأقتصاد، قبل أن تحكم عليه المحاكم العرفيه بالسجن لمدة سنةٍ واحده، مع جمعٍ غفير من الطلاب الذين ساهموا في مظاهرات بغداد. لم يلبث وأن قال بأنفعال وهو يهّز أصبعه:

- أسمعوا يارفاق، أن كنتم تريدون حقاً أن تحفظوا كرامتكم، وأن تستعيدوا أمتيازاتكم وتعاملوا كسجناءٍ سياسيين، ليس أمامكم من طريق سوى أعلان الأضراب عن الطعام ومن هذه اللحظه.. أنا لا أرى سبيلاً أخر.

وقبل أن يجلس في مكانه، تصاعدت أصواتٍ عديدةٍ بين الحضور، وتحول إلى نوعٍ من الضجيج:

- آ.. لقد قال الصواب.

- أنا أيضاً من رأيه.

- أجل الأضراب وحتى الموت.

- هدوء أيها الرفاق ماهكذا تُبحث الأمور الجاده، أن هذا رأي، وقد يكون للأخرين أراءً أخرى، لا ضير في أبداء الصراحه في القول، ولكن بهدوء، ودون أنفعال. قال ذلك أزاد.

نهض الرجل الأشيب مجدداً، وتحدث بهدوء:

- لي ملاحظاتٍ على ماقاله الرفيق (كريم)، لقد أراد أن يصّورني وكأنني أبث روح الأنهزاميه بينكم، وأدعوا إلى ألقاء علم النضال في قارعة الطريق، وكأن النضال عمليةً عشوائيه، لاتحتاج إلى تفكير وتخطيط وتحليل، وهو يعتقد من أن الثوري، هو ذلك البهلوان، الذي يؤدي حركاته البهلوانيه ويكررها كل يوم أمام المتفرجين في قاعة السيرك، ثم من الذي يقول من أن جميع مافعلناه في الخارج كان صائباً؟ ينبغي أن يكون للنضال من عِلم وفكرٍ نيّر تستند إليهما، يكونان دليل عملٍ وكفاح. أن الفعل الثوري إن لم يراع الأمكانيات الواقعيه في تحديد نوعية الفعل في ظرفٍ محدّد، لأصبح مغامرةً،

عشوائيه، يائسه، لا تحقق شيئاً من الأهداف، وتنتهي في النهايه إلى الفشل والأخفاق. سكت وظلّ يفكر لبرهة.

كان هذا الرجل الأشيب، وصل حدود الأربعين من عمره، زار السجون والمعتقلات لمراتٍ عديده، ساهم بنشاطٍ في حُقبةٍ معينةٍ في سني الأربعينات في النضال الثوري، كان ذا ثقافةٍ عاليه، وأطلاعٍ واسع في المعرفه. لاينقطع عن المطالعه والقراءه حتى وأن لم يجد الكتب التي تتلائم مع ذوقه وأتجاهاته الفكريه.. كان يتردد على مكتبة السجن دائماً ويستعير منها الكتب المختلفه، وكما هو معروف، فأن إدارة السجن لا تضع في المكتبه كتاباً سياسياً أو فكرياً، يتناقض مع أهداف الدوله وغاياتها السياسيه والأجتماعيه، ولكن ومع ذلك، فأنها كانت حاويةً على كتبٍ تأريخيه، وأدبيه ولغويه، وعلميه، وتربويه وغيرها، وكان هو ينكبّ على قراءة ماكان يظّن من أنه ينهل منه شيئاً جديداً بالنسبةِ إليه.

ولكنه كما كان يقول بنفسه، من أنه حُكَم عليه بالسجن لمدة سنه، برغم إنه ترك التنظيمات السياسيه، منذ أمد، لأنه ماكان يقتنع أو يرضى ببعض المواقف أو التصرفات السياسيه والتنظيميه، (كنت على خلاف دائم معهم، فطلبت الأنسحاب منهم، والنضال بطريقتي الخاصّه، كنت أخشى على الدوام أن أضيع دون هدف، وبلا مبرر معقول، ولكن مع هذا فأنهم لم يتركوني وشأني، لأنني لم اشأ أن أنزع من ذهني، مارأيته وأراه صائباً من الحياة).

حينما عاد إلى الكلام، كانت أبصار الحضور معلقةً به، وكان أزاد أكثرهم أهتماماً بما كان يتفوه به:

- ماكان يحدث قبل الهجوم علينا، وماكنّا نتمتع به من أمتيازات لم يكن أعترافاً منهم بحقوقنا وأعتبارنا سجناء سياسيين، أنما كانت حالةً مؤقته، فُرضت عليهم فرضاً، أو لربما لم يعيروا أهتماماً يذكر في البدايه، لأن هذا السجن لم يكن سوى محطةً وقتيه لمن تقذف بهم المحاكم أليه، يقضي فيه السجين أياماً أو أسابيع، ريثما ينقل إلى المحطات النهائيه في نقرة السلمان أو الكوت، وها أنهم نفذوا الفكره بدهاء، ما أن أنتهوا من نقل أخر مجموعه من ذوي الأحكام الثقيله، حتى وبادروا إلى تنفيذ خطتهم، ظنّاً منهم. من أن ذلك ييّسر الأمر لهم.

- أنني أرى لو أختصرتم في الكلام، وأدليتم برأيكم في موضوع الأضراب الذي أقترحه الرفيق كريم، أو أقترحتم شيئاً أخر، لكان ذلك أفضل. نحن نريد أن نتوصل إلى قرار، ولانطيل الأجتماع بالمسائل الجانبيه.

قال ذلك خليل وهو يوجه نظرات عينه السليمه إليه.

- ليس هذا أمراً جانبياً، إننا لانستطيع أن نقّر أي فعل نقوم به، مالم نعرف بالضبط ما الذي نريده!.. نُضرِب من أجل ماذا ؟..الحقوق السياسيه في السجن؟ .. الأعتراف بنا كسجناء سياسيين؟ .. أم بضعة مطاليب تُحسن من وضعنا؟.. الأضراب، أنا أقول لا.. لأن وضعنا النفسي، وأستعدادنا لتحمل الجوع لأيام قد تطول، ولأحتمالات أجراءاتٍ مشدده قد تُتخذ ضدنا، أضافةً إلى كامل الأوضاع الغير ملائمه والمتدهوره في الخارج أيضاً، كلّ ذلك لايساعد على قيامنا بأضراب عن الطعام. أن النضال داخل السجن لو لم يُدعَم بنضالٍ جماهيري واسع في الخارج قد لا يحقق أية نتائج، هذ بديهيه معروفه لدى المطلعين.

على موضوع نوع الفعل الذي يختارونه، جرى نقاش حامي الوطيس، وتباينت الأراء والأجتهادات، بين مؤيد للأضراب عن الطعام، ومقترح الأكتفاء بأرسال وفد إلى إدارة السجن، أو تقديم عريضه، كما وتعددت المقترحات بشأن مطاليبهم، ولكن أزاد حسم الأمر في النهايه، بعد أن درس في ذهنه، كل الأراء والمقترحات التي عُرضت، وتشاور مع رفيقيه الجالسين بجانبيه، والرفيق عمر، الذي ناداه كي يجلس هو الأخر بالقرب منهم.

قال وهو يجول ببصره في وجوه الأخرين:

- رفاق لقد ناقشنا هذا الأمر من جميع جوانبه، إنني أقدر الروح الثوريه العاليه لدى رفاقنا جميعاً، سيما أولئك الذين أيدوا القيام بالأضراب عن الطعام، أقدّر أيضاً أراء الرفاق الأخرين، الذين دعوا إلى التبصر والرويه عند تحديد الموقف الذي ينبغي أن نقفه في هذه الظرف العصيب الذي يحيط بنا، سيّما أراء الرفيق (سليم) الناضجه حيث يطالبنا في أن يكون الفعل الثوري، مطابقاً ومنسجماً مع أمكانياتنا الحقيقيه في التحدي. إن مايجب أن نتمسك به أولاً هو الروح الثوريه، والعزيمه الصادقه، الصبر و تحمل الشدائد، الشجاعه، والأيمان الراسخ بعدالة قضيتنا عموماً، أن نعزز في نفوسنا الثقه بأنفسنا، وبشعبنا، وبالحركه الثوريه التي ستنهض يوماً على قدميها، لكي تعيد لنا الوثبه مجدداً، وتضع لنا الأنتفاضات والوثبات.. نعزز ثقتنا بالمستقبل، الذي، سيشرق بين الغيوم السوداء الداكنه

يوماً ما، هذه هي القضيه الأساسيه بنظري، التي يجب أن تغمرنا جميعاً، وعند ذاك نستطيع أن نفكر برويه وبحكمه كما قال الرفاق الأخرون، ولا نكون كأولئك الذين يضربون رؤوسهم في الجدار، كي يطفئوا نار غضبهم.. ليس للتحدي من شكل أو نوع محدّد في كل ظرف أو كل مكان.. للتحدي أشكال وألوان مختلفه، تحددها الظروف والأمكانيات، وهي ليست بالطبع حالةً مطلقه، ثابته، ما لا نتسطيع تحقيقه اليوم، قد نبلغ إليه غداً، في ظرف أكثر ملائمةً.. أنني أرى أن نشكّل وفداً لا يتجاوز العدد عن خمسة أفراد، يحمل عريضةً موقعه من الجميع بالمطاليب التي ناقشناها، وعندما لايجدي هذا الأمر نفعاً، نفكّر بشيء وقد يكون الأضراب الوسيله الأخيره، ولكن يجب أن نخبر عوائلنا وأن نرسل بالأخبار إلى الخارج، ونخلق وضعاً ملائماً لمساندتنا، المواجهه قربت ، وسنتدارس الأمر بيننا فيما بعد.

- أرى لو يلّوح في الطلب، القيام بأضراب في حالة عدم تلبية طلباتنا. قال ذلك دلزار- مقتضبا -

- لاضير في ذلك على أن يبقى تهديداً فقط في الوقت الحالي. أجابه أزاد

أما مانريده، فأننا نطالبهم بالكثير، وبكل أمتيازاتنا السابقه، نطالبهم الأعتراف بنا كسجناء سياسيين، ندرج كل ذلك في العريضه التي ستعرض عليكم، ونعطي للوفد صلاحية المفاوضه.. ومن المؤكد من أنهم سوف لن يستجيبون إلى كل ذلك، ولكن ماسيتحقق مهما كان ضئيلاً سيكون مكسب لنا في الوقت الحاضر، سوف لن نقف عنده، بل سنواصل النضال في الأيام اللاحقه عندما تحين ظروف أفضل. أتوافقون على ذلك.

تعالت الأصوات: أجل.. أجل.

- طيب من تقترحون لعضوية الوفد؟

بعد التشاور أُتفق على أختيار: أزاد رئيساً للوفد ودلزار، خليل، كريم وعمر أعضاءاً للوفد. كما تم الأتفاق على صياغة العريضه وتحديد المطاليب التي أتفق عليها من قبل أعضاء الوفد أنفسهم.

- لنأتي إلى بحث النقطه الثانيه.. رفاق سبق وأن أوضحت لكم أهمية التنظيم، أن كان ذلك في السجن أو خارجه، فبدونه لايمكن أن تنشأ أية حركه ثوريه أو تنفذ أية برامج أو أهداف سياسيه كانت أم أجتماعيه، وقد يكتسب هذا الموضوع أهميه أستثنائيه لنا بعد تلك الهجمه الشرسه التي تعّرضنا لها، والتي أشاعت الفزع والبلبله والروح الأنهزاميه لدى بعضٍ منا- أقول ذلك بأسفٍ وأسى- ودفع بهم إلى ترك صفوفنا، والتملق للأداره في محاولة للتقرب منها وتجنب ماقد يحدث لهم مستقبلاً. لقد فعل أعدائنا كل ذلك من أجل مسألةٍ أساسيه، وهي القضاء على الروح الجماعيه التي تربطنا، هذه

الروح التي تبث فينا الشجاعه والأقدام والتحدي. لا أعتقد من أنها خافيه عليكم، ففي تجاربنا السابقه خير عون للوصول إلى نتيجه مُرضيه. في لقاناتنا السابقه تحدثنا عن هذا الأمر، وعن جوانبه المختلفه كثيراً، ولا أظن من أن ثمة حاجه تدعونا إلى الأستمرار في مناقشته.. ما أطرحه عليكم، هو سؤال واحد ومحدد: هل توافقون على أستمرار التنظيم والحياة الجماعيه، أم تفضلون العيش دون ذلك، وتدبر كل أمريء أمر نفسه؟!.

سكت أزاد، وظلّ يحملق في الحضور، منتظراً الردّ. تعالت الأصوات من كل جانب دون أنتظام وتحولت إلى ضجيج وصخب:

- أنا مع التنظيم.
- كلّنا مع التنظيم، ومن لايتحمل ثقل الظروف، ليتنحى جانباً، وهو بذلك يسدي لنا معروفاً.
- لن يرهبنا شيء، ولن نتخلى عنه حتى لو كنا اثنين ..
- ليفعلوا ما يفعلوا، فالحياة دون تنظيم هُراء.

هكذا كان الردّ، ولم ينهض أحدٌ ليدلي برأي مغاير. لقد أرتسمت على وجه أزاد إبتسامةٌ عريضةٌ مشرقه، وخرج بريق باهر من عينيه، وشعر بفرحٍ بالغ، وهو يجد علامات الجرأه والأصرار على الوجود، تنفس بعمق وأطلق الهواء المحبوس في صدره، كمن يلقي بعبء ثقيل جانباً، لقد فعل نشاطه للأيام السابقه، فعلاً سحرياً لم يتوقعه، كاد اليأس أن يسيطر عليه في أول يوم تلا الهجوم.. كانت الكآبه ترتسم على الوجوه كسحابةٍ سوداء، فأختطفت البسمه من الشفاه، وأطفأت البريق في العيون.. ولكن اليوم تغّير الأمر، عاد البريق يتدفق من العيون من جديد، والشجاعه عادت لتملأ النفوس ولترسم علامات التحدي على الجباه، فالسحابه السوداء المكفّهره، قد تبددت وزالت.

وقال بفرح:

- أنه لموقفٍ رائع جداً، ماكنت أتوقع غير هذا يارفاق.. والأن أمامنا مسألة أختيار أعضاء لجنة التنظيم، وقد سبق وأن جرى التداول حول ترشيح بعض الرفاق، تعرفون أسمائهم جميعاً، بل وتعرفونهم شخصياً، ليس في السجن شيء يمكن أخفائه عن البعض، فأننا نعاشر بعضنا ليل نهار، ولكن مع هذا فأنتم أحرار في أختيار من تشاؤون ومن تعتبرونهم أهلاً لثقتكم، فهذه مسؤوليةٌ كبيره وعبء ثقيل لمن يتحملها.

بعد مناقشةٍ لم تدم طويلاً تم أختيـار: أزاد عبـد الجيـد وعمـر عـارف وخليـل عبـدالرحمن، وكـريم ناجي، ودلزار مصطفى، وسط عاصفةٍ من التصفيق.

وتم أختيار أزاد مسؤولاً أولاً بالأجماع وعند ذاك ألقى أزاد كلمةً قصيرةً قال فيها:

- رفاق أشكر أولاً موقفكم الرائع، وأشكر ثقتكم بنا نحن أعضاء اللجنه المنتخبـه. لقـد حسمتم أمراً كان يقلق بالنا، ونحن نعاهـدكم في أن نكـون موضـع ثقـتكم وأستحـسانكم علـى الـدوام، أوفيـاء للمسؤوليه التي سنتحملها،.. سننهض بالدروس والخبر الـتي أفرزتهـا الأيـام الـسابقه.. سـنتعلم مـن أخطائنـا، ونحولهـا إلى تجربةٍ غنيـه لرسـم خطانـا مـستقبلاً، ولكـم أن تراقبـوا مانفعلـه وأن تنتقـدوا بموضوعيه ما ترونه غير صائباً، أو مضراً بكم، فالنقد والنقد الـذاتي هـو سـلاحنا في محاربـة الأخطـاء وتصحيح المسيرد.

.. ثم تكلم كلّ من الرفيقين خليل ودلزار كلمات مقتضبه، وبعد ذلك أنفضّ الأجتمـاع. وفي الليـل أجتمعت اللجنه المنتخبه، وأتفق الأعضاء على الخطـوات اللازمـه. فقـد كُلّـف خليـل بكتابـة مـسودة الطلب بأعتبارد كان طالبـاً في كليـة الحقـوق أكمـل الـصف الـثـاني فيهـا، ولـه معرفـه بـبعض الأمـور القانونيه، بعد أن حددت اللجنه له المطاليب والنقاط الواجب أدراجها فيها وتم أيضاً تشكيل الوفد من خمسة أعضاء، برئاسة أزاد، وعضوية أربعه أخرين كـان بيـنهم خليـل ودلـزار عـضوي لجنـة التنظـيم، والبقيه من باقي الرفاق، فقد رأى أزاد أن لايزج بكل أعضاء لجنة التنظـيم في عمليـة المجابهـه الجديـده خشية أجرانات محتمله قد تتخذها الأدارد ضدّهم. في اليوم التالي وُقعَت العريـضه مـن الجميـع وحملـها الوفد إلى مدير الـسجن. كانت غرفة مدير الـسجن فسيحةً وواسعه، تتصدرها طاولةً عريضةً مـصنوعه من خشب الساج، تتكوم عليها بضعة أضابير في جانب وفي الجانب الأخـر، محفظـةً صـغيرد مـن الخـشب البني اللون تراكمت عليها الأوراق والكتب الرسميه، في الأمام بعض اللـوازم المتعلقـه بالعمـل كحاملـة الأقلام، والمجارير، والأقلام، وعلبة الـدبابيس وسـكين فـضّ الظـروف وغيرهـا. كـان أزاد يتـصّدر الوفـد عندما دخلوا الغرفه، في البدء جال ببصرد في أرجاء الغرفه، وأستقر نظرد في البدايـه علـى وجـه المـدير المكتنز الحليق بعنايه، الذي كان يرتدي بدلةً عسكريةً ضيقه أنيقه، تزين كتفيه قطع نحاسيه لّماعه، تـاج مع نجمتين، دفع بصدرد العريض إلى الأمام، وهو الأخر كان يتفحصهم بأهتمام واحداً تلو الأخر بعينيـه النفاذتين، كانت صورة كبيرد للملك فيصل الثاني موضوعه في إطارٍ خـشبي بنّـي اللـون، معلقـةً علـى

الحائط، فوق رأسه من الخلف، وفي الجانب الأخر عُلّق على الحائط خارطةٌ كبيره للطرق وبجانبه خارطةٌ تخطيطيه بمرافق السجن وردهاته كانت تبدو من بعيد أرقام ودوائر سوداء.

- حسن.. قال ذلك وهو يتفحص الطلب الذي تسلمه منهم، وقرأ سطورها بأمعان. حسن لقد أصبح الموضوع واضحاً لي، ولكن ليس بوسعنا أن نوافق على كل ماجاء فيه.. قال ذلك ثانيةً وهو يمّسد براحة يده خصلات رأسه القصيره، التي أختلطت فيها الخيوط البيضاء بالسوداء، لم يعترف القانون بكم كسجناء سياسيين، وبالتالي ليس بأمكانكم التمتع بالحقوق والمزايا الخاصّه بهم.

- ولكننا سياسيون، ياسعادة المدير.. أو ليس ذلك واضحاً لكم؟

قال ذلك أزاد بهدوء، وقد ترجرجت على شفتيه إبتسامةٌ باهته.

- أجل أعرف تماماً ذلك تماماً، ولكن ما أعرفه شيء ومايقّرد القانون شيءٌ أخر.

قال ذلك المدير، وهو ينقر المنضده بأصابعه.

- لندع مسألة الأعتراف القانوني بنا كسياسيين، أنتم لا تعاملوننا حتى كسجناء عاديين.. لقد أُرتكبت بحقنا في هجوم ذلك اليوم، وقد أوضحناه تفصيلياً في الطلب، مالم يُرتكب حتى تجاه أعتى الجرمين.. الضرب المبرح حتى الأغماء، ..أن أجساد معظمنا تحمل شواهد داميه لذلك الهجوم، لايزال عدد من رفاقنا مُلقى في الزنزانات الأنفراديه وهم مكبلون بالحديد.

- لقد ابلغني المأمور من أنهم أعتدوا على السجانين، ولم يمتثلوا للنظام ونحن ليس بوسعنا التساهل إزاء ذلك.

- سعادة المدير، لقد جرّدونا من كل شيء، حتى من البيجامات والأفرشه ولوازم العيش، بتنا نقف كالمتسولين في طابور نحمل صحون الطعام بأيدينا ونجلس القرفصاء في اليوم ثلاث مرات، وسط الساحه، ولهيب الشمس يحرقنا في عملية تسمونها المسطر.. ألا يمكن عدّنا ونحن جالسين على أفرشتنا داخل القاعه كما كان في السابق.. أتعتبروننا بهائم أم ماذا؟

تنحنح المدير، وأرتسمت علائم صرامه مفاجئه على تقاطيع وجهه:

- أنتم الذين جلبتم البلاء على أنفسكم، لقد كنا نحترمكم، ونوفر لكم كل أسباب الراحه كنتم تمتعون بالكثير من مزايا السجناء السياسيين، دون أن يعترف القانون لكم بذلك.. لكم مطبخ خاص، والطعام يأتيكم من ذويكم في أي وقت، الأرزاق تتسلمونها من المتعهد.. تشرفون بأنفسكم على أعداد طعامكم.. الكتب والصحف تأتيكم عدا الممنوعه منها، تلبسون وفق ماتشاؤون، تتصرفون وفق

ماتريدون، تستحمون وتغتسلون بأنتظام، تراجعون مستوصف السجن متى تشاؤون، ولكن ماذا نفعل إذا كنتم تريدون إقامة جمهوريةً خاصةً بكم في السجن، مارشاتكم الصباحيه وأناشيدكم التي كانت تصّك الأسماع في اليوم مائة مرّد، إجتماعاتكم، خطبكم، و..و.. قد أغاظتنا وأغاظت السلطات العليا، لذا فالأجراء الذي أُتخذ لم يكن وليد أفكارنا فقط، ولم يعد بوسعنا مشاهدة مايجري.

- ماذا يعني كلّ هذا الكلام؟.. أيعني أنكم مصممون على إذلالنا وأهانتنا أقول لك بصراحه، بأننا لن نسكت عن كل هذا، وليس بوسعكم أن تجعلوننا نستكين كالخرفان لأوامركم.. هل جيء بنا للسجن كي تنتقموا منا بهذه الشاكله؟!

قال ذلك خليل وقد تطاير الشرر من عينه السليمه ..

- وماذا بوسعكم أن تفعلوا ياخليل؟

- هه.. ماذا نفعل؟.. نفعل كل شيء.. سنضرب عن الطعام حتى الموت.. سنثير عليكم عوائلنا واقرباءنا وذوينا.. سوف لن يسكت الشعب عليكم أبداً.. هه نحن لن نخاف شيئاً. أي نظام خرقناه، لقد أطلقتم الذئاب علينا لتنهش لحمنا، وتريدون أن نستكين، نقف كي يحطمّوا أضلاعنا، دون أن ندافع عن أنفسنا.. أقول لك بصراحه، بأننا لم ندافع عن أنفسنا كما ينبغي، لقد فوّجئنا بهجمتكم، ولو تكرر هجوم أخر علينا، سوف لن نقف مكتوفي الأيدي، ولن تخرج أجسادنا إلا جثة مضرجةً بالدماء، سنفعل اي شيء للدفاع عن كرامتنا أتفهمون؟!.

كان الغضب قد تملك خليل، فجّف حلقه، وبدأت شفتاه ترتجفان، وأكتسى وجهه بشحوب باهت، وكان منظر عينه المريضه، بشعاً، فقد جحظت كتلةٌ زرقاء داكنه، وبدت كالكره، خارجه من محجرها.

لاحظ أزاد، وجه المدير يتغيّر، وتقاطيع الغضب، تظهر كخيوط بارزه في جبينه، خّمن من أنه يكمن شراً في نفسه، تجاه خليل، ولربما تجاههم جميعاً.

قال مخاطباً المدير، وهو يحاول التخفيف من وقع كلمات خليل:

- سعادة المدير أرجوا أن لا تؤاخذوه، أنه لم يقصد في كلامه شيئاً تجاه سعادتكم. لقد أراد فقط، أن يوضح مبلغ الأهانه والأعتداء اللذين وقعا علينا، أنت رجل عسكري، ولا أظنك ترضى بالذُل والهوان لأحد، وتقّر الهجوم على نفر مجرد من السلاح، أعتبرونا كأسرى، وطبقوا بحقنا قوانين الحرب لاغير.

سكت أزاد، ولاحظ أن كلماته نفذت إلى أعماق المدير، فرآه يطرق رأسه فجأة، ويستغرق في تفكيرٍ عميق ويتأوه في الخفاء، ثم رفع رأسه، وقد تلاشت إمارات الغضب من على وجهه، خرجت من عينيه نظرةٌ هادئه، لمح أزاد فيها العطف والأسى، ثم بدأ يتكلم.

- لابأس عليك ياخليل لابأس.. أن كنتم تريدون الحق، لم أكن مطّلعاً على كل هذه التفاصيل، لقد كان هذا الواجب مودعاً إلى المأمور فوزي، وخوِّل من الصلاحيات ماتجعله قادراً على معالجة حالة الفوضى.. ولكن- قال ذلك وهو يتأوه- ثقوا من أنني لا أضمر لكم شراً في نفسي، فلقد خدمت في الجيش سنواتٍ طويله، وكنت أحمل في نفسي مبادئي الوطنيه، جئت إلى هنا منذ سنةً واحدةً فقط، ولست متأكداً من أنني أُجيد مهنتي الجديده، ولكن وعلى أية حال فأنني أعتبر السجن مكاناً للصلاح والهدايه وإن كان بالأساس عقاباً ضرورياً كرادع، أنتم مثقفون، فيكم الطالب والمعلم والموظف ومعظم شرائح المجتمع، أنني على أستعداد لتلبية طلباتكم المعقوله ولكن بشرط.

- ماهو هذا الشرط ياسعادة المدير؟

قال أزاد ذلك وقد تهلل وجهه بالبِشر.

- أن تراعوا النظام، وتتصرفوا برويّه.

أراد خليل أن يتكلم، ولكن أزاد قاطعه قائلاً:

- لنرى ماتتفضلون به، ومن جهتنا سوف لن نفعل شيئاً يحرجكم.

قال المدير:

- حسنٌ.. لا أناشيد ولا أجتماعات صاخبه، ولاعمل سياسي داخل السجن أفهمتم؟.. توقف قليلاً، بينما أتجهت نحوه أنظار الوفد، ثم أردف قائلاً:

- حسنٌ.. سنترك لكم حرية العيش، اي أن ترتبوا أموركم كما تشاؤون دون ضجه، أو ضجيج، ستعاد لكم البيجامات والأفرشه واللوازم الأخرى، سوف لن تصطفون في الطابور لأستلام الطعام اليومي، سوف نخصص لكم طباخاً من مطبخ السجن كالسابق، تشرفون على أعداد طعامكم، ولكن الأرزاق لن تسلم إليكم مباشرةً، ولا ممانع في أستلام الأطعمه والهدايا من ذويكم.

- والرياضه، والصحف، والكتب..؟!

قال ذلك أحدهم.

- الرياضه لاتمانع، شريطة أن لاتجري كالسابق.. تمارين لتنشيط الجسم دون مارشات وضوضاء ونشيد أفهمتم؟.. والصحف لابأس، سنكلف المتعهد بذلك..أمّا الكتب فبأمكانكم أستعارتها من المكتبه.

- ومحاسبة المأمور فوزي، والسجانين الأخرين؟!

قال ذلك دلزار.

ضحك المدير، وهو يحك ذقنه:

- أتريدون أجراء محاكمه لهم؟!.. لندع هذا الأمر جانباً فهذا مطلب لايمكن النظر فيه ولكن سوف لن يتكرر ماحدث لو تعاونتم معنا، وعلى أية حال بالأمكان أن تراجعوني في أي وقت تشاؤون لأي موضوع بحقكم وسأبلغ المأمور بذلك.

- بقي شيءٌ واحد، يعتبر أساسياً بالنسبة لنا- قال ذلك أزاد بوجهٍ مبتسم- وهو مصير زملائنا العشره في الزنزانات الأنفراديه، أنهم لم يفعلوا شيئاً، سوى أنهم تلقّوا من الهراوات واللكم والضرب، ماكان كافياً لسحق عظامهم، مانطلبه هو أطلاق سراحهم.

- سننظر في أمرهم بعد أن أطلع على أوراقهم.

- أية أوراق ياسعادة المدير، أنهم ليسوا إلا ضحايا ذلك الهجوم.. نحن لن نبرح غرفتكم إلا ويعودون معنا.

تعالت أصوات أخرى من أعضاء الوفد تطالب جميعاً بنفس المطلب.

فكّر المدير قليلاً، وقال مبتسماً:

- حسنٌ ليكن ماتريدون، ولكن لاتنسوا شَرطي أنا.. المحافظه على النظام وعدم الأتيان بعمل قد يحرجني أمام رؤوسائي أفهمتم؟

ثم رفع سماعة التلفون وطلب من البداله أيصاله بالمأمور فوزي، وأمره بأطلاق سراح السجناء العشره من الزنزانات الأنفراديه، وأبلغه بأجراءاته الجديده.. وتعالى صوت المأمور فوزي وهو يردد: بأمرك سيدي.. في الحال.

ثم تناول القلم وخطّ بحبرٍ أخضر على الطلب بضعة جمل وعبارات ودق الجرس، فحضر الحارس على الفور، وهو يؤدي التحيه العسكريه:

- خذ هذا الامر وسلمه إلى المأمور فوزي.

تقدّم أزاد من المدير، ومن بعده أعضاء الوفد، وصافحوه:

- نحن نشكرك كثيراً، وأنت تردّ إلينا بعض الحقوق.

نهض المدير من مكانه، وودّعهم بأبتسامةٍ وادعه عريضه وخرج أعضاء الوفد وفي مقدمتهم أزاد، وقد تهللت وجوههم بالبِشر.

وعندما عادوا، أحاط بهم السجناء من زملائهم كأحاطة السوار في المعصم، وأنهالت عليهم الأسئله من كل جانب، كالمطر الغزير:

- قَل شيئاً يارفيق أزاد، لقد كاد القلق ينهشنا على مصيركم.

- لقد أجتمعنا وقد قررنا الأضراب عن الطعام في حالة عدم عودتكم.

- لقد هيأنا حتى صيغة الطلب.

- لابل هيأنا أنفسنا لمعركةٍ حاميةٍ ا لوطيس.

وقال أحدهم ضاحكاً:

- لقد جمعنا القناني الفارغه، والأواني، والأحذيه... .

- لاحاجةً لكل ذلك يارفاق.. لقد نجحت مهمتنا وجئناكم بمعظم مطاليبكم سوى القليل منها، وهي ليست ذات أهميه.. سنتحدث لكم بالتفصيل فيما بعد. أين طعامنا، يكاد الجوع يهلكنا.

- هيأوا للرفاق المنتصرين شاياً ساخناً أيضاً، سنتحفل بهذا النصر هذا المساء أليس كذلك يارفيق أزاد.

أجاب أزاد وهو يضحك:

- أتريدون أن ننقض العهد وحبره لم يجف بعد؟.. لا..لا أبداً لن نسمح بالأمور الصغيره، تفسد علينا القضايا الكبيره.. لاينبغي أن نعود إلى الأحتفالات، والأجتماعات والندوات الصاخبه، التي قد تُستَغل ضدنا، ينبغي أن نتعلم الدرس من أخطائنا يارفاق أفهمتم؟

- ولكن ماذا، هل تفسد علينا سرورنا بالنصر؟

- لا أبداً، ولكن هناك أشكال مختلفه للتعبير عن السرور.. ومع ذلك لابأس إذا كان الأحتفال يجري دون ضجيج وصخب وأنشاد.

- ولكن أين رفاقنا المحجوزين، لِم لَم يعودوا معكم؟

- ألم يوافقوا على إطلاق سراحهم؟

- مهلاً .. مهلاً يارفاق لِم كل هذه العجله؟.. سوف يأتون بعد قليل.

قال ذلك خليل.

- ولكن ألن تقولوا لنا كيف حققتم هذا النجاح، والله لم نكن نتوقع ذلك أبداً.

قال ذلك أحدهم مندهشاً، كاد يلتصق بدلزار الذي قال له:

- هل تريد الصراحه، فالفضل يعود للرفيق أزاد، لقد كان مفاوضاً بارعاً، عرف كيف يخاطب المدير بلياقه، ويغوص في أعماق نفسه ليستثير فيها أرهاصات الخير.

- خير هه ، أي خير؟! لقد مثّل الدور ببراعه ليس إلا، ونحن؟ - صرخ خليل- ألم نفعل شيئاً؟!.. ألم أقحم المدير بردّ يليق به؟

- إن اردت الصراحه - قال ذلك أحد أعضاء الوفد- .. لقد كدت أن تُفشِل مهمتنا بتهورك، وتلقي بنا إلى الزنزانه بجانب زملائنا العشرة!

- كفى، كفى يارفاق، الفضل يعود إلينا جميعاً، أعضاء الوفد، وأنتم الذين هيأتم أنفسكم للدفاع عنّا.. قال ذلك أزاد.

لم تمر برهةً وعاد الرفاق المحجوزين، وعلى ثغورهم إبتساماتٍ مشرقه، أحاط بهم الأخرون من كل جانب، وتلقوهم بالأحضان وشدّ الأيدي والقبلات على الجباه والوجنات، وكان ذلك اليوم، يوماً مفرحاً مبهجاً للجميع. •

-١٤-

منذ أسبوع، والسجناء يعّدون أنفسهم للمقابله السريه، فهي النافذه التي يرون منها أحداث الخارج، حتى أولئك الذين لا يتوقعون أن يزورهمّ فيها، أحد من الأهل والأقارب، ينهضون منذ الصباح الباكر، كالأخرين، يحلقون وجوههم بعنايه ويلبسون تحت ملابس السجن، قمصاناً نظيفه، و مكواة. وكان - أزاد- قد أعتاد على الخروج معهم، وأن كان متيقناً من أنه لن يلتقي بأحد من أقاربه.. ولكنه يلتقي دون شك بذوي رفاقه الأخرين، والأصدقاء والمندوبين الذين كانوا يزورونه، كي ينقلوا له الصوره في الخارج، وينقلوا أيضاً صورة السجن وأوضاع السجناء، إلى من هم في الخارج. ولهذا السبب كان متشوقاً ليوم المقابله أكثر من غيره، ولكن هذا اليوم كان يشعر بضيق، وقلق ينهش أعصابه، إنه مُلزم في أيصال رسالته (السريّه) إلى يد المندوب، الذي سيحضر هذا اليوم ولكن كيف؟!.. السجناء قبل إنتقالهم إلى ساحة المقابله، يُفتشون بدقّه، ولكنه شعر بنوع من الأطمئنان، لأن خطتهم دقيقه قد لاتختطر على بال الأداره، ولقد دُرست منذ أيام، وكانت الفكره من أساسها تعود للرفيق (علي الصغير)، حينما قابل أزاد وقال له بحماسته المعهوده! (إن كان لديكم أي شيء تبغون إيصاله للخارج، بمقدوري حمله، دون خوف، فهناك ممر مباشر بين المطبخ وساحة المقابله).. (أموقنٌ أنت فيما تقول؟) .. وكيف لايارفيقي، لقد سلكت هذا الطريق في المقابلات السابقه، ولم يعترضني أحد.. كن مطمئناً سأنهض بالمهمه، ولاتقلق). حينما أصطف السجناء، أمام السجانين ومأموريّ السجن، كان (أزاد) يقف في الصف الخلفي، يرقب عملية التفتيش بأهتمام، ولكنه كان مطمئناً لأن أحداً منهم لم يكلف بأيصال شيء، .. يقف السجين منتصباً، ممدود الذراعين إلى الجانبين يتولى، حارس ما، تفتيشه بدقةٍ، طيّات أكمام قميصه، ثقوب أذنيه، جيوبه، يتم تحسس جسده من الرأس حتى القدمين، ثم يطلب منه خلع حذائه، لتفتيش داخله، بينما أخرون يتولون تفتيش الأواني والحاجيات.. هكذا كان المشهد يُكررّ مع كل سجين.

أوشكت عملية التفتيش على الأنتهاء، ولكن ماحصل، لم يكن يخطر على بال - أزاد- لقد أنتفض من موضعه وسرت في جسده، رعشةٌ، أهتزّ لها كل كيانه، كان يحملق في حارسين يقودان عدداً من

السجناء المكلفين بالأشراف على المطبخ، كان بينهم (علي الصغير) ويقولان للمأمور: (أنهم كانوا يريدون الذهاب إلى ساحة المقابله، من هناك)

- حسناً فعلتما، ماذا هل يهربون من التفتيش؟.. أجلسوا في هذه الزاويه، كالأخرين.

حينماً تقدم علي للتفتيش، كاد قلب أزاد أن يتوقف عن الحركه، وقد لمح في ملامحه علائم شحوب، وأنفعال نفسي عميق. قال في نفسه: تُرى مالذي دعاهم إلى هذا الأجراء؟!.. أيكون أحدٌ ما عرف بالأمر فوشى به؟!.. ولكن لايعرف بالأمر سوانا وأعضاء اللجنه.. أيجوز أن أحداً ما أحس به، ولربما قرأ ذلك في ملامحه؟.. ياترى، كيف سيتصرف؟.. لا يُعقل ذلك! .. أتراه يحمل الرساله في جيبه؟..لا.. لايعقل ذلك؟ . ظلّت عيناه القلقتان معلقتين بالحارس الذي كان يتولى تفتيشه.. فتش جيوبه، وتحسس بيديه كافة أطراف جسده،.. حتى حذائه، فتشها بدقه. تنفس أزاد، الصعداء، أحس ولو لحظه بشيء من الأطمئنان يعود إليه وقال في نفسه (لقد فعل حسناً، إذ تخلص منها.. لربما ألقاها في سعير نار المطبخ، كنت أعرف سيفعل ذلك). ولكن ما أدهشه، هو طلب السجّان أن يقف مجددا، ممدود الذراعين إلى الجانبين، فحص تحت إبطيه، ثم ركّز بصره إلى طيات أكمام القميص ألذي يلبسه، وقد كانت ملفوفتين متسختين بالسواد. تحسسها السجان في البدايه: (ماهذا؟!)..(لاشيء، لاشيء، لقد أعتدت على طي أكمام القميص في المطبخ، كي لا تتسخ) أدرك (أزاد) من نبرات صوته المختلجه، من أنه يرتعش. تعلّقت الأبصار به وبالسجّان، وكأن الجميع، ينتظر، حدوث، شيء ما. بحركة سريعه، حلّ السجّان طيّات الأكمام، فسقطت على الأرض، عُقدة صغيرةٌ، ملفوفه، لايتجاوز حجمها عن نصف أصبع. أستفسر السّجان بأندهاش (ماهذا) ثم ألتقطها بسرعه، وأنتفض أزاد من مكانه ثانيةً، وهبَّ واقفاً دون إرادته، ينظر إلى المشهد بعينين تائهتين.. (آه، أنهاالرساله.. لقد وقعت.. يالك من مغفل، كيف لم تتدبر الأمر بذكاء؟!). صرخ السّجان، بأعلى صوته، فرحاً، (إنها رساله).. هرول المأمور نحوهما، تبعه أخرون، كان يدمدم: (يالك من ملعون، كنت تريد أن تغافلنا، وتهربها من هناك للخارج).

- ولكنها ليس لي؟

- إذن لمن هذه الرساله.. قل لمن؟

قال المأمور، وهو يصرخ فيه بصوته الأبح.

- لست أدري.. لست أدري، لربما أنتم الذين..

قال ذلك (علي) بصوت، مرتعش. وكان يبدو من نبرات صوته، من أنه نفسه، غير مقتنع بهذا الجواب، الذي قذفه في وجههم، ولكنه لم يجد في هذه اللحظه، المفاجئه، الحرجه، شيئاً أخر يقوله. لقد توقف ذهنه عن التفكير الجدّي، يكاد لا يعرف، كيف حصل كلّ ذلك، وكيف لم يُلقِ بالرساله، إلى النار، قبل أن يقودوه إلى هنا؟!.. أنه لا يمكنه أن يقول شيئاً سوى الأنكار، ليس أمامه من سبيل، لمواجهة تحقيقاتهم، أسهل جواب، وأيسر سبيل، ليفعلوا مايفعلون، هكذا كان يفكر مع نفسه، حين أقتاده السجانون، إلى حيث يجري معه التحقيق والأستجواب. تبعته العيون، بألم بيّن، أنطفأت على الأوجه، بسمات الفرح، وبدت كئيبه وشاحبه، وتوجهوا إلى الساحه، لملاقاة أهلهم وذويهم، دون أن يحّسوا بتلك الرغبه العارمه التي كانت تعترم في نفوسهم، قبل هذا الحادث بلحظات.. (تُرى ماذا كانت تحوي تلك الرساله؟.. أية أسرار تتضمّنها، وما درجة خطورتها؟!.. وأية نتائج تتمخض عنها؟) .. كانت هذه أسئلةٌ، تدور في أذهان الجميع. مواجهة هذا الشهر، كانت ملفته للنظر، فالساحه كانت غاصّه بحشدٍ كبير من الناس، نساء، رجال، شباب، أطفال من مختلف الأعمار، لم يكن جميعهم من أهل وعوائل السجناء، بل كان من اليسير ملاحظة وجود جديد، لم يروها في المقابلات السابقه. الجميع كانوا ينتظرون بشوقٍ وبلهفه مجيء السجناء إلى الساحه، عيونهم كانت معلقه بقلق بذلك الممّر الذي يدخل فيه السجناء إلى الساحه، وكان سبب قلقهم، هو تأخرهم عن القدوم لمدة تزيد عن الساعه، لم يكونوا يعرفون ماحصل لهم بالضبط، ولكنهم كانوا يخمنون من أن أمراً غير أعتيادي قد حصل.

.كان همسٌ خافت، يدور بينهم، وتساؤلاتٍ مختلفه تدورعلى الشفاه، عن سبب هذا التأخير. وعندما دلفوا إلى الساحه، أشرقت الوجوه بأبتسامات فرحه، وتدافع الناس نحوهم، فكان العناق الطويل والقبلات والتصافح، ليس فقط بين الأمهات والأباء والأخوه أو الأطفال وبين سجينهم، بل كانت هذه المشاهد تجري دون تمييز، وكأن الناس الذين أتوا للمقابله كانوا أهلاً لكل السجناء. أما أزاد الذي لم يكن يتوقع أن يزوره أحد، جاءه العديد من أصدقائه، كما وصافحه معظم الناس الموجودين. والتقى أحدى المقابلات وكانت أمرأةً عجوز، والدة أحد زملائه، قبلته من عينيه كأبنها، وكانت عيناها تطفح بالدموع وتسيل بين أخاديد وجهها وهي تردد: (روحي لكم فداء ياأولادي.. أنكم الزهور اليانعه، لاتستحقون أن تحجب عنكم ضياء الشمس.. ولكن أصبروا، أصبروا، فعمر الظالمين قصير)

أحسّ أزاد، وهو يستمع إلى كلمات المرأد العجوز ، بشعور يهّزه من الأعماق، تساقطت بضعة قطرات من الدمع من مآقيه، وكأن صوت العجوز، هو صوت أمه، يخاطبه من أعماق قبرها المُظلم،

لقد تحول الهمس إلى كلام مسموع وإلى أحاديث لاتنتهي، وتحول إلى صخب وضجيج ملأت أرجاء الساحه.. فالناس الذين جائوا للمقابله، لاتنقطع أسألتهم وأستفساراتهم عما دار في السجن في الشهر الماضي، يريدون أن يعرفوا أدق التفاصيل، يبدوا أن الأخبار قد تسربت إلى الخارج، وتناقلتها ألشفاه والألسن، وكلّ عائله لها سجين، تنقل الخبر إلى العوائل الأخرى، وإلى الأصدقاء والمعارف، رفاق الدرب هم الأخرون كانوا يدورون على ذوي السجناء، ولم يكن قلقهم أقل الماً منهم، ولكنهم كانوا يبعثون فيهم روح العزيمه والصبر، ويهدأون من خواطرهم، ويرسمون لهم في ذات الوقت السبيل الذي يستطيعون بواسطته، تقديم العون والمساعده للسجناء، بدلاً من العويل وذرف الدموع.. وهكذا أستطاعوا، أن يؤلفوا منهم وفوداً تدور على الجهات الرسميه، والصحافه، ونقابة المحامين، كما وظهرت المنشورات السريه، معلقه على أعمدة الشوارع، وعلى جدران الدوائر والبيوت، تدعوا الحكومه لوقف الحمله الأرهابيه الدمويه على السجناء، ومعاملتهم معاملةً أنسانيه، وتطالب بأطلاق سراحهم، وأطلاق الحريات الديموقراطيه. كان الناس الموجودين ينقلون هذه الأخبار إلى السجناء، ويتحدثون لهم بالتفصيل عن صورة الوضع في الخارج.. لاتزال الأحكام العرفيه وحالة الطوارىء، تجثم على البلاد، والمحاكم العرفيه، لاتزال تقذف بالمعارضين إلى السجون، بعد أن تحمّلهم أحمالاً ثقيله من السنين، المواقف لاتزال غاصّه بنزلائها، لقد أستطاعت السلطه، أن تصفي حتى تلك الحريات الضنيله، وتكمّ الأفواه، وتوجه ضربات ساحقه إلى الأوكار السريه، التي كانت عقبه أمام مخططاتها، وتثير الشعب بوجهها.. الأنكليز يثبتون أقدامهم عن طريق عملائهم من جديد، ويفرضون من جديد معاهدةً، تضمن مصالحهم، دماء وثبة كانون تذهب هدراً، وأشلاء معاهدة (بورتسموث) تخرج من قبرها من جديد. وفلسطين التي أُرسل أليها الجيوش، قد ضاعت نصفها، ولم يعد من مبرر لبقاء الجيوش التي لم يشأ الحكام أن تقوم بدورها.

عندما عرف الناس الذين أتوا للمقابله تفاصيل ماجرى، فرحوا للأنتصار الذي أحرزه السجناء، وخففت هذه الأخبار، عن ألام جروحهم التي كانت تنزف دماً، ولكن ماجرى ل (علي) هذا اليوم، وأنتشار الخبر بينهم، قد أثار شجونهم من جديد، وأرتسمت على وجههم إمارت القلق والكآبه.

كانت فتاةً شابةً، تحمل سلّةً غُطيت بقماش أبيض، تبحث عن (علي) بين الحشد في الساحه، وتحدثت مع أحد السجناء، فأصطحبها، وعرّفها ب (أزاد). قالت بصوت خفيض:

- لقد جئت لمقابلة (علي) وجلبت له..

تدخل السجين الذي رافقها:

- إنه الرفيق أزاد بأمكانك أن تخبريه بما تشائين.

تهلّلت أسارير وجهها النحيل، بأبتسامةٍ ، ونظرت إليه بعينيها الواسعتين، و مدت إليه يديها الصغيره:

- مرحباً يارفيق، كنت أخشى أن أعود، دون أن أؤدي المهمه. لقد ألمني كثيراً ماسمعته، وأنني قلقه بشأنه.

- لاتخشى شيئاً، فأنه رجل، صلب، لا يلين له عود، ولكنني أنا الأخر متألم، لأنه لم يتسطيع أستخدام ذكائه للخلاص من المأزق الذي وقع فيه، ثم أن محكوميته كانت على وشك الأنتهاء، شهرين أو ثلاثه، كان سيخرج وكنا نحتاجه بالخارج.

سكت قليلاً، ثم تأوه، وقال:

- سيذيقونه عذاباً أليماً، ويحمّلونه أثقال سنين أخرى.. آ، هذا مايؤلمني، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟.. هذا قدره، ومن يدري، لعّل كل منا، ينتظره قدرٌ مماثل.

استأذن السجين الأخر، للأنطلاق، وتحدثت هي لأزاد برهةً من الوقت أصغى لها بأنتباه، ثم قالت:

- جئت ببعض المأكولات والفواكه، والسكاير. توقفت لحظه ثم أردفت قائله..تجدون في طيات (الدولمه) هديةً من الخارج.

- شكراً على الهدايا.. أسف لكون هديتنا الجوابيه، قد ضبطت مع (علي) ولا يوجد لدينا مانرسله، في الوقت الحاضر.

سكت أزاد وفكر قليلاً:

- بلغيهم تحياتنا، قولي لهم، بأننا نرى من غير الضروري أرسال (هدايا) في هذه الأيام، فالرقابه شديده، والتفتيش دقيق، ولانريد أن تتكرر حادثة الرفيق (علي)، وقد تكون لها عواقب وخيمه على الخارج، الوضع عندكم غير مستقر، ونحن قادرون على تدبير أمورنا، ليس لنا مهام، سوى العنايه بأنفسنا، ولانريد منكم الأنشغال بنا، لأن مهماتكم ثقيله وعسيره.. وأقترح أيضاً ان لا تأتي ثانية للزياره، فقد تراقبين، بعد ماحدث اليوم، ثم توجها إلى ذوي ذلك السجين الذي رافقها وعرّفها بازاد، وطلب أزاد منه، أن يستلم السله، وينقلها مع حاجياته إلى داخل السجن..

خيّم جوٌ من الكآبه على السجناء، بُعد حادثة علي وكانت أخبار تعذيبه تتسرب إليهم عن طريق بعض السجانين. لقد أستخدم السجانون معه مختلف صنوف التعذيب، وكانت إدارة السجن تسرّب الأخبار من أنهم تمكنوا من أنتزاع (الأعترافات) منه. كان أزاد أكثرهم قلقاً لهذه الأشاعات، وظلّ يفكّر مع نفسه، ساعاتٍ طوال عمّا ينبغي أن يقوله فيما إذا إستُدعي للتحقيق. وكان مايخشاه أن يُستَكتَب ويقارن خَطّه بخط الرساله، وينكشف أمره، وكان موقناً من إنه سيُخضَع هو الأخر إلى تعذيب أقسى وأشد من رفيقه (علي).

جمع لجنة التنظيم وتدارس الأمر معهم بصراحه، وأقترح عليهم أختيار عدد أخر من الرفاق لتحمل المسؤوليه، فيما إذا أقتيدوا إلى الزنزانات الفرديه للأستجواب. و تفتق ذهن أزاد عن فكرةً وهي تعويد نفسه الكتابه باليد اليسرى، ولذلك فقد أخذ يقضي ساعاتٍ طويله من النهار، يّمرن نفسه على هذه العمليه، ويسوّد صفحاتٍ كثيره من أوراق بيضاء. وجد صعوبه في اداء هذا التمرين، في البدايه، ولكن أستطاع بمرور الأيام أن يكتب بصورة أعتياديه بيده اليسرى. وخلال تلك الفتره، لم يُستدع أحدٌ من السجناء الباقين للتحقيق معهم في أمر الرساله، ومع ذلك فأن أزاد ظلّ بين الشك واليقين، إزاء إشاعات الأعتراف، إلى أن جاءه أحد السجناء كان قد عاد من مستوصف السجن، وقد أرتسمت على وجهه المبتسم، كآبةً دفينه، وقال:

- كانوا يكذبون.. أجل كانوا يكذبون. لقد قابلت الرفيق علي وتحدثت معه.

- كيف قابلته؟.. وماذا قال؟.. وكيف وجدته. هيا أشرح لي.

- كان بطلاً، كنت أعرف ذلك، سألته بخجل، هل صحيح مايُشاع عنك؟ قال وماذا يشاع عني يارفيق؟ يقال أنك أعترفت بكل شيء أصحيحٌ هذا؟ قُل لي فنحن قلقون، غاية القلق.

- قال وقد أرتسمت على وجهه المُشعر غضبٌ جامح: ليخسأ هؤلاء الأنذال فأنا لم أُخلق لهذا الموقف. لقد جرّبوا كل وسائلهم الخسيسه، ولكن هيهات أن يظفروا بشيء. لقد أنتهى أستجوابهم، وسيقدمونني إلى المحكمه العرفيه خلال أيام. بَلّغني أن أحمل اليكم ولكل الرفاق تحياته، وطلب تزويده بحاجياته الشخصيه، وأدوات حلاقته، لأنه لم يحلق طوال الفتره الماضيه.

حينما سمع أزاد، هذه الأخبار، تهللت أسارير وجهه بالبشر، وشعر بفرحٍ عارم يغمره، لم يشعر بهذا الأحساس، طيلة وجوده في السجن، كما يحسّ به في هذه اللحظه، وهو يتلقى خبر صمود علي.

قال وقد كانت عيناه تشّع ببريقٍ ساطع:

- كانت ثقتي فيه عظيمه، وكنت أعلم من أنه سيصمد، حتى النهايه.

تركه ذلك السجين الذي جاء بالنبأ إليه، وظلّ أزاد واقفاً برهةً من الوقت، يستعرض في ذهنه بعضاً من ذكرياته مع علي.

لقد تعرّف إليه منذ أمدٍ بعيد، حينما كان هو طالباً صغيراً في الصف الخامس الأبتدائي بمدينة (أربيل)، حضر مع أبن عمهِ أحدى الأحتفالات في أحد البيوت، لم يكن يدرك أنذاك ماكان يجري بالضبط، لقد وجد الصخب والنقاش والحوار الحاد ثم تلاها شرب الأنخاب الذي ساد بين الضيوف الذين كان أكثرهم من الشباب، يتكلمون بحماسٍ وينشدون، عرف فيما بعد أنهم كانوا جماعةً تعمل في حزب (هيوا)، وتلك الحفله لم تكن سوى أحدى مناسبات ذلك الحزب، كان ذلك في بداية الأربعينيات. إنه لايذكر التأريخ بالضبط، ولكنه لمح علي لأول مره في ذلك الحفل، بقامته القصيره، النحيله، وعيناه النفاذتان الصغيرتان اللتان تغطيهما نظارةً بيضاء، رآه يصافح إبن عمه، ومن ثم بدأ يتردد عليه بين الحين والأخر، كلما جاء من مدينته.. (ياله من مخضرم، منذ ذلك الحين وهو يعمل في السياسه). قال ذلك في سره بأعجاب.

لقد عرف من زملائه، الذين حكموا دفعةً واحده معه، من أنه أشترك بنشاطٍ في المظاهرات التي قامت في مدينته.. أيام وثبة كانون، والمظاهرات الأخيره التي أندلعت في معظم المدن العراقيه.. كان يركض كالبرق حاملاً الشعارات البيضاء المكتوبه بخطوطٍ حمراء، وأسراب الشرطه تطارده من كلٍ صوب لأنتزاعها منه، كان يتحدى بشجاعه، ويقفز بقامته القصيره من بين حشد المتظاهرين إلى الأعلى، يصرخ، يهتف ويلعن، وكأنه يواجه الطوفان.. لقد سمع عنه من زملائه قصصاً كثيره، عن نشاطه السياسي، وجرأته وبسالته، كما كان أزاد يستمتع بالجلوس معه دائماً، ليستمع إلى ذكرياته القديمه، ولربما سّر أعجابه به يعود إلى ذكرياته عنه في ذلك الحفل السياسي الذي رآه فيه لأول مرّه، إن شكله لم يتغير، بل ويبدو إنه أصغر بكثير من سنهِ الحقيقي، وفي السجن ظلّ بسيطاً ومتواضعاً، مندفعاً للعمل، جريئاً في تحمل المسؤوليه، يقوم بأي عمل يُعهد إليه بتفان، حتى تلك الأشغال التي كان العديدون يرفضونها كالعمل في المطبخ- مثلاً-. وفجأه ضحك أزاد مع نفسه، ضحكةً صامته لم يدر كيف قفز إلى ذهنه، ذلك الموقف المضحك الذي حصل معه ومع زميله (حمه بكر)، الذي كان معروفاً بالنكته وأضحاك الأخرين. ذات مساء، كانا بصحبةِ أزاد يذرعون ساحة السجن الضيقه، جيئةً وذهاباً، وكانوا يتحاورون في مختلف القضايا السياسيه، هذه كانت عادةً سائده لدى معظم السجناء،

فجأه تعثر علي بحفره صغيره وسط الساحه، تمايل بسببها وأمسك (حمه بكر) من ذراعه، وصرخ فيه ضاحكاً:

- مابالك يارجل، لقد كدت أن تسقط.

اجابه علي وهو ينظر إليه من وراء نظارته:

- ألا ترى مايفعل بنا الأستعمار ياصديقي؟.. ألا تراه لايدعنا وشأننا حتى في سجونهم، يريدوننا أن نتعثر حتى ونحن مأسورون لديهم؟

أجابه (حمه بكر) هازناً:

- ألا تقل لي يا (علي) لماذا تقحم الأستعمار في كل شيء وماعلاقته بهذه الحفره؟!

- يالك من غبي؟! أن كل البلاء والمصائب التي تصيبنا هي من الأستعمار،.. هذه الحفره وغيرها.. حتى عندما تدهسك سياره وأنت سائر في الشارع أو عندما لا يعالجك طبيب وأنت مريض، عندما يتعارك أثنان في الشارع، أعرف أن وراء عراكهما الأستعمار!

ضحك حمه بكر ملىء شفتيه وقال له بهزء:

- يا أخي عرفنا أن الأستعمار سيء، وهو سبب الكثير من مشاكلنا ولكنه ليس، سيئاً إلى هذه الدرجه التي تقولها.

تذكر أزاد من إنه ضحك كثيراً لهذه المداعبه، وضجّ حمه بكر وعلي نفسه في موجةٍ من الضحك، جذبت العديدين من السجناء نحوهم وصاح أحدهم:

- أ هي نكتةً جديده كاكه حمه!.. دعونا إذن نسمعها وقال أخر وهو يبتسم ويسدد نظراته على علي:

- أكيد النكته هذه المره أيضاً على الأستعمار اللعين، أ ليس كذلك؟

فلقد كان معروفاً لدى كل السجناء، الذين لهم صلةً بالرفيق علي من إنه دائم الشكوى من الأستعمار، وأية مشكله أو هفوه، قد تحصل في حياتهم اليوميه، كان يقول فيها:

- إنها من صنع الأستعمار اللعين.

إنتفض أزاد على صوت شخصٍ يقترب منه، وتبعثرت ذكرياته عن علي.

- رفيق لقد وصلت وجبةً جديده من السجناء، وهم الأن في ساحة السجن الخارجيه.

- كيف عرفت؟

- لقد أخبرني مأمور السجن، كنت في التو لدى الأداره، طلبوا تدبير المكان المناسب لهم بيننا.
- كم عددهم.
- يقولون ستة سجناء.
- حسناً رتبوا الأمر كما ينبغي، وهيأوا لهم الطعام.
- أجل فأن موعد الغداء قد قَرُب.

لم تَمر نصف ساعه، حتى دخل السجناء السته ساحة (الفرن) وهرع السجناء لأستقبالهم، وتقبيلهم وحمل أمتعتهم إلى داخل الردهه، جلسوا جميعاً، وتقدم أزاد يرحب بهم، وجلس معهم يجاذبهم أطراف الحديث، لم يلبث وأن تجمع غالبية السجناء، وأحاطوا بهم في حلقة كبيره، يسمعون أحاديثهم وأخبارهم، ومايعرفونه عن وضعية الموقوفين، في المواقف الأخرى، والمحاكم، وأخبار الخارج. كان هذا المشهد يتكرر كلّما وطأت أقدام جديده أرض السجن. بعد الغداء، رتبت لهم أماكنهم المخصصه رغم ضيق المكان، وبعد أستراحه الظهر، كان كلّ واحد منهم يتوسط مجموعة من السجناء، يمطرونه بوابلٍ من الأسئله ويستمعون إلى أجوبته بلهفةٍ و شوق.

في المساء، ألتقى (أزاد) بالضيوف الجدد في ركن من أركان الطابق الثاني من الفرن وأستمع إلى تقارير مفصله عن نشاطهم في الخارج والمسؤوليات التي تحملوها وأسباب أعتقالهم، و سيما إذا كانت الأعترافات هي التي أوقعتهم في شباك البوليس، أم أن هناك اسباباً أخرى لذلك. وكان في سرّه يحاول أن يعرف أن كان بينهم من أعترف بشيء أو وشى بأحد. أن مسألة تدقيق هويات المحكومين، كانت من الأمور الهامه لدى لجنة التنظيم ليس فقط خشية ان تدس الأداره بعضاً جواسيسها بينهم، بل لغرض التعامل مع كل واحد منهم حسب مواقفه عند التحقيق، ومكانته بالنضال في الخارج، لغرض قبوله في التنظيم السري، الذي يربط الملتزمين بالنضال السياسي وأعطانه المسؤوليه التي يستحقها في الحلقات الكثيره التي تضم الحزبين. كان يستعين عادةً بأحداً منهم، لمعرفة التفاصيل عن الباقين. كانوا يقبلون في التنظيم السجني العام بصورة مؤقته إلى حين أكتمال جميع المعلومات عن كلّ واحد، وهذا التنظيم الذي ينظم الحياة اليوميه غير التنظيم السري، الذي تبحث في خلاياه الأمور الحزبيه والسياسيه السرّيه.

عند طرح هذه القضايا على (لجنه التنظيم) ومناقشتها بين أعضاء اللجنه، كانت في البدايه، تدبّ خلافات في الرأي، وتجري مناقشات حادّه بشأن كيفية التعامل مع المعترفين أو المنهارين في التحقيق. كان الرفيق (خليل) يتزعم تيار التشدد، كان يدعوا ليس فقط إلى عدم قبولهم للعيش معهم، بل إلى

نبذهم، ومحاربتهم، ورميهم في المستنقع (المكان المخصص في الجهه المقابله لهم من الفرن، لكل من لايعيش معهم)، بأعتبارهم خونه و، خانوا القضيه التي حملوها، فيما كان رأي (أزاد) مختلفاً، يتصف بالأعتدال والتروي، وكثيراً ماكان (خليل) يصرخ موجهاً كلامه إلى أزاد:

- أسمع رفيق.. أما سياستي أو سياستك.

- وماهي سياستك؟ كان يقول أزاد له.

- ألا تدرون؟!.. ألم أقل مائة مرّة من أن وجود هذه الحشرات بيننا، ليس فيهم غير الأذيه؟!.. وماذا تنتظرون من شخصٍ خان مبادئه؟.. كان يقول ذلك محتداً، بينما كان أزاد يجيبه:

- لا تضع المسأله في هذا الأطار القسري، ليس جميع هؤلاء خونه. ينبغي أن يُدرس موقف كل واحد على أنفراد، والظروف التي أحاطت به، وسبب أعترافه ودرجة خطورة ذلك الأعتراف.. هل كان سبباً في جرّ الأخرين إلى المصيده، هل وشى بالأخرين، أم أقرّ ماورد عليه؟.. هل سبّب خسارةً للحركه الثوريه وبأي الأشكال؟.

ثم كان يلتفت إلى باقي أعضاء اللجنه:

- رفاق علينا أن ندرس القضيه بعنايه. كلكم تعرفون من أن الضربه التي وجهّت إلى الحزب، كانت قاسيه وقاضيه، فالخيانه جاءت من القمّه، من الأنذال الذين نصّبوا من أنفسهم قادةً لنا، وللحركه الثوريه، كانت بأيديهم مفاتيح أبواب المخابيء والأوكار، وأمامهم كانت خارطة التنظيم، مرسومةً فيها أدق التفاصيل. لقد وضعوا الخارطه والمفاتيح في يد العدو, كثيرون ممن اعترفوا لم يجدوا حيلةً للتهرب أمام كلّ الأدله التي وضعت أمامهم.

- ولكن بينهم العديدون الذين لم يتفوهوا بحرفٍ واحد تحت أشد أنواع التعذيب.

- أعرف ذلك يارفيق.. نعم كان بينهم من صعد المشانق، وصمد حتى النهايه، هؤلاء أبطال، وليس بمقدور كل أنسان أن يكون بطلاً. البطوله حالةٌ فريده في الأنسان، وليست حاله أعتياديه.

- وماذا تريد أن تصل بقولك هذا؟. صرخ فيه خليل

- ما أريد قوله، هو أننا لا نستطيع أن نرمي بكل من كان له موقف ضعف خارج صفوفنا، وليس كلّ من أقرّ بعض الأعترافات الوارده عليه، يعتبر خائناً. أن وَصم جميعهم بالخيانه، مسؤوليةً كبيره، يجب أن ندركها. ينبغي أن نتسامح مع من كان موقفه ضعيفاً، وأن نحاول علاجه، كما يعالج المريض، ونقوي معنوياته حتى يشفى، و ننفث فيه من جديد روح العزيمه والوفاء للمبادىء وإلا كيف

يتمنى له حمل أثقال السنين الكنيبه، المليئه بالعذاب بين جدران هذا السجن أو غيره؟.. أو تريد دفعهم للخيانه الحقّه، والأنحياز للعدو، ليستخدمهم لمحاربة الأخرين، وجعلهم شهود كالأخرين في المحاكم، وأناساً محطمين، أسودت الدنيا في عيونهم، وترسب في أعماقهم اليأس القاتل؟ ..لا..لا؟ لن أوافق على رأيك يا رفيق. ومع ذلك أترك الأمر إلى رأي الأكثريه من أعضاء اللجنه، ولا مانع من مناقشة الأمر في الخلايا.

وفعلاً نوقش هذا الأمر في الخلايا، ودرس مجدداً من قبل أعضاء اللجنه وجاء القرار في صالح رأي أزاد. ووضعت خطةً تفصيليه على ضوء ذلك لكيفية قبول المحكومين الجدد، الذين كانوا يفدون بأستمرار إلى الفرن. وكانت خطةً بارعه، عززت أواصر المحبه والتعاون بين السجناء وعززت الثقه والأيمان في النفوس، ولقد جمعتهم المصيبه والمصير الواحد، لابّد ان يتّحدوا كي يواجهوا الأخطار المجهوله، التي تحيق بهم وهم مأسورون.

-١٣-

بعد أن ودَع السجناء أشهر الصيف القانضه، ونفذت برودة ليالي الخريف المتأخره إلى الأجساد، أنحشروا ثانيةً في قاعة الفرن الفسيحه، وأصطفت أفرشتهم متلاصقةً مع بعضها في كل شبر من أرض الطابقين الأرضي والعلوي، وقبيل العاشره ليلاً، كان الباب الرئيسي ذو القضبان الحديديه، يُغلق بأحكام حتى صباح اليوم التالي، ويذرع السجانون أرض الساحه الصغيره المقابله له وتتعالى أصواتهم، متجاوبه مع صيحات حرّاس الأبراج، المتقطعه، التي كانت تمزق سكون الليل الذي كان يغلف جدران السجن الصمّاء.

لقد تعودّ السجناء أن يرتبوا حياتهم وهم بين الجدران المتسخه لهذا السجن، الذي أصبح كخلية النحل تضج بالحركه والنشاط حتى ساعةٍ متأخره من الليل. معظم برامج التثقيف الذاتي، وأجتماعات الحلقات وأعمال أصدار المجله السجنيه، وتتبع الأوضاع في الخارج تُنجز ليلاً. ذات مساء، وبينما كان السجناء منهمكين كالمعتاد لأنجاز برامجهم، كان شخصاً ما في الجهه المقابله للطابق الثاني، والتي كانت مخصصه للسجناء الذين كانوا يعيشون خارج التنظيم، يراقب مايجري بحذر، ولربما نُقل بالأساس لهذه المهمه، وهو السجين العادي الوحيد بينهم، ثم نهض من مكانه ووقف يلقي نظرات حادّه ذات مغزى نحوهم، نزل من درجات السلم الحجري، بخفةٍ، وبدأ يجري مسرعاً ويتسلق درجات الطابق الذي كان يراقبه، وعندما صعد، ظلّ يوزع نظراته بين السجناء لبرهةٍ من الوقت.. كان الرفيق - دلزار- يجتمع بأعضاء حلقته، وكانوا منهمكين في القراءه و الحديث بحيث لم ينتبهوا إلى وجود شخص غريب بالقرب منهم. أنقضَّ هذا الشخص كالذنب على دلزار وأختطف النشره من يده وأراد ان يهرب، صرخ دلزار:

- أمسكوه.. أمسكوه.. أنه ذلك القاتل اللعين الذي نقل مؤخراً كي يتجسس علينا.

نهضّ من كان حوله، دفعةً واحده وأحاطوا به من كل جانب، لكنه تمسك بأوراق النشره، وضغط عليها بكفه الضخم. تعالت الأصوات والصياح، نهض معظم سجناء الطابق من مكانهم، وكبر الطوق من حوله.

- إنتزعوا النشره من قبضته.

- أشبعوه ضرباً ولكماً.

- يالك من وغدٍ خسيس.

إنهالت عليه القبضات من كل حدب وصوب، تكوّر على نفسه وظلّ يصرخ كالمجنون:

- ياحراس، ياحراس، أغيثوني، أغيثوني، أنهم يقتلوني. على صدى صراخه، هرع السجانون إلى الداخل، وتدخل أزاد وطلب منهم:

- رفاق أتركوه وشأنه، كفوا عن ضربه، ليجلس كل واحد في مكانه.

عندما تحرر منهم، ظلّ يواصل الصراخ، ويخاطب الحراس.

- أنظروا أنهم يقرأون نشرات سريه.. لديهم كتب ومطبوعات سريه.. آه لقد عرفت ذلك منذ أول يوم جئت إلى هذه القسم.. سأذهب إلى المأمور، وسترون ما سأفعله بكم أيها المخربون.. تضربونني هكذا؟.. حسناً.

أراد بعضهم الأمساك به مجدداً، ولكنه أستطاع الهرب، ونزل الدرجات وهو يصرخ كالمجنون، ثم خرج من الباب الخارجي وهو لايلوي على شيء.

أتجه أزاد نحو دلزار وقال له هل أنتزعتم النشره منه؟

- أجل يارفيق، لقد أنتزعناها منه.

أجابه دلزار وهو يعرض عليه بقايا أوراق النشره الممزقه.

- هل جميع الأوراق كاملةً؟

- لست أدري.

- تفحصوها.

بدأ أحدهم بتفحصها وقال وهو ينتفض:

- أظن انها غير كامله.

- من المحتمل أن أجزاءً من بعض أوراقها ظلّت في كفّه.

وبينما هم في هذا الحوار، ترامى إلى سمعهم أصوات طقطقة أحذية الحراس وهي تدق الأرض الكونكريتيه للساحه، لم يلبث وأن سمعوا أصواتهم وصراخهم وهم يقتحمون الباب الخارجي. صرخ أزاد:

- رفاق ليجلس كل واحد في مكانه، تجنبوا الأستفزاز أتفهمون؟

ثم قال بصوت خفيض:

- أخفوا ماعندكم بسرعه.

في هذه الأثناء، صعد الحراس الطابق، كان عددهم عشرة حراس و المأمور فهد يتقدمهم، يمسكون بالهراوات في أيديهم، وكان ذلك السجين، يسير معهم، وظلّ يفتش بعينيه عن دلزار وباقي أعضاء حلقته، ممن ظلّت سيماهم باقيه في ذاكرته. أتجه نحو دلزار وصرخ:

- هو ذاك الذي أنتزعت منه النشره؟!..

ثم ظلّ يشخّص عدداً أخر من السجناء، وكان المأمور يطلب من الحراس أخراج كل من يشخص خارج القاعه. وصرخ:

- فتشوا أفرشتهم.

كانوا يدوسون بأحذيتهم أفرشة السحناء، ويقلبونها بحثاً عن كتاب أو منشور سري ولكنهم لم يعثروا على شيء. كان الصمت قد خيَم على السجناء، بينما كانت نفوسهم تغلي كالبركان. نهض - أزاد- من مكانه، وأعترض على المأمور:

- لانسمح لك بكل هذا يامأمور.. أن هذا الوغد هو الذي هجم على رفاقنا.

حدقه المأمور بنظرة غضبى وصرخ في السجانين:

- خذوه أيضاً.

أقتيد السجناء السته، إلى الساحه الخارجيه، حيث تقع غرف إدارة السجن، وكتب المأمور، ليحالوا إلى تحقيق قد لا ينتهي طوال الليل.

في الساحه جلسوا القرفصاء على الأرض الصلبه وقد خيّم عليهم الصمت، بينما دخل المأمور غرفته، وظلّ عدد من الحراس، يحيطون بهم، .. مرت أكثر من نصف ساعه دق الجرس الكهربائي، هرول الحارس الواقف أمام الباب إلى الداخل، بعد برهةٍ خرج مسرعاً وهو ينادي:

- دلزار.. من منكم دلزار. . ليدخل في الحال.

نهض دلزار من مكانه، ودون أن ينبس بكلمةٍ دخل غرفة المأمور، حيث فتح له الحارس الباب. كان القلق مرتسماً على ملامحه ولم يكن قلق الباقين أقل من قلقه. ظلّت عيونهم معلقه بالباب طيلة مكوثه في الداخل، كانت التأملات والتحليلات تمّر مسرعه في أذهانهم. (لماذا ظلّ كل هذا الوقت في الداخل، مرّت ساعةً وهو لم يخرج، عن ماذا يستجوبونه؟).. كان أزاد هو الأخر قلقاً عرف بحاسته الداخليه، من أن الأمر خطير، وهو أكثر من مسألة التحقيق بالأعتداء على سجين عادي. (أيجوز ان

هذا الجاسوس قد استحوذ على بقايا أوراق النشره؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل هذا يدعوا كي يمكث دلزار كل هذا الوقت في الداخل ويطول الأستجواب هكذا؟.. أيكون إنه؟! لا..لا.. لم يجب أن أفكر هكذا أو أُسيء الظن به؟ طيب إذن لماذا؟ .. من المؤكد أنهم يبحثون عن أمور، يريدون الكشف عنها؟!) وظلّ يفكر ملياً في الأمر ويحاول مع ذاته أن يجد تفسيراً لكل ماحدث في هذه الليله.. لماذا أُستدعي هو بالذات معهم، إنه لم يكن جالساً في الحلقه، ولم يكن له دخلٌ فيما حدث مع السجين، أو يمكن، أنهم يشتبهون من أنه مسؤول التنظيم، لا..لا كيف بأمكانهم معرفة ذلك.. ولكن مالذي دفعهم في أن يأتوا بهذا السجين الملعون إلى ردهتم؟.. أنه يستخدم لمراقبتهم ومعرفة مايقومون به، ولكن ليس بأمكانه معرفة الخفايا، ثم أنه لم يمكث بيننا أكثر من أسبوع).

قطع حبل تفكيره، مرور أعداد أخرين من السجانين يتقدمهم المأمور- عبدالفتاح- وهو يصيح فيهم بصوته المبحوح: أسرعوا.. أسرعوا .. ألتفت ازاد نحوهم، وتعلّقت نظراته بهم إلى أن غابوا عنه. ثم نظر إلى رفاقه الأخرين، تفّحص وجوههم فرداً، فرداً. ذُهل عندما أستقرت نظراته على ملامح - كمال الدين- الكئيبه الشاحبه، ونظراته الشاحبه، ونظراته القلقه الحزينه. أدرك في التو من أن الخوف قد سيطر عليه، وشله عن الحركه. راودته فكرةً مسرعه (ماذا لو أُستدعي للتحقيق الأن؟!.. هل سيصمد أمام هذا الغادر الملعون؟!) أقترب منه وشدّ بكفه يدّه، وأبتسم له إبتسامةٍ باهته، لامعنى لها، قائلاً:

- أنها شده وستزول يارفيق. ولكنه لم يتلق منه أي جواب، وأستطرد ثانيةً يقول:

- الخوف من التعذيب أشدّ خطراً علينا من التعذيب نفسه. لاداعي لكل هذا يارفيق ماعلينا إلا الصبر ثم أن الأمر لايستدعي كل هذا القلق.

- لست خائفاً من شيء يارفيق ولكن مايقلقني بقاء دلزار هذه المده الطويله في الغرفه.

أقترب منهما بقية الرفاق، ودارت أحاديث سريعه بينهم، كانت تبدو مصطنعه، تخرج من الحناجر بنبراتٍ مترجرجه، كان واضحاً من أن القلق يخيّم عليهم جميعاً، وأن تظاهروا باللامبالاة.

وصل صراخ المأمور من وراء فتحة الباب:

- أأتي بهم في الحال.

خرج الحارس ونادى على عدد من الحراس ليدخلوا، لم تمضِ إلا ثواني حتى وتعالت الصرخات والصياح داخل الغرفه. كانت عيونهم معلقةً بالباب الخارجي المقفل، وأيقنوا في الحال من أن دلزار قد

أُخضع للتعذيب، نهض أزاد، وأشغل رفاقه ببعض الأحاديث المشجعه، وأبتعدوا قليلاً من الباب، بينما الحراس الباقين ينظرون إليهم غير مكترثين بما يحدث لدى المأمور، وهم ينفثون دخان سكائرهم.

كانت الأصوات تنقطع، ثم تعود، وأستمر الحال لمدة تقرب من الساعه كان الليل قد أنتصف، وتسرب إلى أجسادهم برد الخريف، كانوا يرتدون بيجاماتٍ صيفيه، ونعلاً من البلاستيك، ولربما هذا البرد الذي يحسون به، ناجم عن حالتهم النفسيه، عن مشاعرهم وأحاسيسهم المتوتره وهم يراقبون مايقاسيه زميلهم داخل الغرفه.

ثم أنفتح الباب، وكان السجانون يسحبون جسد دلزار على الأرض الصلده وهو فاقد الوعي، ورقد في مكان غير بعيد منهم، لايستطيع الحراك.

أرادوا أن يذهبوا لنجدته وأسعافه، ولكن السجانين منعوهم من ذلك، كانت العيون تتراقص في المحاجر، وكان كل واحد منهم يظن من أن الدور سيكون عليه. دق جرس الباب، وأنتفض الجميع من مكانهم دخل الحارس وخرج ونادى:

- ليدخل أزاد عبدالمجيد. فدخل أزاد وصفق الحارس الباب ورائه.

كان المأمور جالساً من وراء منضدته ينقر بأصابعه حافة المنضده الخشبيه العتيقه التي تكومت عليها بعض الملفات والأوراق، حدق - أزاد- بنظرةٍ فاحصةٍ طويله، وأفترت شفتا المامور عن إبتسامةٍ باهته ماكره، ثم أشارَ إليه بالجلوس على أحدى المقاعد، وقدّم له سيكارةً قائلاً:

- تفضل يا أخي خذ راحتك.

- شكراً فأنا لا أدخن. أجابه أزاد وهو يتفحص وجهه ونظرات عينيه الحادّه، كأنما يريد أن يسبر غوره، ويقف على حقيقة هذه المجاملات التي يلقاها منه.

ثم أنتصب المأمور من موضعه، وأرتسمت ملامح الجديه على وجهه وقال حسناً يا أخ - أزاد عبدالمجيد- أريدك أن تتعاون معنا، وتدلنا على خفايا تنظيماتكم الداخليه وعلاقاتكم بخارج السجن، ونحن بدورنا، سنقدم لك كل التسهيلات الممكنه، ونخصص لك غرفةً خاصه، ونوفر لك كل أحتياجاتك ومن يدري، لعّل مرسوماً ملكياً يصدر بأعفائك مما تبقى لك من محكوميتك.. ها.. ماذا قلت؟

- لست أدري عما تتحدث؟!.. ليس لدي ماأقوله، وكما ترى فنحن لا نفعل شيئاً سوى أشغال أنفسنا وتدبير أمورنا اليوميه وننتظر قضاء أيام سجننا.

سحب المأمور أحدى الفايلات وظلّ يتفحص أوراقه وقال:

- مامدّة محكوميتك وبأي تهمه سجنت؟

- حكمت سنتين، بتهمة أشتراكي في المظاهره، ولم أقضي أكثر من ستة أشهر عندكم.

- هذا مثبت هنا ايضاً.. ولكن دعني أصارحك القول، أنك شاب في مقتبل العمر وأمامك مستقبل طويل، لماذا تذبل زهرة شبابك هنا، ولماذا تحكم على مستقبلك بالموت؟.. أنني هنا سأوفر لك فرصةً قد لا تحلم بها، فلا تدعها تفلت من يديك..

دق جرس التلفون فجأه، ورفع السماعه على عجل، كمن كان ينتظر مكالمةً هامه في هذا الوقت المتأخر من الليل. تعلّقت حدقتا عيني أزاد به.

- نعم سيدي.. لازلنا نحقق معهم وسنوافيكم بما نصل إليه.. نعم.. لقد عرضنا عليهم، ها هو أحدهم الأن معي في الغرفه.. نعم سأتصل.

إنتهت المكالمه، وأطبق السماعه على جهاز الهاتف وأطلق الهواء المحبوس في صدره، وحاول أن يكتم إنفعالاته الداخليه ويحول دون ظهورها على ملامحه.

- ها ماذا قلت؟ .. أ عرفت من الذي أتصل الأن؟

ظل أزاد ساكناً، صامتاً، لم يجبه.

- .. أنه مدير التحقيقات الجنائيه بنفسه، أنه مهتم بالأمر كثيراً، وتابع القضيه بنفسه.

- لا تتعب نفسك معي، فلقد قلت لك بأنه لاشيء لدي أقوله لك.

- والنشرات التي توزعونها داخل السجن، والمجله التي تصدرونها، والأجتماعات المتواصله.. إن لنا عيوناً ترى ماتقومون به سكت قليلاً ثم قال فجأه:

- في أية مرحله دراسيه أنت؟

جفل أزاد من هذا السؤال، مرّت في ذهنه خواطر سريعه تذكر حادثة زميله علي، والرساله التي مُسكت بحوزته وقال في نفسه: ياللشيطان. أنه يريد أن يستدرجني، ويعرف فيما إذا كنت قادراً على تحرير تلك الرساله، سوف لن أقول لك بأنني في الخامس الأعدادي وأنني كنت رئيس لجنة الخطابه العربيه في المدرسه.. أه ياللشيطان إلى أين تريد أن تصل؟

- لماذا أنت صامت؟.. وبماذا تفكر.

- لاشيء البته. أنا في المرحله المتوسطه من الدراسه.

- من الذي يستنسخ النشرات ويكتب المقالات بجريدتكم ياسيد..؟

أرتبك أزاد قليلاً، ولكنه أستطاع السيطرة على أنفعالاته، وتظاهر باللامبالاة:

- عن أية نشرات أو جريده تتحدث؟

- تلك التي كانت بحوزة زميلكم.

- لاعلم لي بذلك.. ثم إذا كنت تعتقد بأنني أحرر الجله فأنك واهم، لأنني لا أجيد اللغه العربيه إلى تلك الدرجه التي أستطيع أن أروج بها المقالات قلت لك أنني لازلت في المرحله المتوسطه من الدراسه أفهمت؟

ها، ها. وظلّ يضحك، ضحكةً مصطنعه:

- ماذا أتظنني أبله؟ ما علاقة السياسيه بالمرحله الدراسيه ألا يوجد بينكم سياسيون يعرفون كل شيء ويعرفون كل خبايا السياسه ويتحدثون بها أحسن مني وهم لايملكون أي تحصيل دراسي!.

- قلت لك لا أعرف شيئاً.

- إذن أنت مُصِّر على التجاهل يا أزاد.

نهض من مكانه، وظلّ يذرع أرض الغرفه جيئةً وذهاباً ويقيس خطواته بنظراته، كان واضحاً، إنه يفكر، يريد أن يجد له مخرجاً مع أزاد، يريد طريق يرضي بها، مدير التحقيقات.

وقف فجأة في مكانه وأستدار نحوه، وقال له فجأة:

- ما قولك، إذا قلت لك بأن زميلك دلزار قد أعترف عليك، وشرح لنا كل شيء بالتفصيل.

- وماذا قال؟

- إنك مسؤول السجن، وأنك العالم والداري بكل شيء.

أجابه أزاد دون توقف و بلهجةٍ صارمه حاده:

- هذا غير صحيح،.. هذا غير صحيح بأمكانكم مواجهتي به.

ولكنه شعر بوخز مؤلم يخترق أحشاءه، تقلصت عضلات وجهه، أنتابه قلق دفين، ومرّت في ذهنه خاطره سريعه كالبرق (..أيكون هذا صحيحاً.. أيكون قد أعترف تحت التعذيب، وإلا كيف خطر له بأنني مسؤول السجن؟ أقالها عابراً أم أراد سبر أغواري.. ولكن يستحيل أن أقرّ بشيء حتى إذا كان مايقوله صحيحاً.. آه لابّد أن أقف على قرار نهائي.. إنه يحاصرني رويداً، رويداً في زاويةً ضيّقه).

بعدها أطلق زفرةً حادّه، وظلّ ينظر إلى المأمور بنظراتٍ قلقه. وقال ثانيةً:

- هذا غير صحيح.. غير صحيح.. أستدعوه كي أناقشه في هذا.

وعند ذاك أشتاط المأمور غضباً وصرخ في وجهه:

- أردت مساعدتك فأبيت. وهذا مايجعلني أن أستعمل معك أسلوباً أخر في الحوار، كن عاقلاً وقل مانريده منك.

وهنا سيطر الغضب على ملامح أزاد وقال له بصوتٍ محتد:

- أسمع يا مأمور، لقد دأبتم على معاملتنا معاملةً سينه وغير أنسانيه نحن في سجن ولسنا بين الناس حتى تتهمونا بأقامة تنظيم سري، ولكنكم تريدون أن تمنعوا حتى شعاع الشمس من النفاذ من خلال جدران السجن، لقد فعلتم كل شيء ولن يخيفني وعيدكم.. أفعل ماشئت، ولكن سيأتي اليوم الذي تدفعون فيه الحساب أفهمت؟

أجابه المأمور صارخاً:

- هكذا أذن؟

ثم بدأ يصرخ:

- سترى أن كنت ستصمد حتى النهايه، سترى أي عذاب ستذوقه.

دقّ الجرس وأنفتح الباب، ودخل الحارس محملق العينين

- أسمع ليحضر رئيس العرفاء والأخرون حالاً.

لحظات ودخل رئيس العرفاء وورائه أربعة من السجانين وكان أحدهم يحمل خشبة - الفلقه-. أشار إليه المأمور البدء بالعمليه. أحاطوا بأزاد، من كل الجهات قاومهم في البدايه، وجّه بعض اللكمات إليهم، ولكنه لم يدري كيف أنهالت عليه ضربات العصي من كل الجهات، ثم ألقوه أرضاً، (جلس نانب عريف ضخم الجثه بدين على صدره وأمسك أحدهم برأسه، وأثنان برجليه. وأدخلاها في كماشة الفلقه،، وظلّ رئيس العرفاء يهوي بعنف بوساطة عصاً طويله وطريه، على باطن قدميه، ورؤوس أصابعه. كانت الضربات قاسيه وشديده اللألم، وتترك أثاراً داميه على قدميه، وبين الحين والأخر كان المأمور يأمر بوقف الضرب، ثم يقف على رأس أزاد ويحملق في عينيه ويقول:

- ها ماذا قلت ألا تقرّ؟

كان أزاد يصرخ في وجوههم:

- أنذال.. وحوش.

وعند ذاك يأمر ثانيةً بمواصلة الضرب. كان يحسّ بالدماء الحاره تسري في باطن قدميه، وضربات العصي على رؤوس أصابعه، كان يمسّها كشفرةٍ حاده تمزق لحمه، كان يقضم شفتاه من الألم، وضربات قلبه كانت تشتّد، وأنفاسه كادت تخمد من وطأة العذاب، و جراء ثقل هذا الرجل البدين الذي كان يجلس على صدرهِ، لم يلبث وأن شعر بأعضاء جسده المتصلبه، تتراخى رويداً، والخدر يَسري في باطن قدميه، اللتين أنتفختا ككتلتيّ أسفنج، وغاب عن الوعي، وراودته أحلامٌ مُرعبه. وترامى له ذلك الدب الرمادي الذي كان يلاحقه في أحدى أزقة مدينتهِ الصغيره، عندما كان طفلاً في الخامسه من عمره، كان يركض، ويطلق ساقيه للريح، ويلتفت بين الحين والأخر ورائه، ليجد ذلك الدب في أثرهِ، لم يلبث وأن تعثّر وسقط على الأرض وداهمهُ الدب، وجلس بثقلهِ على جسدهِ، وكان هو يصرخ ويصرخ، أنه الأن يكاد يحس بنفس الثقل، يقطع عنه أنفاسه، ترامت له صور الأطفال والرجال الذين كانوا يتراكضون وراء ذلك الدب، الذي أفلت من عقال صاحبه الذي كان له وسيلةَ عيشٍ حيث كان يجعلهُ يرقص ويؤدي حركاتٍ تمثيليةٍ مرحه أمام الناس في الساحات العامه، أنه يسمع صخب الناس وضجيجهم وهم يحيطون به، يريدون أبعاد الدب عنه، لقد كاد الرعب يفقده صوابه، أو ينتزع الحياة من جسده، ظلّ برهةً هكذا ثم غابت الصورد عن عينيه وفي ذاكرته، لم يعد يحسّ بشيءٍ سوى ظلامٌ دامس غاب فيه.

وعندما عاد إليه الوْعي، وجد نفسه ملقىً على الأرض في الساحه الخارجيه وسط بركةً من الماء، يحيط به زملاؤه الباقين وعدد من السجانين، وترامى إلى سمعه حوار يدور:

- لماذا ضربته بهذا العنف يارجل لقد كدتَ تقتله.

- لقد كان بذيء اللسان.

- ولكن إذا مات من الذي يتحمل المسؤوليه.

- المأمور.

- لا، أنت ياعديم الضمير.

سمع صوتاً أخر يقول:

- صبّوا عليه سطلٌ أخر من الماء سيعيده إلى وعيه.

كان أزاد إلى تلك اللحظه لايبدي حراكاً بالرغم من أن سمعه كان يلتقط الأحاديث. قذف أحد السجانين بسطلٍ أخر من الماء البارد على رأسه، دبّت برودةً شديدةً في جسده، وظلّ يرتجف ويتحرك في

مكانه، ثم فتح عينيه، ليجد الأخرون يحيطون به، أمسكوه من ساعديه، وساعدوه على النهوض، وأبعدوه عن بركة الدماء التي كان يسبح فيها. كان الليل قد أنتصف وفي السماء كانت قطع السحب الداكنه تحجب قرص القمر الفضي الذي كان يقطع بسرعته المعهوده تلك المسافات الشاسعه في السماء اللامتناهيه، يظهر تاره وينير بضوءه الباهت ساحات السجن، وأسطحه وأبراج الحراس فيه ويختفي تارة اخرى ، وكان سكون مطبق يخيّم في كل مكان، لايخترقه شيء، سوى صراخ حراس السجن في أبراجهم هو..هو.. وهبّت نسمة هواءٍ خريفيٍ بارد، جعلت أغصان أشجار الصنوبر المتناثره في أرجاء الساحات السجن، تتمايل برفق.

خرج المأمور من غرفته، وصرخ في الحراس:

- أقتادوهم إلى حُجر الرياضه، لننظر في أمرهم صباح الغد.

وساعد أثنان من زملائه أزاد على المشي، في تلك المسافه القصيره الواقعه بين مكتب المأمور والزنزانات. كانت قدماه المنتفختان تصرخان من الألم، مع كل خطوه كان يخطوها. ولكن في أعماقه، كانت تتقد شعلةٌ من فرح، وأحساس مبهج كشخصٍ نجى من الغرق، أو أجتاز محنةً قاسيه، تحامل على نفسه، ووزع بعض النظرات الصافيه على زملائه، وتمتم بصوت خفيض:

- لا تحزنوا فلقد كان أمتحاناً صعباً.. سحابة حزن ستنقشع ثم ألتفت إلى زميله - كمال -:

- أليس كذلك يارفيق؟

أحس بالسكينه تتسلل إلى نفسه، حينما لاحظ أن إمارات القلق والكآبه قد أنقشعت من وجه - كمال الدين- وهو يسير بموازاته ثم وجد إبتسامة باهته، ولكنها مفرحه ترتسم على شفتيه، ويقول:

- لقد كنّا بأحاسيسنا معك يارفيق، أن كل ضربه عصا كانت تدق قدميك، كانت بمثابة شفرةٍ حاده تمزق أحشائنا، كنّا ننتفض من مكاننا ونحن نسمع صوت الضربات وراء الباب، كنا نحسها دون أن نراها.. ولكن وكا قلت كان أمتحاناً صعباً وعسيراً أجتزناه معك بنجاح.. لم أعد أشعر بالقلق ولا بالخوف ليفعلوا مايفعلوا، لقد رفعت رأسنا ونفخت في صدورنا العزيمه والشجاعه.

- ألم تعرفوا أخبار رفيقنا دلزار؟ سال ازاد . .

- رأيناه يقودونه قبلنا إلى غرفة الرياضه.

- حسناً يارفاق لنرى ماذا يحمل الصباح لنا من مفاجئات. ولكن ما أنا واثق منه أنهم سوف لن يصلوا إلى أية نتيجه.

لم تكن الشمس قد بزغت بعد، حينما أيقظهم ضجيج وصخب الحراس وهم يرافقون مجموعه من السجناء الذين جَلبوا شوربة الصباح الى رفاقهم، فنهض أزاد وأستلم حصة رفاقه جميعاً في الزنزانه. قدر متسخ مملوء إلى الحافه بشوربة العدس، وبضعة صحون من الألمنيوم، وأقراص الصمون التي تصنع داخل السجن. وعندما أبتعد الحراس عن الزنزانه قليلاً، حشر أحد افراد المجموعه وجهه بين أحدى فسحات القضبان الحديديه لباب الزنزانه، وسلم رسالةً ملفوفه، صغيره إلى أزاد وهمس:

- أنهم يريدون الجواب هذا اليوم.

- عُد إلي بعد حين لأسلمك الجواب.

حينما فضّ الرساله، وجدها موجهّةً من رفاقه في الفرن يطلبون رأيه عن الموقف الواجب إتخاذه وما ينبغي أن يفعلوه، من أجل مساندتهم. نهضّ زملاؤه الباقين، وخرجوا إلى المرافق الخاصه بالزنزانات، وغسلوا وجوههم، وتناولوا بنهمٍ شوربة العدس، وبعد ذلك بدأوا يتحدثون، عما يجب أن يفعلوه وأخبرهم أزاد بأمر الرساله، وقد أستقر رأيهم، على جملة أمور، يقومون بها تجاه إدارة السجن.

رجع ذلك السجين بعد ساعة تقريباً، بحجة أستعادة القدور والصحون، فوجد الجواب مهيأً، فأستلم الرساله وقال له أزاد:

- أحرص على توصيلها بأسرع وقت. أفهمت؟

ثم ترك السجين الزنزانه. ولكن بعد مرور أقل من ربع ساعه، عاد السجين وبرفقته سجانان، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أنها رساله.. رسالةً سريه.

وما أن وصل باب الزنزانه، حتى صرخ مشيراً بأصبعه إلى أزاد:

- أنه هو.. هو الذي أعطاني الرساله، نهضّ أزاد والباقون، وقد عقدت لسانهم الدهشه، وشعر أزاد بنوع من الأرتباك وبرجفةٍ لا إراديه تسري في جسده. فتح السجانان باب الزنزانه، وجلبا أزاد إلى إدارة السجن، وفي الطريق قال أزاد لذلك السجين:

- لماذا فعلت ذلك يا؟

- لقد فتشوني وعثروا على الرساله في جيبي لم أكن أرغب في هذا ولكنهم أجبروني على ذلك.

أدخل على المأمور، وكان هو نفسه الذي تولى تعذيبه في الليله الماضيه، يجلس وراء منضدته مقطب الجبين، وبدت ندوب وجهه أكثر بروزاً، يحدق في الرساله التي كانت بين يديه، وتناول سيكارته

من على المنفضه، وسحب نفساً عميقاً، وأطلق الدخان دفعةً واحده وسار بأتجاهٍ مستقيم نحو أزاد ثم قال وهو يعّدل من وضعية جلوسه:

- يبدو أنك لم تتعظ بعد، أمشتاق إلى المزيد يا..

- سكت أزاد ولم يجيبه. بينما أستمر المأمور يقول:

- ما هذه؟ .. أتنكر هذه المرّه أيضاً، وتقول أنها لاتعود لي.. أو لربما ستقول أيضاً بأنك لاتعرف شيئاً عن أمرها بالمرّه.. ها.. لقد تعودتم على الكذب، والأنكار.. ولكن لا أحد يعرف مثلي كيف يجعلكم تقرّون.

خرج أزاد من صمته، ووقف أمامه وقفة المتحدي، يبادل نظراته بنظرات حادة، ثاقبه، وقد أرتسم نوع من الصرامه على وجهه النحيل الشاحب:

- كن مطمئناً، فأنا لا أنكر هذه المرّه، هذه الرساله أنا الذي كتبتها. وما فيها؟!.. نقول لهم بأننا سوف نعلن الأضراب عن الطعام أحتجاجاً على أعمالكم تجاهنا، ومن حقهم كزملاءٍ لنا أن يقفوا إلى جانبنا، ويستخدموا كل الوسائل المتاحه للدفاع عنا وعن أنفسهم. أفهمت الأن ياحضرة المأمور.

- إذن أنتم مصرون على أثارة الشغب داخل السجن؟

- سميه ماشئت فليس أمامنا طريق أخر.

وعند ذاك صرخ المأمور:

- خذوه أرجعوه إلى زنزانته. سأعلمك درساً أخر لن تنساه.

حدق فيه أزاد بغضب، وجد شفتا المأمور ترتجف، وعضلات وجهه قد تقلصت وغارت عيناه الدقيقتان في محجريهما، وبدتا كعيون الفأر، تناول سيكارةً أخرى، وأشعلها بين أصابعه المرتعشه من الأنفعال، وسحب من دخانها نفساً عميقاً كالعاده.

ثم تبع أزاد ألحراس، وعاد إلى زنزانته. بينما أضاف المأمور الرساله إلى الأوراق التحقيقيه الأخرى.

عند الظهر لم يستلموا حصتهم من الطعام، وأستدعوا رئيس العرفاء وأبلغوه بأعلانهم الأضراب عن الطعام. بعد حين جاءهم المأمور الخافر ليستطلع الأمر بنفسه وقد وقف على جلية الأمر وجوبه بتحدي وأصرار كل سجناء الزنزانه، على هذا الموقف الذي أتخذوه وعاد إلى مكتبه، ليبلغ الأمر إلى مدير السجن.

وفي اليوم التالي رفضوا أيضاً الطعام الذي جلب لهم، وأصرّوا على موقفهم، وطالبوا بمواجهة المدير نفسه، لعرض مطاليبهم عليه. ولكنهم في المساء لاحظوا حركةً غير أعتياديه، بين السجانين، وظهر فجأةً رجل دين يهودي، وبعده بدقيقه بضعة أنفار، من النساء والرجال، يتجهون إلى الزنزانه الخاصه بالمحكومين بالأعدام. أخذهم الفضول وسألوا الحراس عن جلية الأمر، وأجابوا بأن حكم الأعدام سينفذ الليله برجلٍ يهودي، كان يرأس أحدى التنظيمات المعاديه للحكومه. وفي الليل، لم ينم أيٌّ منهم نومةً مريحةً وعميقه، فقد أضاف خبر الأعدام، همّاً جديداً إلى همومهم الكثيره، التي جعلتهم في حالة قلقٍ دائم.. كانوا يجلسون على أفرشتهم متكأين على جدران الزنزانه، يرهفون السمع إلى الصوت الذي كان يترامى إلى سمعهم من زنزانة المحكوم عليه بالأعدام. كان ينشد بأستمرار وطوال الليل، وعند الفجر أنقطع الصوت، وترامى إلى سمعهم هذه المرّه، رنين القيود والسلاسل، وصخب وضجيج الحراس، ثم تلا ذلك لحظة سكونٍ رهيبه.

أنتشر خبر أعدامه، وكان من الأخبار الهامة التي أنشغل بها السجناء لعدة أيام، ولقد قيل بأنه طلب في المساء أشهى المأكولات، ورفض مقابلة الكاهن. وأنشد طوال الليل، وكفكف دموع أمه وأخواته وأهله ونفث في نفوسهم الشجاعه.. واجه الموت بشجاعةٍ وسار نحو المشنقه بتحدي، دون أن ترتجف أوصاله، أو تهتز له ركبه، بل وقيل من أنه وضع الحبل في عنقه، وظلّ ينشد حتى على مسرح الموت، وإلى أن كُتمت أنفاسه.

في اليوم الثالث من أضرابهم وقبيل الظهر، أنفتح الباب الخارجي للزنزانات، ودخل حشد من السجانين، يتقدمهم المأمور، و أقتيدوا جميعاً إلى غرفة المدير حيث يقع في الطابق الثاني، من القسم الأمامي للسجن. وأجريت محاكمةً صوريه من قبله، حكم على أثرها، بعشرة جلدات على أزاد و تحويل أوراق دلزار وأحالته إلى المحكمه العرفيه، والحكم بالحبس الأنفرادي لمدة أسبوع على البقيه على أن تحتسب لهم الأيام التي قضوها في الزنزانات الأنفراديه.

بعد ذلك عاد أزاد بين رفاقه، وأرسل دلزار في اليوم التالي إلى الموقف بأنتظار أجراء محاكمته، وخرج الباقون من الزنزانات بعد أن أكملوا مدة الحبس الأنفرادي، ومنهم أزاد ، فعادوا وقدموا عريضة أحتجاج، ومسانده لأخراج الاخرين ، وهدّدوا بالأضراب عن الطعام أيضاً، أن لم يعادوا أليهم في الحال، ولقد عادوا فعلا عدا واحد منهم، حكم عليه فيما بعد بالأشغال الشاقه لمدة ثلاث سنوات، ولكن همومهم وأحزانهم وتوتر أعصابهم لم تخف يوماً، بل بدأت بالأزدياد، والتفجر وكأنهم يسيرون في دربٍ محفوف بالمخاطر لا نهاية له.

-١٤-

كان والد أزاد منذ شهر تقريباً يعد نفسه لزيارة إبنه المسجون، ومنذ أن عاد من المدينه الصغيره القريبه من قريتهم، وسمع من بعض معارفه نبأ الحكم على إبنه، وهو في أشد حالات القلق. كان يجلس ساعاتٍ طوال ساهياً مطرقاً برأسه يفكر.. لقد بنى آماله الكبيره على أزاد إذ كان كثيراً مايتبجح لدى أصدقائه ومعارفه، بأن له أبناً صالحاً ذكياً سيكون له مستقبلاً باهراً، وأنه هو الذي لم يدخر وسعاً في تعليمه، وحاول جهد أمكانه أن يوفر ما يمكنه على مواصلة الدراسه، إلى أن وصل نهاية المرحله الأعداديه. كان يظن أنه سوف يرتاح بعد رحلة العمر الطويله المليئه بالعمل والشقاء وعذابات الدنيا، سيعّوض أخفاقاته، بنجاحات أزاد المستقبليه. ولكن مالم يكن في حسبانه، هو ما حصل لأزاد في هذه المرحله الحرجه من حياته، ولم يكن يخطر بباله بأن السياسه ستجّر إبنه إلى بحرها الهائج والمائج، وأنه بدلاً من أن يتعقب الأخبار من هذا وذاك عن وضع إبنه في الدراسه عليه أن يتعقب أخبار عذاباته في المواقف والسجون.

كانت زوجته تعاتبه وتقول له:

- يارجل أتريد أن يقتلك الهم؟ أ أنت الذي قلت له أن يرمي نفسه في التهلكه؟

كان يرفع عينيه المغرورقه بالدموع نحوها، بصمت، ويرفعها بنظرةٍ فاحصه، مليئه باللوم والعتاب وكان يقول في داخله:

(أكنت ستقولين هذا الكلام لو كنت أماً له؟) ولكن ماأخره عن السفر هو مجيء زينب وأمها، كي تستقرا لديه بعض الوقت. لقد بقيتا في المدينه وحيدتين بعد أن هجرهما - كبير العائله شوكت أفندي- الذي كان أمين للصندوق في دوائر الماليه، وفُصل من الخدمه، بسبب عجزٍ وُجِدَ في خزانته بعد تفتيشٍ مفاجيء له وفُصل معه موظفٌ مالي أخر وهو - السيد مخلص- الذي أتهم بالرشوه، والأحتفاظ بمبالغ أغلبية وصولات الجبايه من الفلاحين، والسيد شوكت منذ ذلك الحين يبحث عن عمل أخر، ولكن دون جدوى، مما أدى إلى تدهور حالتهم الماديه ونشوب نزاعات عائليه. كان السيد عبدالمجيد، زوج أبنته، هو الذي وقف يساندهم في تلك الأيام القاسيه ويمّدهم بالمساعدات الماليه التي يقدر عليها، وهو

ألذي أرسل أليهم الخبر عن طريق الموظف الصحي في القريه ألذي كان يزور أهله في المدينه بالشهر مرة على الأقل، وطلب منهم الحضور لكي يعيشوا معهم، وإلى حين حلّ مشكلة صهره السيد شوكت.

وفي الأشهر الماضيه، طالما فكّر في زيارة إبنه، ولكن ماكان يعيقه إلا معرفة مكان إبنه المسجون، وعلمه المتأخر بذلك. ثم صادف وأن ولد له إبنٌ أخر سمّاه -محمد- تيمناً بأسم والده، مما أضطره أن يرجأ السفر تلك المره أيضاً. ولكن هذه المره صمم أن لا يرجأ السفر إلا بضعة أيام، سيما وأنه أستطاع أن يحصل على رسالةً توصيه من (أغا) المنطقه إلى صديقه مدير السجن الذي كان يوماً ما، ضابط تجنيد القضاء، كانت الهدايا التي هيأها، متواضعه، كيس من الرمان، والزبيب والجوز، وكميه من الجبن، ثم أن (زينب) كانت قد طرزت له منديلاً أبيضاً بخيوط ملونه من الحرير.

ولكن في هذه الأثناء، كان أزاد يعّد الأيام الباقيه لتنفيذ عقوبه الجَلد عليه. قبل أيام عرض على اللجنه الطبيه والتي أقرّت من أن بنيته وصحته الجسديه، تتحملان الجَلد. وكان يجري نقاشٌ حاد بين السجناء السياسيين، حول هذا الموضوع، وكان أراء الكثيرين، تقول بعدم الأذعان لجَلد رفيقهم أمامهم، ولقد أجتمعت لجنة التنظيم السجنيه لبحث هذه المشكله، مراراً، وكان أجماع الرأي، هو عدم الأمتثال لقرار الجلد مهما كلفهم ذلك من تضحيه. وفي أحدى هذه الأجتماعات، قال الرفيق خليل، وقد تملكه الغضب، وبدأ يطرف بعينه السليمه:

- أليست هذه أهانه لنا.. أليس جبناً من أن نتفرج على رفيقنا وهو يجلد أمام أنظارنا، أين ذهبت مبادئنا وثوريتنا، أنني أفضل الموت على أن أرى مشهداً كهذا.

وأدلى الأخرون بأرائهم، بينما ظلّ أزاد ينظر أليهم بصمت.

وقال أخر:

- أنني أوافق الرفيق خليل فيما ذهب أليه، وأرى أنه من العار أن نتفرج على هذا المشهد، صامتين مستسلمين، تتقطر ألمذله والخنوع من جباهنا.

- هذا صحيح, ولربما هذا الحادث هو اول الغيث ولربما يلجاون الى طريقة الجلد العلني بحقنا جميعا وبالتناوب.

- ولكن مالذي يجب عمله؟!.. هل بأستطاعتنا عمل شيء. قال ذلك الرفيق عمر، وهو يتفحص وجوه زملائه.

أجابه كريم :

- بأمكاننا الأضراب عن الطعام وتقديم عريضة أحتجاج إلى المراجع العليا، وأن حاولوا أخذه بالقوه، نعتصم في داخل الردهه، ونتراصف ونكّون جداراً فولاذياً من أجسادنا نمنع أختراقهم.. نقاتلهم حتى بالأيدي.

لقد دام جدلٌ كثير حول هذه المسأله، وكانت القضيه حساسه بالنسبةِ أليهم، سيما وأن الذي يُجلد أمامهم هو الرفيق أزاد نفسه مسؤول التنظيم السجني، كان خليل يردد على مسامعهم:

- كيف بوسعنا أن ننظر إلى وجوه الأخرين، ونحن نقبل بهذه المذله.

وكان أكثرهم حيرةً في الأمر هو أزاد نفسه، ولطالما فكّر به ساعاتٍ طوال ومنذ عودته من الحبس الأنفرادي، أنه يدرك من أن الأنصياع لتنفيذ عقوبة الجلد فيه أكثر من المهانه والمذله، ولكنه لا يريد في ذات الوقت أن يقحم زملائه في معركةٍ غير متكافئه قد تكون نتائجها وخيمه.. ولايريد أن يتحمل هذه المسؤوليه، وتلك النتائج التي قد تكون قاسيه. ثم أنه يدرك، من أن رفاقه ورغم الحماس والغيره التي يبدونها أمامه، قد لايصمدون أمام هجمات الحراس وبطش إدارة السجن، لقد ظهر في الواقع العملي، أنهم لا يتورعون القيام بأي عمل أرهابي يخدم مخططاتهم. ولذلك فأنه طلب من رفاقه في اللجنه أمهاله يوماً أخر كي يستقر على قرارٍ معيّن. وطوال ذلك اليوم، أنفرد مع نفسه وكان يذرع ساحة السجن جيئةً وذهاباً، ساعاتٍ طوال، مفكراً في الأمر برويه، وبنكران ذات. (عليَّ أن أجنبهم أية مجابهاتٍ ولاينبغي أن أكون أنانياً، عشرة سياط سأتحملها مهما كانت قاسيه). وحينما عقد أخر أجتماع لأتخاذ القرار النهائي كان المتحدث الرئيسي فيه هو أزاد، وشرح بالتفصيل الواقع العملي للحياة السياسيه في الخارج ونكسة الحركه الثوريه، وتراجعها في ميادين المجابهه مع السلطه، وأنسحاب أثار ذلك على واقع حياة السجناء أيضاً، و على أزدياد همجية الاساليب القمعيه في السجون أيضاً، وقال:

- أيها الرفاق، أنهم مصممون على كسر شوكتنا، ويهدفون أول مايهدفون النيل من ثوريتنا، ودحر عزائمنا، لذلك ماعلينا إلا الصمود والثبات. أنني لا أريد أن تدخلوا معركةً خاسرةً بسببي، أنني لا أريد أن أجنبكم التضحيات فقط، ولكنني أريد الحفاظ على ثوريتكم ومعنوياتكم.. لماذا تعتبرون ذلك أهانةً ومذله؟ ألا يرتكبون كل يوم مثل هذه الأفعال الشنيعه في زنزاناتهم، ألا يستعملون كل الطرق اللا أنسانيه بحق رفاقنا في جلسات التحقيق المشهوده، أن عظمة الأنسان المناضل، ليس بالصراخ والعراك بالأيدي، بل بالصمود، بالروح المعنويه التي يتحلى بها، ويبدو بها كجبلٍ شامخ

صامد أمام عدوه، ليس بوسع الأسير أن يفعل أكثر من هذا. لذلك فأن قراري الأخير هو أنني سأسير شامخ الرأس نحو المقرعه، وليجلدني الجلادون ماشاؤوا وسوف لن يسمعوا مني أنيناً.

كانت كلماته ذات وقعٍ مؤثرٍ في نفوسهم، وحينما تفحّص وجوه رفاقه، وجدها شاحبةً، كان واضحاً من سيمائهم من أن القلق يأكل أعصابهم بضراوه، كما ورأى قطرات من الدمع الرقراق، تنزل من العيون الفانضه. وعندما جاء اليوم الموعود، أنهمك عدد من السجناء العاديين والسجانون بنصب المقرعه الخشبيه في وسط ساحة السجن، ووقف صفان من الحراس بهراواتهم على جانبيْ المقرعه، و وقف السجناء السياسيون في صفين متوازيين أمام المقرعه، كما حضر هذا المشهد، جمعٌ غفير من السجناء العاديين، وحضر مأمور السجن على عجل، وهو يهّز العصا المتدليه في يده، ويحمل باليد الأخرى إضبارةً من الورق المقوى. همّس في أذن رئيس العرفاء، وكان رجلاً طويلاً ض خم الجثه، لم يلبث وأن نادى بصوتٍ عالٍ:

- أزاد عبدالجيد.. أزاد عبدالجيد.

كان أزاد واقفاً مع زملائه يتابع بعينيه أجراءات نصب المقرعه، وتهيأة الحراس من أجل تنفيذ العمليه. خرج من بين الصفوف وسار بين الجموع برأس مرفوع ووجه مقطب، كأنما نُحت من صخر، ودوّى تصفيقٌ عاصف، وبضعة هتافات خرجت من الحناجر الملتهبه، ثم وقف أمام المقرعه، بينما بدأ المأمور يقرأ بصوتٍ عالٍ القرار الخاص بجلده عشرة جلدات.

أمسك به حارسان، قويا البُنيه، ولكنه أنتزع نفسه من أيديهما وقال محتداً:

- سأقوم بالمهمه بنفسي.

صعد مدرجة المقرعه، ونزع بنطاله، وبدى عارياً إلا من ملابسه الداخليه، والصق صدره ورأسه بالمقرعه، ممداً ذراعيه إلى الجانبين، بينما تولى حارسان شدّ معصميه بأطراف المقرعه، وكذلك شدّ قدميه من الأسفل وفي لحظات، أنزلت ملابسه الداخليه للأسفل ووضعت قطعة قماش بيضاء مكانها وكانت قد غطست في ماء معقم بالبرمنغنات، وصاح المأمور:

- ابدأ.

كانت الوجوه الكئيبه للسجناء، تحملق بتأثر وعلتها الشحوب، بينما كان رئيس العرفاء يهوى بعصاً طويله ليّنه، على الفخذين بكل ما أوتي من قوّة، واحد.. أثنان.. ثلاثه.. أربعه.. الخ... وكان جسد أزاد يهتز مع كل ضربة عصا، تاركةً خطاً أحمر اللون على اللحم الطري، وكان الألم يمزق أحشائه،

كلما تصاعدت أرقام الضرب، صراخ هائل ينبعث من أعماقه، ولكنه كان يكتمه بقوه كي لايخرج إلى الخارج، وعندما وصل العد إلى رقم عشره، كان مكان الضرب قد تخدر تماماً، ولم يعد الألم يهوي في أعماقه، وشعر بتراخٍ في أوصاله، وغاب عن الوعي، غفا غفوةً عميقه، مرّت في ذهنه عشرات الأحلام القصيره، ولم ينهض إلا حينما وجد نفسه محمولاً على أكتاف رفاقه، وسط هتافاتهم وصراخهم الذي كان يشق عنان السماء، ثم نزل يمشي بتثاقل وإبتسامةٍ كئيبه، كانت تزين وجهه الشاحب، ودخل الردهه ووراءه جميع رفاقه الذين أحاطوا به من كل جانب، وأمطروا وجهه وجبينه بسيلٍ لاينقطع من القبل الحارّه، وكانت أذناه تلتقطان العبارات المتدفقه من الأفواه.. دعني يارفيق أنا الأخر أقبله من جبينه، لقد كان كالطود الشامخ أرعب الجبناء بصموده، أرأيت كيف خافوا من نظراته.. أه لقد رفع رأسنا، وجعلنا نهزأ بالعذاب، أجل لقد كبُر في نفوسنا يارفاق، وضرب لنا مثلاً في التضحيه.

وفي هذه الأثناء، هرع السجانون إلى نقل المقرعه من الساحه، وبعدها فرغت الساحه من الحراس، والسجناء، وهدأ كل شيء.

ظلّ أزاد أياماً عديده يراجع مستشفى السجن لمداواة الجروح التي سببتها الجلدات ولم يكن بوسعه طيلة تلك الأيام الأسترخاء على ظهره، ولذلك فلقد كان يحرص أن ينام أو يستلقي على جنبيه.

كانت الأيام تسير ببطيءٍ ورتابه. كان المحكومين الجدد يتوافدون بأستمرار على الفرن ويجري لهم كالعاده الأستقبال الحافل بالهتافت والأنشايد، كما وينقل بين الحين والأخر أعدادٌ أخرى من المحكومين بالأحكام الثقيله إلى سجون الجنوب، ويجري لهم كالعاده أيضاً توديعٌ مؤثر، وتبادل للقبل والعناق، وكلماتٍ مشحونه بالعواطف الجياشه، وكأنهم يذهبون إلى مصيرٍ مجهول.

ذات يوم كان أزاد منهمكاً في تثقيف حلقة من السجناء السياسيين، حينما جاء سجّان يطرق بعصاه الغليظه باب الفرن طرقات منتظمه، وينادي بأعلى صوته:

- أزاد عبدالمجيد.. أزاد عبدالمجيد.. تهيأ مقابله.

نهّض من مكانه، أسمحوا لي يرفاق لارى من القادم .. ثم ضحك وألتفت إليهم ، من يكون ياتُرى، منذ أن سجنت لم يأتي لمقابلتي أي أحد من أهلي؟!

سار بخطوات حثيثه، ووراته السّجان وقطع الساحه والممرات المؤديه إلى غرفةٍ صغيره عند حراس الباب الخارجي، كانت مخصصه للزيارات والمقابلات المفاجئه. فوجد أباه ينتظره وعلائم القلق مرتسمةً على وجهه بوضوح، سار نحوه وإبتسامةٍ عريضه زيّنت وجهه، أراد أن يمحي أي أثر للكآبه تلك التي

تَخلقها عادة أيام السجن القاسيه، على ملامحه، تلقاه أباه بالعناق والقبل، وأختنقت الكلمات في حنجرته، وأجهش في بكاءٍ مرٍّ، وسالت الدموع بغزارةٍ من عينيه، فبللت وجهه ونزلت قطرات منها على وجه أزاد.

- ولدي، فلذة كبدي، كنت أتمنى الموت على أن أراك بهذه الحاله. قل لي كيف حالك؟. لماذا أنت هكذا؟ ماهذه الملابس التي تلبسها؟

- أنها ملابس السجن يا أبي.

مسح أزاد بكفيه دموع أبيه، ولكن لم يستطع أن يخفي الدموع التي فاضت بها عيناه، وكانت إبتسامته، كشعاع الشمس، الذي يتراءى من وراء الضباب في يومٍ غائم ممطر. جلسا على المصطبه الخشبيه، وتحدثا كثيراً، لقد سأل عن أحوال أخوته وأهل قريته. سأل عن زينب وعن أمها سأل..سأل. وكان والده يخبره بما يعرف من الأمور، زينب وأمها تقيمان عندنا الأن، لم يبق لهما من معيل. وكما تعلم أخوها طاهر طالب في دار المعلمين الأبتدائيه، وشوكت أفندي تركهما.. ليس لهما غيرنا.

- حسناً فعلت يا أبي.

- هذا بعض ما استطعت حمله.. جوز، زبيب، رمان، جبن، وهذه بعض الملابس، وهذا منديل طرزته لك أنامل زينب أنها وأمها تهديانك السلام، وتدعوان لك أن تخرج بالسلامه، ثم هذه بضعة دنانير، وأن كانت لا تكفي بالغرض! دسّها في جيبه.

- لم هذا التكليف يا أبي؟

- كيف تقول ذلك يا أبني، إنها لاشيء، أنني أحترق في أعماقي لأنني لم أستطع زيارتك طوال هذه الفتره.. ماذا أفعل؟ لم أكن أعرف أية أخبار عنك؟.. ثق ياولدي، كان للخبر وقع الصاعقه عليّ، لقد بكيت وتألمت إلى درجةٍ لاتصدقها، ماذا أفعل هذا هو حظي العاثر. لقد أردت أن تكمل تعليمك، وتتخرج لتصبح رجلاً أفخر به بين الناس. أقول لهم أنظروا هذا هو ولدي، لا أن أراك في هذا الوضع البائس.

إبتسم له أزاد ثانيةً، وحاول التخفيف عنه:

- لاتحزن يا والدي، فالسجن للرجال، وسوف لن أخيب ظنك، وسأكون الرجل الذي تفخر به، مازلت في أول الدرس، وسأخرج، وسيفخر بي الأهل والأحبه، وسأجد لنفسي مكاناً في قلوب الشعب، وسيأتي

اليوم الذي يسحق فيه الطغاة تحت الأقدام، ويجنون ثماراً مرة كالعلقم، ويدفعون ثمناً باهظاً لما يرتكبونه اليوم من آثام بحقنا وبحق الشعب.

- وهل أرى ذلك اليوم؟

- أجل ستراه.. ستراه، وأن لم يطول بك العمر سيراه أحفادك ولكنني موقن بأنك ستراه.

أرتفع صوت سّجان وهو يقتحم الغرفه:

- أنتهت الزياره.

نهضا وودعا بعضهما البعض. حمل أزاد بيديه الكيسين اللذين يحويان الهدايا، وصاح بصوت عال:

- أحمل سلامي ياوالدي إلى الجميع.. إلى الجميع.

وغادر أباه السجن، وعيناه تفيضان بالدمع.

-١٥-

كانت الأيام تمر كنيبةً، وكأن غيمةً سوداء تخيّم على سماء السجن، الأخبار التي كانت تتردد إلى السجن، مليئه بالهموم والأحزان، وأحلام المناضلين كانت تبدو كسرابٍ لاتناله الأيدي، أو كخيال بعيد المنال تضيع فيه الأدمغه، كلما مرّ يوم، بدى الطريق أكثر وعوره، والأشواك التي زُرعَت فيها ظلت تدمي الأقدام وتنزف منها الدم الغالي، غيمة السجن المعتمه، كانت قطعةً متصله من غيومٍ داكنه تخيّم على سماء الوطن، والرياح الهوجاء لم تكن تهبّ بكل قوتها وبطشها على أسر المسجونين، و تسمم حياتهم وتلقي بالرعب المتواصل في قلوبهم فقط، بل كانت رياحاً عاليه تهدد الشعب بمصيره وبمستقبله.

كل خبر كان يصل السجن، عن مسيرة النضال، يقترن بقلقٍ وألم، ثقله ثقل الجبال، في قلوب السجناء.. كبس الأوكار السريه..الأعترافات المشينه للبعض، تفكيك التنظيمات التي كان الأخرون يعيدونها، كما يُرمم النمل أوكاره وخلاياه التي تجرفها المياه.. كان وقع هذه الأخبار أليماً لدى الكل، ولكنها كانت مفزعه لدى البعض، مما جعلت مهمة أزاد ورفاقه في اللجنه، صعبةً وشاقه، في رفع المعنويات وأعادة الثقه في النفوس، على الأقل في الفتره التي يتواجدون فيها في السجن. البعض أرتسم على محياه علائم الأنهيار، وأصابه الملل والسأم القاتل من حياة السجن القاسيه أولاً، ولهذه الأخبار المرعبه، التي كانت تتفجر في أعماقهم كقنابلٍ موقوته تمّزق أحشائهم ثانيا، عديدون من كانوا يحاولون الخروج من التنظيم السجني، والعيش بمفرده مع السجناء العادين، والأنفصال عن الألتزامات التي تستوجبها الحياة الجماعيه، التي طالما كانت إدارة السجن تحاول جاهدةً تحطيمها وتمزيقها. ولكن ما أثار أستغراب أزاد، هو أن يجد هذه الحاله في أحد القياديين معه في اللجنه، أنه الرفيق عمر، ذات يوم وجده يذرع أرض الساحه الصغيره جيئةً وذهاباً، مطّرق الرأس، غارقاً في بحر من التفكير العميق، أقترب منه أزاد مبتسماً:

- أقرأ في ملامحك القلق الدفين، أليس كذلك؟
- أقول لك الحق، أشعر بأنني في اسوأ حال، ألا تسمع الأخبار؟
- أجل أسمعها، وهل فيها مايمسك بصورةٍ مباشره؟

أطلق زفرةً حاده، وقال:

- بلى.

- وكيف؟

- لقد قُبض على (چالاك) ويقال بأنه أعترف بكل شيء، بل أخذ يدلهم على الأخرين، ويرافق مفارز الشرطه، للقبض عليهم ووصلت به الحقاره إلى حدّ الشهاده في المحاكم على الأخرين.

ظلّ أزاد يحملق في وجهه، وأيقن من نبرة صوتهِ، أنه ليس قلقاً فقط بل مرعوباً إلى أقصى حدّ.. بينما واصل عمر كلامه:

- أنه يعرفني، كنت أعمل معه في تنظيمٍ واحد، بالتأكيد ذكر لهم أسمي، وقال مايعرفه عني، هذا مايقلقني، ويقضّ مضجعي، أنني أنتظر أن ينادوني في كل لحظه، وكلما أجد سجاناً يأتي من بعيد، أظنه قادم من أجلي.. أفهمت لماذا أنا قلق؟

- أجل.. أجل لقد فهمتك الأن يارفيقي.. ولكن قل لي لماذا حلقت رأسك بالموس هكذا؟

- ألا تعرف؟ لقد كان لازاماً عليّ أن أفعل ذلك.. أن أزيل شعر رأسي، رغم أن الصلع مسح الشعر في مقدمة رأسي، أنهم يعلقون المتهمين من شعورهم أثناء التحقيق، أنها الوسيله لأخذ الأعتراف.

تأثر أزاد في أعماقه، وأنتابه قلقٌ دفين هو الأخر، وأدرك أن رفيقه في حالةٍ نفسيةٍ مفجعه، وأحتار في أختيار الكلمات التي ينبغي أن يقولها له، ولكنه أدرك، أنه بحاجة إلى رفع معنوياته، وعلاجه كمريض.

قال له وقد وضع على شفتيه إبتسامةٍ باهته قسراً:

- قل لي يارفيق، هل تعتقد إذا أزال الشخص شعر رأسه لن يجدوا وسيلةً أخرى لتعذيبه؟

- ولكن كلما أتصور نفسي معلقاً من شعر رأسي، يكاد الجنون يطبق عليّ.. لا أعتقد من أنني سأتحمل مثل هذا العذاب.

- هون عليك يارفيق، أنك محكوم وقابع في السجن، ولا أظن أنك ستخطر ببالهم، مادمت لست أمام أعينهم، ثم أن المناضلين كثيرون جداً والمواقف خاصه بهم، ولا أظن سيصلك الدور على الأقل قريباً.

- وماذا تقترح عليّ أن أفعل؟.. هل أعترف في حدود مايقوله عني؟ أنني أفضل الموت على أن أسبب سجن أيٍّ كان.. ولكن إذا كان كل ما كنت أعرفه مكشوفاً فماذا عساي أن أفعل؟

أطرق أزاد رأسه وأخذ يفكر ملياً ثم شرع بتأثر يخفف عنه الخبر، تأبط ذراعه، مشاركاً أياه التخطي في الساحه، وظلّ يسرد عليه بعض مايعرفه عن قصص البطوله، ومواقف الشجاعه التي أتصف بها الكثيرون.

ولكن عمر، كان يبدو قد صمّم مع نفسه شيئاً، فتعابير وجهه وأطراقة رأسه، كلها تدّل على ذلك. كان يريد أن يقول شيئاً لأزاد، ولكنه كان حائراً ومتردداً، لايعرف كيف يبدأ ومن أين يبدأ! ولذلك، فقد آثر الصمت. ولكن أزاد لم يرَ من المصلحه كتمان الأمر على رفاقه في اللجنه، وبحث الموضوع تفصيلياً معهم، وتقرر أقصائه من عضوية اللجنه، وتُرك موعد أبلاغه بالقرار، لأزاد نفسه، بأعتباره مسؤولاً عن التنظيم. ولم يأت هذا القرار من الموقف الجديد لعمر أو الحاله المسيطره عليه ومخاطر ذلك مستقبلاً فقط، بل أن اللجنه كانت قد تلقت تقارير من رفاق أخرين عنه، كونه ومنذ فتره لم يكن يتقيد بالتوجيهات والتعليمات التي كانت تصدر من لجنة السجن التي هو عضواً فيها، وعلاقاته المستمره مع المطرودين، ولقاءاته الكثيره معهم، هؤلاء الذين كانوا يبثون الأشاعات الضاره، وكان بعضهم يتعاون مع إدارة السجن، بشكلٍ أو بآخر للحصول على بعض الأمتيازات السجنيه، سيما مع أحد السجناء السياسيين المطرودين من التنظيم، وكان يعيش بمفرده مع السجناء العاديين، وكان قد أتخذ له موقفاً سياسياً خاصاً معادياً للأتجاه الذي يسير عليه السياسيون المنظمون، ووصل الأمر بالرفيق عمر أنه كان ينقل المؤنه وهدايا المقابلات إليه، ذات مرّه، كان أزاد قد نبهه على ذلك قائلاً:

- رفاقنا يقولون، بأنك على صلةٍ بالمطرودين، سيما بالسيد (جمال) الذي لايّنفك يهاجم الحزب، وكما وأنك تعرف أنه يتعاون مع الأداره فما رأيك في ذلك.

- آه.. صحيح ألتقي به بالصدفه، سيما أثناء المقابلات أو عند الذهاب إلى مستشفى السجن، أنه من مدينتي ولي معه صلةٌ معرفةٍ سابقه.

- ولكنك عضواً في لجنةٍ قياديه، منعت الأتصال به!. ثم ماهي حكاية تسليم المأكولات والحاجيات التي ترد إليك من المقابلات إليه، لقد رأوك الرفاق مراراً وأنتم تأكلون على مائدةٍ واحده.

أيجوز لك هذا يارفيق؟.. أليس من الواجب أن تكون قدوةً ومثلاً للأخرين.. ماذا بوسعنا أن نقول للأخرين، أن هم فعلوا نفس الشيء؟

أجاب متلعثماً:

- أ.. صحيح، أنني مخطيء، وسوف لن يتكرر ذلك.

ولكن لم يكن صادقاً في وعده، بل وبعد الموقف الأخير، كان يفعل ذلك علناً، وكأنما هو الذي يخلُق للجنة التنظيم أعذار أقصائه.

ولذلك، في صباح أحد الأيام أستدعاه أزاد وبدون أية مقدمات، قال له:

- يارفيق لم يكن بودي أن أبلغك بهذا الخبر فأنك تعرف كم أنت عزيزٌ لدّي، وكنت متشوقاً على الدوام أن تبقى رفيق الدرب.. ولكن يبدو أنك لا تلتزم بالحدّ الأدنى المطلوب من الرفيق الذي يحمل على عاتقه أمانةً ومسؤوليه.

- قل يارفيق ماتشاء فأنا مقدرٌ لك موقفك.

- أبلغك قرار أقصائك من لجنة التنظيم، ورأت اللجنه أنك لم تعد قادراً على تحمل المسؤوليه.

إبتسم بمرارةٍ وقال:

- هذا قرارٌ صائب، لم أعد قادرا على تحمل أية مسؤوليات، فأنا منهك الأعصاب ومتعب نفسياً.

كان هذا القرار قد فتح باب الأنفلات له، وبدأ يفعل مايحلو له، دون مراعاة أية أعتبارات تنظيميه، مما حدى باللجنه أن تقرر فصله من التنظيم. وبُلّغ بالقرار وتلقاه فرحاً، كمن تخلّص من مأزقٍ، وأسرع في نقل فراشه وأمتعته، وأتخذ له مكاناً بجانب صديقه - جمال- وبموافقة الأداره.

أنقضت عشرة شهور على سجنهم في هذا المكان، وفي أحد الأيام جاءهم، المأمور، وبعد أن جمعهم في الساحه الضيقه، أبلغهم من أن سجن الفرن سيعفى بالنسبه للسياسيين، ولن يبقى سوى كمحطةٍ مؤقته لأستقبال المحكومين الجدد، قبل توزيعهم على باقي السجون. قال:

- وبالنسبة أليكم، فالباقون من المحكومين بأحكامٍ ثقيله، سوف يُنقلون إلى سجون الجنوب، إلى سجني الكوت ونقرة السلمان، ولكون محكومية معظمكم خفيفه، أنتم المشاركون في المظاهرات، ولم يتبقى منها سوى أشهرٍ أو على الأكثر سنةً واحده فقط، فقد قررت الجهات العُليا، نقلكم إلى السجون القريبه من مدنكم، لذلك فمن يرغب يقديم طلباً شخصياً إلى الأداره، و إلا وبعد إنقضاء شهراً واحداً، سوف تنقلون مع الأخرين إلى السجنين المذكورين والخيار يعود لكم.

بعد ذلك مضى المأمور في سبيله، ودبّ الضجيج والحركه بين السجناء. كان الكثيرون منهم، سيما أبناء مدن الشمال يفضلون النقل إلى سجن كركوك، كي يكونوا قريبين من أهاليهم وذويهم، وليوفروا عنهم مشاق السفر، ومتاعب الطريق، إلا أن أزاد كان متردداً. كان قد ظلَّ من محكوميته سنةً أو أكثر، وكان بوده لو نقل إلى سجن الكوت، كي يكون على مقربةٍ من الرفاق القياديين الذين طالما

أعجب بهم، أنه يفكر في تثقيف نفسه، وأعداد ذاته أعداداً ثورياً حقيقياً، وأكتساب التجربه والخبره والثقافه من أولئك، سيما وإنه كان معروفاً بادارة دورات ثقافيه، وحلقاتٍ تدريسيه، تُنظَم في تعلم شتى صنوف المعرفه السياسيه والفكريه، ثم حتى وأن ذهب إلى سجن كركوك، فسوف لن يتغيّر بالنسبه لزياراته، فأن أهله في تلك القريه البعيده، غير قادرين على أن يزوروه أسبوعياً أو شهرياً، وهو أيضاً غير راضٍ في أن يكلفهم هذا العناء، لذلك فأنه لم يكن لديه أي دافع شخصي للأنتقال إلى هناك مادام الأمر كان أختيارياً.

معظم المسجونين من مدن الشمال قدّموا طلباتهم حول موافقتهم للنقل إلى سجن كركوك، وكانوا جميعهم من أبناء مدينتي أربيل والسليمانيه، وعدد منهم من كركوك وأطراف زاخو ودهوك. أما المحاكمين من بغداد ومدن الجنوب والوسطى ففضلوا أختيار سجن الكوت، إلا من سينقلون أكراهاً إلى سجن النقره. كانت مشكلة نقل أزاد، من المشاكل التي طُرِحَت بينهم، وقد رأى الغالبيه منهم، بوجوب موافقته للنقل إلى سجن كركوك، لتولي مهمة إدارة التنظيم السجني هناك، سيما وأنه لم يكن من بينهم من يستطيع تولي هذه المهمه، سيما وأن أعضاء لجنة التنظيم الباقين في الفرن، شملهم النقل إلى سجون الجنوب.

مع الحاح معظم زملائه من أبناء الشمال حول الموافقه لأختيار سجن كركوك. كان باقياً على موقفه، ولكن صادف وأن جُلب أحد القياديين من سجن نقرة السلمان، حيث كان قد أستدعى من التحقيقات الجنائيه مجدداً للتحقيقً معه، حول الأعترافات الجديده التي وردت عليه، وكان محكوماً لمدة عشرين سنه، كان قد أودع في الموقف السياسي الملاحق للفرن.

وقد أستطاع أزاد أن يجري أتصالاً معه، ويعرض المشكله عليه عند ألتقائهما في مستوصف السجن، كان رأيه هو الأخر، أن لايترك رفاقه، بل من الضروري أن يكون معهم، لتولي مسؤوليته الحزبيه، وقال له:

- رفيقي، لست على صواب، عندما تفكر بذاتك، وتعتقد بأنه ستنال نصيباً أوفر من الثقافه عندنا، ولاتظن بأن الحياة عندنا سهله وميسوره، فكل واحد منا هناك معّرض للموت المحقق، ألا تصلكم الأخبار؟ قد يكون سجن الكوت أهون، فمنذ أيام الرفيق - فهد- وجدت بعض الأمتيازات، وبعض التقاليد السجنيه، كانت الأدارات تراعينا ولكن في سجن النقره فالأمر يختلف.

أنك حينما تتولى مركزاً قيادياً بجداره، وتكون بين رفاقك تتولى حلّ مشاكلهم وإدارة شؤونهم بأمانه، فهذه، مدرسه بحدّ ذاتها تتعلم منها الشيء الكثير، بل أكثر أحياناً من الكتب، وبوسعكم أن تخلقوا الأمكانيات لتثقيف أنفسكم ذاتياً. هكذا أرى الموضوع، وأعتقد من الصواب لو تعدل عن رأيك وتقرر الذهاب معهم أفهمت؟

وهكذا وقبل أن تنقضي مدة تقديم ألطلبات، قدّم أزاد طلباً حول نقله إلى سجن كركوك مع زملائه الباقين.

وقد جرى النقل بوجبتين، وكان هو ضمن الوجبه الثانيه.

-١٦-

بدأ القطار يطلق صرخاته المفزعه، أذاناً بقرب الوصول إلى محطة كركوك، كانت حزم البخار تنطلق بقّوه، وتنتشر في أرجاء الطريق، وعند وصوله إلى المحطه، خيّم ضباب كثيف من الأبخره، سماءها، شبيهه ضباب الشتاء، رغم أن الفصل كان خريفاً مبّكراً. وحينما تبددت الأبخره، كانت شمس الصباح قد بزغت منذ مدّه من الشرق، ترسل بأشعاعاتها الذهبيه الى كلّ مكان، وحزم منها كانت تدخل العربات من خلال الشبابيك.

كانت شلة من الشرطه المدججون بالبنادق تنتظرهم، وقد وقفوا في طابور متراصف، يحملقون بالعربات، وينتظرون نزول المسافرين منها، بينما المسافرون ينظرون إلى وجوههم بفضول، ثم يلتفتون إلى العربه الخاصه التي حشر فيها السجناء، وترسم إبتساماتهم تحيةٍ عابره. كان أفرادالشرطه المرافقين لهم، قد سدّوا باب العربه بأجسادهم ونزل بعضهم ممسكاً ببندقيته، وعندما خلا القطار، ضرب جميع الشرطه طوقاً على المكان، وأنزلوهم من العربه، وكان كل سجينين مرتبطان بقيد، وضعت الأفرشه و الحوائج في عدد من الشاحنات الخاصه بالشرطه، ثم أقتيدوا إليها وتراصفوا على مصاطبها الخشبيه بصحبة أفراد الشرطه، وأتجهوا في موكب موحد إلى السجن.

حينما وقفت الشاحنات، نزل السجناء منها، وفُتِحَ لهم الباب الحديدي الضخم، تطلعوا إلى بناية السجن، كانت تبدو، عتيقه، هرمه، يعود تأريخها إلى زمن العثمانين، تقع في وسط المدينه، كانت تشبه قلعةً حجريه.

قذفت بحاجياتهم في الساحه الكبيره، ونقل السجناء حقائبهم وحاجياتهم الأخرى بأنفسهم، وتراكض السجّانون بهراواتهم، يتقدمهم المأمور، الذي صرخ فيهم:

- تراصفوا هناك، سوف يأتي سعادة المدير ليراكم وليبلغكم بتوجيهاته!.

ولم يمض وقتٍ طويل حتى بان المدير ببدلته العسكريه المهندمه، ووجهه الأبيض الذي كان تتقطر منه الحيويه والعافيه، وحينما وصل عندهم، توقف في مكانه، منتفخ الأوداج، وسحب العصا البنيّة اللون من تحت إبطه، وأخذ يضرب بها حافة بنطلونه برفق، وقد ظلّ يحدّق في الوجوه، بفضول وصرامه، وقد أرتسمت على ملامحه علائم التفكير، ثم بدأ يذرع أرض الساحه أمامهم صامتاً لبعض الوقت، لم يلبث وأن توقف فجأةً وقال:

- هذه أول مرّة يستقبل فيها سجننا، سجناء سياسيون، ولقد خصصنا لكم مكاناً منعزلاً، لاشأن لكم بباقي السجناء العاديين، ولكن أفهموا أنني رجل عسكري، أحب النظام والضبط والطاعه، للسجن قوانين وتعليمات ينبغي أن تراعوها، لقد سمعت كثيراً عن مشاغباتكم، والفوضى التي أحدثتموها في باقي السجون، لن أسمح لكم هنا بهذا قطعاً أفهمتم؟.. سأستعمل القسوه الشديده معكم في حالة مخالفتكم لتعليماتنا!.

ساد الضجيج بين السجناء الذين كان عددهم ثمانيه، وهم الوجبه الثانيه التي نقلت إلى هذا السجن، وقف أزاد في وسطهم، ولم يتفوه بشيء في البدايه، أعتادوا على سماع مثل هذه العبارات في مناسبات شتى، وقد عركتهم معارك السجون والمواقف بحيث أصبحوا لايعيرون أي أهتمام لمثل هكذا كلام.

كان الهمس يدور بينهم. (لقد عدنا إلى نفس الحكايه.. لن يدعونا نرتاح ولو قليلاً قبل القاء هذه المحاضره اللعينه).. تحول الهمس إلى ضجيج، ثم إلى ضحك لدى بعضهم.

أشتاط المدير غضباً وصاح:

- لماذا هذا الصخب، أنحن في روضة أطفال؟! ألا يعجبكم قولي حسناً..حسناً.

تقدّم بخطواتٍ سريعه، من أحد السجناء كان يقف في أول الصف:

- رأيتك تُحدّث صاحبك وتحدث ضجيجاً وتقاطع كلامي، من أنت وما أسمك؟

نظر إليه السجين بأستغراب، يبدو أنه لم يفهم مايقوله.. كان بارزانياً من أحدى قراها البعيده في الشمال.

- أجابه بتردد- الگووش.

أشتاط غضباً:

- وهل هذا أسماً تنتحله؟ ألم تجد أسماً أخر؟

قال أخر كان يقف بجانبه، طويل القامه، يمسك بالسلاسل الحديديه التي كانت ترتبط بقيدي رجليه من الأعلى:

- سيدي أسمه قادر ملكو، و الگووش أسم قريته أنه لايعرف العربيه، ولهذا لم يفهم كلامك!.

- ومن تكون أنت.. هل أنت محكوم بالأشغال الشاقه؟

- أسمي أحمد من الگووش أيضاً، محكوم بقضايا البارزانيين.. حُكمتُ بثلاث سنوات أشغال شاقه، أمضيت منها أكثر من سنتين في سجن بغداد لم يبق من مدة محكوميتي سوى أشهر.

- ومن الذي سمح لك بالكلام؟.. أكنتُ أخاطبك، أم أخاطب هذا الأحمق؟

- ولكن لم يفهم كلامك!.

- ومالك أنت بذلك؟.. أجئت تتولى الزعامه.. آ.. لقد فهمت. إذن أنت رئيسهم؟. أنا لا اسمح لأحد أن يكون محامياً للأخرين وناطقاً بأسمهم. ياحراس خذوه إلى الحبس الأنفرادي، ليتعلم هناك النظام.

دبّ الضجيج بين السجناء وبلغ الأستياء والتذمر مبلغه، أندفع نحوه أزاد وصرخ فيه:

- بأي حق تقذفه في السجن الأنفرادي؟.. مالذي فعله. وأي قانون خرقه؟

تقدم منه المدير والشرر يتطاير من عينيه:

- من تكون أنت الأخر؟.. ومالذي حشرك في الموضوع؟؟

- أنا واحدٌ من هؤلاء الذين تراهم أمامك، لقد ذقنا في سجونكم بما فيه الكفايه من العذاب، حتى لقد أصبحنا نحن العذاب ذاته، لم نعد نخشاكم، لا بسجونكم، ولا غرفكم المظلمه، ولا القيود والسلاسل التي تقيد معاصمنا وأرجلنا، أفعلوا ماشئتم، لن نهاب أبداً.. ولكن أفهموا أننا لن نتسامح في شيء واحد؛ شيءٍ عزيز على نفوسنا.. هو الحفاظ على كرامتنا وكبريائنا.

- أذن أنت الذي كنتُ أبحث عنه، كنت أعرف أن واحداً منكم هو الرئيس، هو المنظم والرأس المدبّر، كنت أريد كشفه في البدايه.. ها قد عرفتك، وأعرف كيف أتعامل معك.

أجابه أزاد بتحدي:

- لن ترهبني تهديداتك، ولكن ليكن في معلومك، أن تطاولت على حقوقنا كسجناء سياسيين، وأردت أذلالنا في أول يوم تطأ فيه أقدامنا هذا السجن، سوف تصطدم بجدارٍ صلب، وليس بمجموعةٍ من السجناء قد تعتبرهم ضعفاء لاحول لهم ولاقوه، لقد خبرنا هذا الطريق ولم نعد نهابه أفهمت ياسيد المدير؟!

تسمّر المدير في مكانه، وظلّ ينظر اليه مشدوهاً، ولعله كان يتساءل في أعماق نفسه، من أين له هذه الشجاعه.. وقبل أن يأمر، كما كان متوقعاً، بسوقه إلى السجن الأنفرادي، هاج السجناء جميعهم وماجوا، وأرتفعت أصوات الأحتجاج، وتحولت إلى دويّ هائل يزمجر في سماء السجن.. يسقط.. يعيش.

هنا تراجع المدير مذعوراً، وعرف، أنه أمام مجموعه من الرجال من طراز خاص لايهابونـه، ووقـف بعيداً عنهم، وعيناه الحائرتان تتحركان في محجريهما، ترمقان الوجوه الغاضبه، بأندهاش، ثم قال:

- ماهذا الهرج والمرج.. ماهذا الصراخ؟.. أنا أكاد لا أعرف ماذا تريدون.. تكلموا بهدوء..

تدخل أزاد، نحن لانريد شيئاً، سوى أن نستقر في المكان المخصص لنا.. ولكن قل يا سـعادة المـدير: مالذي تريدونه أنتم منا بالضبط؟.. هل هدمّنا حائطاً، وحاولنا الهرب؟!. هل أعتدينا على أحـد مـن السجانين؟!. هل ألفاظنا كانت غير مهذبه؟.. لم تبق من مدة محكومياتنا سوى أشـهر، جئنـا إلى هنـا نقضيها بهدوء قرب أهلنا ومعارفنا، ومالذي فعلناه؟ وكيف عرفت أننا لانلتزم بأنظمة السجون؟..

تدخل أخر وقال:

- أنكم أنتم الذين تخرقون حتى الأنظمه القاسيه التي وضعتموها لنا.

وقال ثالث:

- سنعلن الأضراب عن الطعام، أحتجاجاً على هذه المعامله منذ اليوم.

ظلّ المدير يفكر برهةً، ولكن علائم التراجع كانت باديه على ملامحه بوضـوح، وفجـأةً غيّـر اسـلوب كلامه، إذ أسبغ عليه، نوع من اللطف والتهذيب، وكأنه لم يكن ذلك الرجل، الذي كان يقذف بتهديداتهِ ووعيدهِ في وجوههم، كأنه لم يكن ذلك الذي أراد أرهابهم من أول لحظـه تطـأ أقـدامهم أرض سـجنه. و قال:

- أنا لا أُريد اذلالكم، كما تظنون، ولكنني أريد منكم شيئاً واحداً، وهـو المحافظـه علـى النظـام، وقضاء ماتبقى لكم من مدة الحكـم، بهـدوء، وبـدون مـشاكل، أنـا لا أحـبّ المـشاكل، أنـا أعـرف أن الكثيرين منكم، رجال مثقفون، درسوا في المدارس، وأبناء عوائل شريفه، لايهمني ماذا فعلـتم، ولكـن مايهمني هو ماذا تفعلون عندي؟!.. أنا غـير مـستعد أن أخلـق لنفـسي أيـة أشـكالات مـن أجلكـم، وبوسعكم الأستفاده من عطفي ومعونتي أفهمتم؟ إذا وعدتموني، سأوفر لكم مـا أسـتطعت مـن سـبل الراحه.

ثم أطلق ضحكةً عاليه وقال:

- ها.. هل أنتهت المشكله؟.. هل أتفقنا؟

أجاب الجميع: نعم موافقون ياسعادة المدير.

وألتفت المدير إلى رئيس السجانين، وكان برتبة رئيس عرفاء، رجل طويل القامه، ضخم الجثه، يحمل في وجهه شارباً كثيفاً، وعينين صغيرتين حادتين، وقال له:

- لينقلوا أمتعتهم إلى الحجر، عند زملائهم الباقين، أسمع لقد عفيت عن السجينين، ولا حاجةً لأيداعهما الحبس الأنفرادي، أفهمت؟

- تأمر.. تأمر يا سيدي.

وهكذا سيقوا إلى الحجر، وكان زملائهم ينتظرونهم، وقد ألصقوا وجوههم بالقضبان الحديديه للباب، كانوا يراقبون مايجري في الساحه الخارجيه للسجن، وحينما أنفتح باب الحجر، هرعوا لأستقبالهم بالعناق والقبل، وأختطفوا منهم حقائبهم، ونقلوا حاجياتهم إلى الردهه المخصصه لهم، لقد عرفوا منهم، كلّ ماجرى في الساحه، وقال أحدهم مخاطباً أزاد:

- كنّا في الحقيقه قلقين، يبدو أن هذا المدير في غاية الحمق، لقد حاول أرهابنا أيضاً، ولكننا تجنبنا أقواله، وقلنا من الأفضل، أن لا نقدم على أي عمل قبل مجيء باقي الرفاق. وهكذا دار الحديث، وتشعب، ثم صرخ أحدهم:

- رفاق أتركوهم، لينالوا قسطاً من الراحه، أنهم متعبون، وبالتأكيد لم يفطروا.

ضحك أزاد:

- فعلاً نحن بحاجة إلى الزاد، لقد أنهكنا القطار وأتعبنا هذا المدير وأرهقنا بمسرحيته..آه كم أشتهي كوباً من الشاي الساخن.

كان الحجر يتألف من قاعتين متوسطتي الحجم، وساحةٍ صغيره، وفي ركن من هذه الساحه، كان هنالك حمام صغير، ومرحاض، كانت القاعتين أشبه بسردابين، كانتا رطبتين طوال السنه، ومظلمتين لا يدخلهما بصيص من ضوء الشمس، لا شبابيك فيهما ولا منافذ، والمكان الوحيد الذي يدخل فيه ضوء النهار، هو بابيهما الواسعين ذي القضبان الحديديه، وكان لزاماً على السجين الذي يؤي إليها أن ينزل عدد من الدرجات حتى يصل إلى أرضيه القاعده، حشر في القاعه الأولى عشرة سجناء فرشوا أفرشتهم بموازاة بعضها، وفي ركنٍ منها جمعو الحقائب والحاجيات الأخرى، وجعلوه مخزناً.. في مقدمه القاعه دكّةً صغيره، أستخدموها لوضع الذخائر والمؤن والأطعمه التي كانت تردهم من المقابلات وفي أسفل الدكّه، وضعت الصحون والأطباق، وحاجيات الطبخ، وأعداد الشاي. أمّا في القاعه الثانيه، فقد فرش الثلاثه الباقون أفرشتهم فيها. كانت هذه القاعه تأوي إضافة إليهم، عدداً من السجناء العاديين،

فمن حكموا بأحكامٍ ثقيله، كانت الأداره عزلتهم عن باقي السجناء في هذا الحجر. أما الساحه الصغيره، الجرداء المصبوبه بالأسمنت، فقد كانت ضيقه إلى الدرجه التي لم تكن تتسع أعداد المحجوزين، لو أرادوا التخطي فيها دفعةً واحده، ولذلك كان لزاماً عليهم ان يتناوبوا في هذه العمليه، وأن يجلسوا القرفصاء على الأرض بموازاة الحيطان العاليه، أو أن يفرشوا لهم، بسطاً او البطانيات، يجلسون عليها أو يتمددون أمام أشعة الشمس الدافئه.

وجودهم مع السجناء العاديين، وضيق المكان الذي حشروا فيه، وعدم ملائمته صحياً، جعلهم غير مرتاحين لما هم فيه ولهذا كان لزاماً عليهم أن يضعوا تنظيماً دقيقاً، لحياتهم المعاشيه اليوميه، وما أكثر خبرتهم في هذا المجال، فأن الأيام التي قضوها في المواقف وفي سجن بغداد، مع أقرانهم الأخرين من السياسيين، قد جمعت لديهم خبرة طويله لا يستهان بها.. كثيراً من الأمور، وكثيراً من التعليمات التي كانت الأداره قد وضعتها وجعلتها عادة يوميةً ثابته، لم يكن بوسع السجين العادي أن يفكر في تعديلها أو يجرأ على معارضتها، لم تكن مرغوبةً لديهم أو مناسبةً لهم كسجناءٍ سياسيين، ولكنهم كانوا يدركون من أن تغيير هذه العادات، يحتاج بالتأكيد إلى نضال دؤوب، قد يؤدي إلى الأصطدام بأدارة السجن، وبمزاج هذا المدير، الذي عرفوا طباعه من أن وطأت أقدامهم أرض هذا السجن.. كان عليهم أن يتريثوا، ليدرسوا أو يتدارسوا أوضاعهم بعنايه، وأن ينتظروا ريثما يزورهم أهليهم وأقاربهم، على الأقل ليستطيعون تسريب أخبارهم إلى الخارج عن طريقهم، وشرح مايعانونه لهم وجعلهم على أستعداد، كي يتقبلوا أي نتائج سيئه جراء نضالهم هذا.. منذ الصباح الباكر، كانوا ينهضون على أصوات جلبة وقرقعه الأقفال الحديديه الضخمه للأبواب ذي القضبان الحديديه، الباب الخارجي والبابين الضخمين، للقاعتين، وهي تنفتح ويضرب رئيس العرفاء، أو أي حارس مكلّف، بعصاد تلك القضبان ويصرخ بأعلى صوته، هيا، هيا، أنهضوا وأستلموا حصتكم من الصمون والشوربه، وفي حوالي الساعه الثامنه صباحاً كان عليهم أن يصطفوا ويجلسوا القرفصاء . .الواحد بموازاة الأخر، وسط الساحه الضيّقه، حتى وأن كان البرد، أو الرياح الشتائيه تلذع وجوههم، من أجل أن يتولى السجانون عمليه عدّهم وهذا مايسمونه المسطر. أما الجرائد والمجلات كانت ممنوعةً عنهم، وحتى سماعات الراديو التي كانت منصوبه في قاعات السجن للسجناء العاديين، كان الحجر يفتقر أليها، كانوا في حجز، وحجز فكري تام،. كان عليهم أن يفعلوا شيئاً. أجتمعوا ذات مساء في القاعه الكبيره، وجلسوا على الأفرشه، متقاربين، وتصدرهم أزاد، كان قد أختير مسؤولاً عنهم منذ أول يوم، وكان عليه أن يتشاور

معهم بشأن مايجب عمله إزاء أوضاعهم الجديده. تحدث إليهم طويلاً، ووضع أمامهم حقيقة دامغه، وهو أن لاسبيل أمامهم، سوى المطالبه بحقوقهم، التصّدي من أجل تحسين أوضاعهم، مع مراعاة المرونه، وتجنب الأصطدام بهم قدر الأمكان لأن معظمهم، سوف ينهي محكوميته خلال الأشهر التسعه القادمه، والبعض الأخر بعد أشهرٍ معدوده، تقرر بالأجماع رفع عريضه، تتضمن مطاليبهم إلى مدير السجن، وفي نفس هذا الأجتماع تقرر تسمية أربعة منهم كأعضاء (لجنة تنظيم المحجر) وأختير أخر كمسؤول لشؤون المخزن، وأخر كمدرب ومشرف على الرياضه، وأخر مسؤول عن المراجعات مع إدارة السجن والتحدث مع مسؤوليها وممثليها بشأن أستلام الأطعمه، والرسائل، والأمور اليوميه، وأصبحت الواجبات اليوميه الأخرى، تُؤَدى بالتناوب وفق جدول أسبوعي.

قُدّمت العريضه بيد رئيس العرفاء، الذي كان قد جاء ليشرف على الجرد الصباحي. تصفحها، وقرأها بسرعه، ثم هتف قائلاً:

- ما هذه؟.. لم تمكثوا بعد أكثر من شهر، وبدأتم بخلق المشاكل معنا؟.

قال أزاد، نحن لانطالب بأكثر مما يجب لنا من حقوق . . وضحك رئيس العرفاء ساخراً:

- ها..ها.. حتى المسطر اليومي، تريدون التملّص منه.. لماذا؟ اليس هذه قاعده منذ أن خلقت السجون.. الا ينبغي أن نتأكد من حضوركم اليومي؟.

قال أزاد محتداً:

- نحن لانريد، أن ندخل معك نقاش، هذه عريضه، موجهه إلى مدير السجن، وبأمكانك حملها إليه.. هذا كل مافي الأمر.

إنصرف رئيس العرفاء غاضباً ومتوعداً، لم يلبث وأن عاد وبصحبته عدد من السجانين. كان السجناء السياسيون متجمهرين في الساحه، ينتظرون الرد، كما وكان باقي السجناء العاديين المتواجدين، قد وقفوا في ركن من الساحه وبمواجهة الباب الخارجي، ينظرون إليهم بفضول.

قال رئيس العرفاء بحدّة:

- ألا تعرفون من أن العرائض الجماعيه ممنوعه هنا؟.. كلّ سجين مسؤول عن نفسه، وبأمكانه أن يراجع الأداره عما يريده.

- ماذا تعني بكلامك هذا؟ .. هل تعني أن عريضتنا مرفوضه.

- قال ذلك أزاد، بعد أن تقدم من الباب وأمسك أحد قضبانه بيده، بينما خلفه بقية السجناء.

- بالطبع مرفوضه، ويصّر المدير أن يعرف من المدبّر؟ أين هو رئيسكم ليتبعني؟

هتف الجميع:

- ما هذا الهراء؟.. نحن ليس بيننا رئيس ومرؤوس، وهذه العريضه كما ترى موقعه من قبل الجميع..!

أخرج رئيس العرفاء، ورقةٍ صغيره من جيب بنطاله، تفحصها قليلاً، ثم بدأ يقرأ أسماء عدد منهم، كان في مقدمتهم أسم - أزاد - ثم حدجهم بنظرةٍ غاضبةٍ وقال:

- الذين قُرأت أسماؤهم ليخرجوا في الحال.

وقف السجناء جميعاً في صفّين متراصفين أمام الباب الحديدي، وقد أرتسمت على ملامحهم الصرامه، ظلّت عيونهم ترسل نظرات حاده، غاضبه، تعكس حالة التحفز والأستنفار التي كانوا يعيشونها، وصاحوا بصوت غاضب واحد:

- لّن يخرج أحد منا، إننا نعرف ما تبيتونه لهم، قل لمديرك، أن كان يريد فرض معركةٍ علينا، نحن مستعدون لها، أفهمت؟

قال رئيس العرفاء بحدّه، ومشيراً بيده إلى الأعداد الغفيره من السجانين، من حاملي الهراوات، الذين كانوا يقفون وراءه:

- إن لم يخرجوا، ، سنخرجهم بالقوه، أفهمتم؟

وبعد أخذٍ وردّ، ومشادات مع رئيس العرفاء، لم يصلوا إلى أية نتيجه، وبدى واضحاً، أن إدارة السجن ليست فقط غير مستعده لتلبية مطاليبهم، بل مصممه على أخضاعهم وإذلالهم أكثر مما كانوا عليه، وتماثل أمامهم المصير المفزع لرفاقهم الذين وردت أسمائهم في الورقه، أما أنهم سيحشرون في الحبس الأنفرادي وأخضاعهم لعملية ضرب شديده، ماكانوا يسمونها ب (الكروان)، وبالتالي سينقلون حتماً إلى سجن (نقرة السلمان) هذا الأجراء الذي كان متبعاً لدى إدارات السجون تجاه السياسيين، فمن يظنون أن لهم دوراً في التنظيم السياسي، وقيادتهم.. وأزاء هذا الوضع المستجد لم يجد السجناء السياسيون بدّاً من المواجهه، وصاح أزاد فيهم:

- أسمع يارئيس العرفاء، وأن حاولتم مهاجمتنا فستجابهون، بموقف قد لا تدرك عواقبه.

ضحك رئيس العرفاء باديء الأمر ساخراً، ثم لم يلبث وأن ضاقت حدقتا عينيه، وخرجت منهما نظرات حاده تقدح شرراً، وتقلصت عضلات وجهه، وأنتصب شارباه الكثيفان، كذيل هرّ متحفز

للوثوب، وأمر حارس الباب بفتح الباب الحديدي، وأمر السجانين بأقتحام الحجر، وأنتزاع المطلوبين من بينهم، لقد حدث كل شيء بسرعةٍ عجيبه، لم يدع مجالاً لأي تفكير، أو أية مفاوضه، كان القرار قاطعاً وصارماً، صادراً من مدير السجن نفسه، كما وكان قرار السجناء وأن كان عفوياً أو غير محسوباً، قد أُتخذ بنفس السرعه، التصدي والمواجهه، وحينما إقتحم الحراس ساحة الحجر، أصطدموا بجدارٍ صلدٍ من المقاومه، ولكن كانت هراواتهم تدّق بعنف رؤوس وأعناق وأكتاف السجناء، صرخ أزاد:

أهتفوا يارفاق.. قاوموهم.. لقنوهم درساً بليغاً، هتفت الحناجر بهتافات ثوريه، تلك التي أعتاد على ممارستها السجناء السياسييون، في مثل هذه المواقف، أو الأحتفالات التي كانوا يقيمونها بالمناسبات الوطنيه، أو عندما كانوا يستقبلون الطوابير الجديده من السجناء وهم يضعون أقدامهم لأول مرّةٍ في السجن أو في المسيرات الأحتجاجيه التي كانت تشهدها ساحات السجون في كثير من المناسبات.. يعيش.. يسقط.. يعيش.. الموت ل.. تحولت الهتافات إلى دويّ هائل في سماء السجن، والمناطق الجاوره، التي تزدحم فيها الدوائر والأسواق، ووصلت صرخاتهم الحادّه إلى أسماع الموظفين والناس والسابله الذين توقفوا عن المسير في الشوارع والطرقات المحاذيه أو القريبه، وبدأو يتجمهرون أمام البوابه الكبيره للسجن، ينصتون، ويتدافعون ليحملقوا إلى الداخل، علّهم يعرفون عما يحدث في الداخل، تحول الصِدام إلى معركةٍ حاميةَ الوطيس، بالهراوات وبقبضات الأيدي، دافع السجناء عن أنفسهم بشجاعةٍ فائقه وأستخدموا حتى الأحذيه، والأواني والقدور، وما كانت تقع أيديهم عليه في هذه المعركه. السجناء من غير السياسيين، الذين كانوا يعيشون معهم بالحجر، قد وقفوا في ركنٍ من الساحه مذهولين، ينظرون بقلقٍ إلى هذه المعركه، و بريق خوف ممزوج بالأثاره، والأعجاب، يتدفق من أعينهم وهم يتابعون مايجري أمام بصرهم. لم تكن المعركه في صالح السجانين، فلقد أضطروا للتراجع، ووصل الخبر في الحال إلى المدير، الذي جاء هائجاً كالثور الذي لمح سكين الجزار، وظلّ يقذف رئيس العرفاء والحراس بأقذر السباب وأشنع النعوت، وقف منتصباً منتفخ الأوداج قبالة باب الحجر، لكنه لم يجرء على الدخول.. بدأ يصدر الأوامر المتتابعه، تسلق أعدادٌ من الحراس أبنية السجن وأنتشروا على السطوح، وجلس بعضهم القرفصاء على محاذاة الجدران المحيطه بالحجر، يمسكون ببنادقهم المصوبه فوهاتها إلى رؤوس السجناء، إنهم في حالة إستنفارٍ كامل، عضلات وجوههم مشدوده، وأعصابهم متوتره، يأكلهم القلق من الداخل، عاود الحراس هجومهم الثاني، وأقتحموا من جديد الحجر، كان يسيرخلفهم أعدادٌ أخرى من الحراس، يحملون البنادق في أيديهم، كانوا يندفعون وكأنهم يقتحمون حصناً حصيناً للعدو، بدأت المعركه من جديد، كان السجناء السياسييون يستبسلون، ويقاتلون بضراوه، كان

الرياضيون، وأقوياء الجسد منهم، يسددون إليهم بقبضات أيديهم ضرباتٍ شديدةً موجعةً إلى رؤوسهم ووجوههم، يستخدمون أي شيء تقع أياديهم عليه، كان السجين (كريم) شاباً لم يتجاوز الثلاثين من العمر، كان يعمل خبازاً في مدينة السليمانيه، قبل أن يُلقى القبض عليه بتهمة المشاركه في مظاهرات المدينه، ويحكم عليه لمدة سنه، كان أنساناً، نقياً، مخلصاً، ثورياً، شجاعاً، كان أقرانه، يروون عنه الكثير من القصص والحكايات لمواقفه الشجاعه والغيوره، في مظاهرات مدينتهم و ينسبون إليه أعمالاً ومواقف، تتطلب قدراً كبيراً من الشجاعه والأقدام، كان يمتلك عضلاتٍ مفتولةٍ قويةٍ إلى جانب شجاعته، حتى بعد سجنه، حرص على أن يُبقي عضلاته مفتوله وقويه، كان ينهض في الصباحات الباكره ليمارس الرياضه التي تُبقي له لياقته الجسديه، كان هذا اليوم، يومه حقاً، لقد فعل ما لم يقدر عليه الأخرون، لم يكن بوسع أيّ حارس أن يقف أمامه للحظات، كانوا يتهاوون ويتساقطون على الأرض أمامه بفزع، كانت لكماته قويةً وشديده، وقبضاتِ يديه تدقُ وجوههم ورؤوسهم، كمطرقةِ من حديد، كان يضرب أعناقهم بحافة يده اليمنى التي كانت أقسى من نصل السيف، فيدورون على أنفسهم ويسقطون.. كانت عيناه قد توسعت حدقتاها بشكلٍ مخيف، يُلقي بنظراتٍ غُضبى في كل وجهه، كان يهرع بلمح البصر لنجدةِ أي سجين تخور قواه، أو يتغلب عليه حارس، كان هائجاً، لايقوى أحد من الحراس على مجابهته. أما أزاد فبالرغم من بنيته الضعيفه كان يُقاتل كالأخرين، يَهتف مثلهم، يبعث روح المقاومه فيهم.. (يارفاق، ينبغي أن نلقّنهم درساً بليغاً).. هَجَمَ عليه حارسٌ أعور، وأشتبك معه في معركة، ثم أستطاع إنتزاع البندقيه منه، هوى بأخمص البندقيه على رأسه، فطارت سدارته على الأرض، تدفق الدم من رأسه الحليق، وسال على صدغيه، ضربهُ، عدّة ضرباتٍ أخرى، فسقط الحارس مَغشياً عليه، وفي هذه اللحظه، هجم عليه حارس أخر من الخلف وسدد بأخمص بندقيته ضربةً قويةً إلى رقبته. سقط أزاد على الأرض كشجرةٍ قُطعت من جذورها، وسقطت البندقيه من يده، لمح كريم هذا المشهد، وهرع لنجدته، ولكم الحارس لكمتين قويتين، أسقطتاه أرضاً، كانت المعركه بين كرٍّ وفرّ، كان الحراس على وشك تلقي الأمر بالرمي، ولكن حصلت تطورات سريعه، فلقد حضر بعد حين. متصرف اللواء ومدير شرطتها وجمع أخر من المسؤولين، كما وصدرت الأوامر بسَحب الحراس من الداخل.. وهكذا إنتهت المعركه!.. وبدأ السجناء يداوون جروحهم بأنفسهم، ونقل بعضهم إلى مستوصف السجن للتداوي.

ولكن ظلّت مطاليبهم معلقه، لم يبلغوا بشأنها شيئاً، وسرّب إليهم (نورالدين) السجين العادي المحكوم بالأشغال الشاقه لمدة (١٥) سنه، والذي كان مراقباً على السجناء ويمثل الأداره، خبراً مفاده:

بأن في نية المدير نَقل بعضهم إلى السجون الأخرى وهو بصدد أجراء المكالمات الهاتفيه مع مدير السجون العام في بغداد، هذا الخبرأقلقهم كثيراً، لأنه لو نفذ هذا الأجراء سيكون أزاد من ضمنهم حتماً، وسيؤثر ذلك ليس فقط على تمكن البقيه من مواجهة بطش ومؤامرات المدير وإدارة السجن، بل و يَترك فراغاً كبيراً، بسبب عدم وجود بديل أخر بينهم، يمتلك المؤهلات الفكريه والسياسيه والنضج ليتولى مهمة التنظيم وقيادتهم وتثقيفهم. جرى بحث الأمر بينهم، وتشاوروا فيه طويلاً، ووصلوا إلى قرار: إنه ينبغي أن يفعلوا أي شيء يقدرون عليه لمنع هذا الأجراء، وأنه يجب عدم التراجع عن مطاليبهم مهما كلفهم ذلك من تضحيه، حتى وأن أدى ذلك إلى إعادة نقلهم إلى سجن بغداد أو أرسالهم إلى سجن نقرة السلمان، دفعةً واحده.. كانوا يعتبرون هذا الحل على أية حال، أفضل من تشتيتهم، وبالتالي أخضاعهم بالقوه لذلك فقد قدّموا في اليوم الثالث بعريضةً جديده إلى مدير السجن وإلى متصرف اللواء، ووزارة الشؤون الأجتماعيه، ومديرية السجون العامه، وجهاتٍ أخرى، أستعرضوا فيها ما لاقوه من امتهان لحقوقهم كسجناء سياسيين، وذكروا فيها كلّ الأجراءات القمعيه المُتخذه بحقهم بما فيها الهجوم الأخير الذي تعرضوا له، وذكروا مطاليبهم فيها بالتفصيل، وأعلنوا فيها عن أضرابهم عن الطعام لحين تلبية مطاليبهم. حمل عريضتهم حارس الباب إلى إدارة السجن، وحضر بعد حين مأمور السجن بصحبة عدد من الحراس، يطلبون حضور أزاد لمقابلة مدير السجن. تداول السجناء بينهم، وأصّر البعض على عدم مثول أزاد أمام المدير، وأعتبروا ذلك مؤامرةً، لأختطافه، ومن ثمّ نقله إلى سجنٍ أخر، وقف ألسجناء أمام الباب كسّدٍ منيع، وصرخ أحدهم:

- لن يقع بين أيديكم أيها الأوغاد، تعالوا خذوه، فنحن مستعدون لمعركةً أخرى!

قال أخر:

- مطاليبنا مدونه في العريضه، نحن مضربون عن الطعام.. حتى الموت.. أتفهمون؟!

تعالت الأحتجاجات، وتراجع المأمور أمام عناد السجناء، وقفل راجعاً إلى المدير.. وأثناء ذلك أجتمع أزاد مع رفاقه، وكان رأيه، بعد تفكير طويل مع ذاته، قد أستقر على أمرٍ، رأى من الصواب مفاتحتهم به.

قال لهمّ داخل القاعه:

- أيها الرفاق.. لقد فكّرت في الأمر ملياً، ووجدت من الأصلح أن لاندخل في معركةٍ جديده كالتي حدثت يوم امس الاول، ينبغي أن لا نغفل حقيقةٍ بينه، وهو أننا سجناء، أسرى بين أيديهم، ندافع عن

حقوقنا كل ما أمكننا ذلك، في أطار المشروعيه، وقوانين وتعليمات السجن، نحن لن نخوض معركةً إذا لم تُفرَض علينا.

كان الجميع ينصتون إليه بأهتمام، كانوا يحبونه، حبّاً عظيماً، كانوا يثقون فيه، ثقةً عمياء، ففي الأيام التي قضوها معه بين جدران السجون والمواقف، لم يجدوا فيه، سوى الصدق والمحبه، والأقتحام والشجاعه والصمود والمواقف الحرجه.. الكل يتذكرون كيف قفز إلى مركز الصدراه في مسؤولية قيادة التنظيم السجني في (الفرن) حينما رفض الأقدم منه تولي هذه المهمه، كلهم يتذكرون مواقفه، في تلك الأيام العصيبه التي عاشوها معه.

ثم أردف قائلاً (لم الخوف؟ سأذهب بنفسي، وأفاوضهم، سأكرر على مسامعهم ماكتبناه في عريضتنا، سأواجه هذا المتهور بشجاعه، ساريه، بأننا لانخشى منهم أبداً، وتحت أية ظروف.. لقد حُكمنا من أجل قضيه، ونحن مؤمنون من أن قضيتنا عادله، لأنها قضية شعبنا، و كنا مدركين على الدوام من أن الدرب الذي نسير فيه ليس مفروشاً بالورد والرياحين إنها معركةً، ولكنها قد تختلف أشكالها بأختلاف الظروف والأمكانيات).

همس السجناء بينهم، وقال بعضهم (لقد عهدناه مضحياً بنفسه على الدوام) وذكرّ أخرون بعضهم، بموقفه في (الفرن) حينما تقدّم من المقرعه بإباء وشجاعه وسط حشدٍ كبير من السجناء والحراس، في ساحه سجن بغداد، ليُضرب بالسياط، وليمزق الجلاد لحم جسده، وقد آثر ذلك، على أن يقحم رفاقه عذابات معركه. كانوا مستعدين لخوضها من أجل منع ذلك السوط اللعين من أن ينهش لحم جسده.. أجل هكذا عهدناه.

- (هذا قراري، أردت أن أبلغكم به، وأعلموا من أنهم قادرون من إنتزاعهم أياي من بينكم، سأذهب فأن لم أحقق شيئاً في المفاوضه، فأنا لن أعود أليكم بالتأكيد.. وتولوا أنذاك قيادة أنفسكم، وقرروا ماتشاؤون، ولكنني أرى بأن لاسبيل أمامنا سوى مواصلة الأضراب عن الطعام.. ولكن ليس فقط من أجل عودتي، بل من أجل مطالبكم كلّها!

أنفض الأجتماع، ولكن عشعش الوجوم على الوجوه، وساد صمتٌ مطبق، كان واضحاً لديهم من أن أزاد سينفذ قراره ويذهب إلى الأداره، ولم يكن أحداً، يخالجه الشك من أن المدير سينتقم من أزاد أو لربما يسومونه العذاب الشديد. وحينما خرج أزاد من الباب الخارجي، بخطىً ثابته مع السجانين الذين أقتادوه إلى غرفة مدير السجن، كانت سُحبٌ داكنه من الكآبه والقلق تخيّم على قسمات وجوههم وألم ممض كان يتهشم من الداخل.

من مقالات وكتابات الكاتب الأستاذ المرحوم

أسماعيل رسول أحمد

١- مقالات أدبيه وبحوث مابين ١٩٤٨-١٩٤٩ ثانوية أربيل حين كان رئيساً للجنة الخطابه.

٢- بحوث ومقالات سياسيه كتبها في سجن بغداد المركزي- حين كان سجيناً سياسياً وكانت كتاباته تشكل مادةً فكريه لتثقيف رفاق السجن أنذاك.

٣- بحوث ومقالات كتبت في فترة النضال في سنوات الخمسينيات ونشرت في جريدة (الأهالي) وبأسماءٍ مستعاره، وأخرى في جريدة (راية الشغيله السريه) للأعوام ١٩٥٤/ ١٩٥٦.

٤- مقالات حول هجرة الفلاحين من الريف نشرت في مجلة التقدم عام ١٩٥٨.

٥- قصة (في باص المصلحه) باللغه الكرديه، ونشرت عام ١٩٥٨ في مجلة (بەیان) .

٦- مقالات سياسيه وأدبيه نقديه في مجلة المثقف الصادره في كركوك ١٩٥٨ وباللغه الكرديه.

٧- مقالات سياسيه حول ثورة تموز، ومستقبل الشبيبه ومسائل تتعلق بالديمقراطيه، والجبهه الوطنيه، نشرت في جريدة الحضاره (البغداديه) مابين ١٩٥٨/ ١٩٦٠.

٨- دراسات في الأدب، ومقالات نقديه وفكريه حول الجبهه الوطنيه ومهمات نشرت بأسم (أبو دلير)، وأخرى حول تفكك النظام الأقطاعي، والنظام البرلماني والديموقراطيه وأخرى نشرت في جريدة النور (البغداديه) للفترة ما بين ١٩٦٨/ ١٩٧٠.

٩- مقالات في جريدة الثورة- العدد ٦٣٣- في ٢١/ ٩/ ١٩٧٠ حول الهجمه الأستعماريه.

١٠- مقال نقد لكتاب الأسس النفسيه والأجتماعيه للقبائل الكرديه، نشر في جريدة التآخي في ١٤/ ٦/ ١٩٧١.

١١- مقال حول (اللغه الأدبيه الكرديه الموحده)، نشر في جريدة التآخي بتاريخ ١٩/ ٧/ ١٩٧١.

١٢- بحث التطور الأقتصادي في كردستان العراق- مجلة شمس كردستان- العدد (١) في الأول من حزيران ١٩٧١.

١٣- مقال حول حرية المرأة بالتغيير الأجتماعي- مجلة شمس كردستان/ العدد (٧) في أذار ١٩٧٢.

١٤- مقالات منشوره باللغه الكرديه حول دراسات في (الأدب والأدب الفولكلوري) و (النقد الخالي من الفائده) في صحيفة (هاوكاري) العدد الأول والثاني من عام ١٩٧٠.

١٥- مقالات سياسيه وأدبيه في مجلة المثقف.

١٦- مقالات حول (جوانب تطور النظره إلى المرأه) و (المرأه العراقيه بين الحياة العامه وأوضاعها الأجتماعيه المتأخره) - جريدة النور ٣/١١/ ١٩٦٩.

١٧- مقال كيف نخلق الجهاز الكفوء للدوله- جريدة النور ١٩٦٩/٨/٢٦.

١٨- مقالات في جريدة التآخي للفتره من ١٩٧٢/ ١٩٧٩ وبحلقاتٍ عده تخص الأدب والنقد الأدبي.

١٩- مقالات بأسماءٍ مستعاره (الكاتب الكردي) سياسه أشتراكيه.

٢٠- نشرت قصة (المأزق) (تەلەزگە) باللغه الكرديه في أيلول ١٩٧٣ وأُعيد نشرها في حلقاتٍ في جريدة (طلبة الشعب) (١٩٧٤/٤/٨).

٢١- نشرت قصه قصيره للكاتب بعنوان (العريضه) في مجلة الراصد الأسبوعيه في ١٩٧٤/١٠/٢١.

٢٢- قصة هومەر باللغه الكرديه ونشرت في مجلة شمس كردستان في العدد (٢٥) في ٥/٢٦/ ١٩٧٥.

٢٣- مقال الثقافه الكرديه والملامح الجديده لمضامينها - مجلة رۆشنبیری نوێ في سنة ١٩٧٦ العدد ٤٧١.

٢٤- مقالات النقد الأدبي- مجلة هاوكاري العدد ٣٣٨ (١٩٧٦) النقد الأدبي الكردي- مجله رۆشنبیری نوێ- العدد (٥٥- ٥٦) في كانون الأول ١٩٧٦.

٢٥- نشرت قصة (پەرداخی ژەهر) (قدح السم) في مجله بەیان- العدد (٥٨)- كانون الأول ١٩٧٩.

٢٦- نشرت قصة (گورگە) في العدد (٧٣)- أيلول ١٩٨٧ /مجلة بەیان.

٢٧- صدر للكاتب كتاب بعنوان (چەند باسیك لە ئەوەوە) في أيلول ١٩٨١.

٢٨- قصة (رازیکی شاردراوە) - مجلة كاروان- العدد (١٠) تموز ١٩٨٣.

٢٩- قصة (سەنگەرە خولاوەكە) — جريدة هاوكاری- العدد ٧٥٣- ١٣/٩/ ١٩٨٤.

٣٠- قصة(خەفەتی رۆژێك لە ژیانی پیاوێکی خانەنشیندا) في مجلة بەیان العدد (١٠٠) تشرين الثاني ١٩٨٤.

٣١- (رۆشنبیری وناسوكانی) مقال جريدة هاوكاری بعدة حلقات ابتداءاً من ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٤.

٣٢- (له پێناوی دانانی قاموسێکی کۆ کردنەوەی مفرەداتی کوردیدا) مقال في جريدة هاوكاري في ٣/١/ ١٩٨٥

٣٣- أخيراً يصل عدد المقالات والدراسات التي كتبها المرحوم أسماعيل رسول أحمد إلى أكثر من (٢٥٠) مقالاً في مختلف المجلات الثقافيه والسياسيه، إضافةً إلى مجموعة قصصه الوارده والتي كان أخرها - التحدي- التي هي بين يدي القراء الأن.

ژيان أسماعيل رسول أحمد